تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيصات المحاضرات

من ١ إلى ١٤

المحاضرة الأولى
سر قصة يوسف عليه السلام

المقدمة

_ سورة يوسف عليه السلام: سلوى كل محزون _

تُعدُّ سورة يوسف من أعظم سور القرآن الكريم، إذ تحمل في طياتها دروسًا في الصبر والتمكين، وتسكن القلوب الحزينة بالطمأنينة .

هي سورة مكية بلا خلاف، نزلت في أشد الفترات التي مر بها النبي ﷺ خلال العهد المكي، بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى، حين اشتدت الابتلاءات عليه بفقد أحب الناس إليه، خديجة وأبي طالب، وبعد معاناة طويلة في شِعب أبي طالب، حيث تخلى عنه قومه وأقاربه .

وكأنما جاءت السورة تواسي النبي ﷺ، لتقول له: "إن كان قومك قد هاجروك وآذوك، فإن إخوة يوسف قد فعلوا به أشد من ذلك. لكن النهاية كانت التمكين والمغفرة، وهكذا سيكون حالك ".

لقد بشرت السورة النبي ﷺ بأن الابتلاء طريق إلى التمكين، كما كان الحال مع يوسف عليه السلام، وأن من عادوه سيتوبون وينصلح حالهم، كما تاب إخوة يوسف بعد سنين من الجفاء، وقد تحقق ذلك بعد فتح مكة .

أما عن سبب نزولها، فقد طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يروي لهم قصصًا للعظة والتأمل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فجاءت سورة يوسف تسليةً للنبي وصحابته، لما في القصة من تأثير عظيم على القلوب .

ولهذا سُمّيت "سورة يوسف" بـ "سلوى كل محزون"، فلا يمر إنسان بكرب أو ضيق إلا وجد فيها السكينة، والإجابات على تساؤلاته الحائرة، بل ونورًا يضيء له دربه في ظلمات الحياة.

_ 🔶 الحروف المقطعة في بداية سورة يوسف: لغزٌ وإعجاز _

افتُتِحت سورة يوسف بالحروف المقطعة ﴿الر﴾، وهي من الأحرف التي وردت في مطلع العديد من السور القرآنية. وقد تعددت الأقوال في تفسيرها، وأشهرها قولان :

»» رأي ابن عباس رضي الله عنه

كان يرى أن كل حرف منها يرمز إلى كلمة؛ فـ "ألف لام راء" تعني "أنا الله أرى"، و "ألف لام ميم" تعني "أنا الله أعلم"، معتبِرًا أن هذه الحروف ترمز إلى أسماء من أسماء الله تعالى .

»» رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

يرى أن هذه الحروف لا تحمل معنى مستقلًا بذاتها، بل جاءت لحكمة عظيمة تتجلى في أمرين :

■ أولًا: لفت انتباه العرب

نزل القرآن على العرب، وهم أفصح الأمم وأعظمها شغفًا باللغة، وكانت البلاغة صنعتهم الأساسية. فإذا سمع أحدهم فجأة "ألف، لام، راء" دون سياق مألوف، سيجذبه الفضول لسماع المزيد. فالإنسان دائمًا ينجذب إلى ما يتقنه ويفهمه، وكان العرب محترفين في اللغة، فكانت هذه الحروف وسيلة لإثارة انتباههم إلى ما سيليها من آيات .

▪ ثانيًا: التحدي والإعجاز

بعد أن التفت العرب إلى هذه الحروف، جاء التحدي: "هذا القرآن، الذي لا تستطيعون الإتيان بمثله، مكوّن من نفس الحروف التي تستخدمونها يوميًا ".

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لهم: "هذه الألف، واللام، والراء، وغيرها من الحروف هي أدواتكم نفسها، فأتوا بمثل هذا القرآن إن استطعتم ".

ورغم ذلك، وقفوا عاجزين عن محاكاته، حتى وهم أهل الفصاحة والبلاغة .

لقد كانت هذه الحروف إعلانًا واضحًا بأن هذا الكتاب ليس من صنع بشر، بل هو وحيٌ منزلٌ من عند الله. ويتضح ذلك في اقترانها المتكرر بذكر القرآن في مواضع عديدة :

﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

-﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

-﴿طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

-﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

وكأنها رسالة خفية، تؤكد لكل من يستمع أن هذا القرآن كلام الله الذي لا يُعلى عليه، وأن عجز العرب عن الإتيان بمثله هو في حد ذاته أكبر دليل على صدقه وإعجازه.

- تأملات في قوله

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

يقول الله تعالى في مطلع سورة يوسف: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ واختيار كلمة "تلك" بدلًا من "هذه" يحمل دلالة عظيمة؛ ففي اللغة العربية، تشير "تلك" إلى الشيء البعيد، وكأن الله سبحانه وتعالى يرفع شأن القرآن إلى مقامٍ عالٍ لا يُطال، فهو "كتاب عزيز" لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، ولا يبلغون منزلته .

- أما وصفه بـ "المبين"، فيؤكد أنه كتاب واضح في معانيه وأحكامه، لا غموض فيه ولا ألغاز، فهو يبين العقائد، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات، ويكشف حقائق الآخرة وما بعد الموت بوضوح جلي .

وقد استدل أهل السنة والجماعة بوصف "المبين" على أن الأصل في ألفاظ القرآن أن تُؤخذ على ظاهرها، وخاصة في باب أسماء الله وصفاته. فلو كانت الألفاظ تحمل معاني خفية دائمًا، لما كان القرآن مبينًا. فحين يقول الله عن نفسه "يد" أو "وجه" أو "يأتي"، فالأصل أن تُفهم هذه الألفاظ كما هي، دون أن نؤولها بلا دليل، لأن العرب حين يسمعونها يفهمون معناها مباشرة دون الحاجة إلى تفسير غامض .

فالقرآن كتاب هداية وبيان، وليس لغزًا يحتاج إلى فك رموزه، بل هو كلام الله الواضح الجلي، يُفهم بيسر لمن تأمله بقلب سليم وعقل متدبر.

◆ تأملات في قوله تعالى: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "

▪أولًا: التعبير بلفظ الجمع "إنا" بدلًا من "أنا "

يستخدم الله سبحانه وتعالى أحيانًا ضمير المفرد، وأحيانًا ضمير الجمع عند الحديث عن نفسه، وهذا الاختلاف ليس فيه تعارض، بل يحمل دلالات عظيمة :

▪عند الحديث عن التوحيد، يُستخدم ضمير المفرد، كما في قوله تعالى: "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني"، وهذا تأكيد على وحدانية الله .

▪أما عند الحديث عن العظمة والقدرة والكمال، يُستخدم ضمير الجمع، كما في قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، وهذا أسلوب في اللغة العربية للتعظيم، مثلما يُستخدم في بعض الخطابات الرسمية: "قررنا نحن" بدلًا من "قررتُ ".

▪ثانيًا: دلالة "أنزلناه" على علو الله سبحانه وتعالى

في قوله: "إنا أنزلناه"، نجد دليلًا واضحًا على علو الله عز وجل، حيث إن الإنزال لا يكون إلا من الأعلى إلى الأسفل. وقد استدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية وغيرها على أن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، فوق سماواته. ومن الأدلة على ذلك :

▪الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ – دليل واضح على استواء الله على عرشه .

▪إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ "

-إثبات للعلو، حيث تصعد الأعمال الصالحة إلى الله.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" – التنزيل يدل على العلو .

" ▪عروج الملائكة" – الملائكة تصعد إليه، مما يدل على أنه في العلو .

" ▪سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"– تصريح بعلو الله المطلق .

▪أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ" – دلالة على أن الله فوق خلقه .

إذن، هذه الآيات تؤكد فوقية الله سبحانه وتعالى، خلافًا لأهل البدع الذين ينكرون هذه الحقيقة .

▪ ثالثًا: القرآن ودعوة العقل للتدبر والفهم

يخاطب الله تعالى العقول في قوله: "لعلكم تعقلون"، مما يدل على أن القرآن قائم على الأدلة العقلية التي تخاطب الفطرة السليمة. فمن ذلك :

-الأدلة العقلية على التوحيد :

" - أفمن يخلق كمن لا يخلق"؟ أفلا تذكرون؟" – مقارنة عقلية تثبت استحالة مساواة الخالق بالمخلوق .

-الأدلة العقلية على البعث :

" - وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، حتى إذا أقلت سحابًا ثقالًا، سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات، كذلك يخرج الموتى لعلكم تذكرون" – قياس إحياء الأرض بعد موتها على البعث بعد الموت .

-الأدلة العقلية على الرسالة :

" - فقد لبثت فيكم عمرًا من قبل أفلا تعقلون؟" – استخدام السيرة الذاتية للنبي ﷺ دليلًا على صدقه .

لكن بعض الناس يخطئون في استخدام العقل، فيجعلونه حاكمًا على النصوص الشرعية، فيرفضون بعض الأحكام إذا لم تعجبهم، أو يؤولون النصوص بلا دليل! وهذا إساءة لاستخدام العقل، لأن العقل وظيفته أن يقود الإنسان إلى الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأن أحكامه كلها حكيمة، وليس أن يحكم على النصوص بعد ثبوتها .

▪رابعًا: "نحن نقص عليك أحسن القصص" – لماذا قصص القرآن هي الأحسن؟

قصص القرآن تتميز عن غيرها من القصص بعدة أمور :

١- الاختصار وعدم الاستطراد

القرآن لا يسهب في تفاصيل لا تفيد، بل يركز على المغزى والعبرة. فلو نظرنا إلى قصة فرعون، سنجد أن القرآن اختصر ذكر شروره في قوله :

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

هذه الآية تختصر جرائم فرعون التي لو سُردت بتفاصيلها، لاحتاجت إلى عشرات الصفحات! أما في القصص البشرية، فغالبًا ما تُملأ الأحداث بتفاصيل زائدة تثير المشاعر ولا تخدم الحكمة من القصة .

٢- الصدق المطلق

-قصص القرآن كلها حق لا ريب فيه، بخلاف قصص البشر التي قد تحتوي على الأكاذيب أو التحريف لأغراض درامية .

-كثير من المسلسلات والأفلام تُحرّف الحقائق لأجل "الحبكة الدرامية"، بل حتى القصص المستمدة من وقائع حقيقية غالبًا ما تُضاف إليها أحداث لم تقع أبدًا .

-أما قصص القرآن، فهي صادقة من أول حرف إلى آخر حرف، بلا زيادة أو نقصان .

٣- التركيز على القيم والإصلاح

-قصص القرآن تهدف إلى إصلاح القلب والسلوك، مثل :

" - إنه من يتقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" – التركيز على التقوى والصبر .

" - وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" – ربط الدنيا بالآخرة .

" - إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ "

-ترسيخ الإيمان بأسماء الله وصفاته .

-أما القصص الحديثة، فتركز غالبًا على الشهوات، والخيانة، والجرائم، والمشاكل الزوجية، والمخدرات، بدون هدف حقيقي سوى الإثارة .

٤- تأثير القصص على النفس

-قصص القرآن تقدم القدوة الصالحة دون تطبيع مع الشر .

-أما المسلسلات والأفلام، فحتى عندما يُظهرون انتصار الخير، يكون الشر قد احتل معظم الأحداث! فتجد الناس يقلدون الشخصيات الشريرة أكثر من الصالحة، لأنهم تعايشوا معهم طوال الأحداث .

-مثال: مسلسل "الأسطورة" حقق انتشارًا واسعًا، لكن الشباب لم يتأثروا بالنهاية التي انتصر فيها الخير، بل قلدوا أسلوب البطل في الكلام واللباس والتصرفات !

خامسًا: القرآن يوجه القلوب والعقول إلى الغاية الحقيقية

-قصص القرآن ليست مجرد سرد للأحداث، بل كل قصة تنتهي بدرس إيماني أو حكمة عظيمة .

-الله تعالى يقول: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"، أي أن الغاية ليست المتعة المجردة، بل العبرة والتوجيه .

-بخلاف القصص البشرية التي قد تُنهي القصة بدون هدف واضح، أو تجعل الشر يبدو جذابًا أكثر من الخير !

أى أن

-القرآن كتاب معجز، واضح في ألفاظه، عالٍ في مقامه .

-يعظم الله نفسه بأسلوب الجمع عند الحديث عن القدرة والعظمة، وبالمفرد عند الحديث عن التوحيد .

-دلت آية "أنزلناه" على علو الله سبحانه وتعالى .

-دعوة القرآن للعقل لا تعني تحكيمه على النصوص، بل التأمل في الأدلة التي تثبت الإيمان .

-قصص القرآن هي أحسن القصص لأنها مختصرة، صادقة، هادفة، وتؤثر في القلوب دون تضخيم للشر .

فالقرآن ليس مجرد كلام، بل هو منهج حياة، ودستور رباني يهدي العقول والقلوب إلى الصراط المستقيم.

القرآن وأحسن القصص: الفرق بين منهج الله ومنهج البشر

🔶 في كل قصة يرويها القرآن، نلمس إعجازًا في السرد، حيث يجمع بين الإيجاز البليغ والمغزى العميق. فحين يسرد لنا قصة الظلم والطغيان، يوجز الحديث عن الشر دون أن يغوص في تفاصيله التي قد تفسد الفطرة وتثير الشهوات، كما في قوله تعالى عن فرعون :

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ "

🔁 بجملة واحدة اختصر الله أهوال الظلم، دون الغوص في مشاهد العنف والدمار، إذ ليست الغاية إثارة المشاعر السلبية، وإنما العبرة والاتعاظ .

وفي المقابل، حين يأتي الحديث عن الخير، فإن القرآن يستفيض في تفاصيله، فيرسم صورًا مشرقة للنصر والتمكين، كما في قوله تعالى :

"وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ "

فالقرآن يعطينا الأمل، ويركز على النتيجة النهائية للصراع، دون أن يغرقنا في مستنقع التفاصيل المظلمة، لأن الهدف هو تزكية النفس وتطهير القلب، لا إغراق الإنسان في دوامة الشرور .

🔁 ونرى هذا المنهج جليًا في قصة يوسف عليه السلام، حين اختصر مشهد الفتنة في قوله تعالى :

"وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ "

🔁 لو كان الأمر فيلمًا أو مسلسلًا، لقُدِّم المشهد في حلقات مطولة، بأدق التفاصيل، لإثارة المشاعر وتحقيق المشاهدات، لكن القرآن يعلمنا أن العبرة ليست في تفاصيل المعصية، بل في كيفية النجاة منها، ولهذا سرعان ما ينتقل إلى الحديث عن العفة والطهر .

وهنا يتجلى الفرق بين القصص القرآني والقصص الدنيوي؛ فقصص البشر تُبنى غالبًا على الإثارة، وغايتها تحقيق المشاهدات، فتغوص في مستنقع الشهوات والجرائم، حتى لو انتهت النهاية بانتصار الخير، فإنها طوال المسار تشبع النفس بكل تفاصيل الفساد، فتُطبع القلوب عليها، دون أن يشعر الإنسان .

أما القصص القرآني، فغايتها إصلاح القلوب، وتعزيز الصلة بالله، والتذكير بالآخرة، ولهذا قال الله تعالى :

"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"

🔶 فالقصص القرآني ليس مجرد حكايات، بل دروس في العقيدة، والأخلاق، وحكمة التشريع، وهو نور يضيء الطريق للباحثين عن الهداية.

قصة يوسف: أحسن القصص في أحسن القصص

🔶 قصة يوسف عليه السلام ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي نموذج فريد يجمع بين أسمى المعاني الإنسانية وأعمق الدروس الإيمانية، ولهذا استحقت أن تُوصف بأنها "أحسن القصص ."

لقد تضمنت القصة جميع المتناقضات التي تمر بها النفس البشرية والحياة الإنسانية: الحسد والحب، الفراق واللقاء، الذل والعز، الرق والملك، الخصب والجدب، الفقر والغنى، الحزن والفرح، الصبر والندم، العفو والبغض. إنها رحلة متكاملة من المحنة إلى المنحة، ومن الضيق إلى السعة، ومن الشتات إلى الاجتماع، حتى تتحقق الحكمة الإلهية في أبهى صورها .

"وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ"

🔶 حين وصف الله نبيه ﷺ بأنه كان من الغافلين، لم يكن ذلك نقصًا أو عيبًا، بل بيانًا لحاله قبل الوحي. فقد كان على التوحيد والاستقامة، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الدين والعقيدة، كما قال تعالى: "مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ" (الشورى: ٥٢). فلم يكن يعرف تفاصيل الصلاة والصيام وأحكام الطهارة، لكنه كان بعيدًا عن أفعال الجاهلية، لم يسجد لصنم، ولم يرتكب الفواحش. فالغفلة هنا تعني عدم العلم، لا الإعراض عن الحق .

بداية القصة: مباشرة إلى جوهر الحدث

🔶 تبدأ السورة بالدخول مباشرة في قلب القصة دون مقدمات طويلة، حيث يأتي المشهد الأول مشحونًا بالرؤيا العظيمة التي ستحدد مسار الأحداث :

"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ "

🔁 رؤيا تحمل البشارة والمحن في آنٍ واحد، تلخص مسيرة يوسف من الابتلاء إلى التمكين، وتكشف عن عظمة التدبير الإلهي الذي يحوّل المحن إلى منح، ويجعل الصبر مفتاح الفرج .

هكذا تتجلى روعة القصة، ليس فقط في أحداثها، بل في عمق معانيها، وتوازنها العجيب بين الاختبار والتكريم، وبين البلاء والجزاء، مما يجعلها بحق أحسن القصص التي تتغلغل في القلب، وتهدي العقل، وتربي الروح على الثقة بالله وحسن الظن به.

المشهد الأول: حجر الأساس في تربية يوسف عليه السلام

تبدأ قصة يوسف عليه السلام بمشهدٍ واحد، لكنه يحمل في طياته أسس التربية السليمة، والعلاقة المثالية بين الأب والابن .

"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ "...

كان أول من لجأ إليه يوسف ليقص عليه رؤياه هو والده، يعقوب عليه السلام، وهذه دلالة عظيمة على قوة الرابطة بينهما. لم يختر يوسف صديقًا أو أخًا ليشاركه هذا المنام، بل توجه فورًا إلى أبيه، لأنه وجد فيه الملاذ الآمن، والأذن المصغية، والقلب الحاني .

وهنا تتجلى عظمة يعقوب كأب، فقد كان قريبًا من أبنائه، ليس فقط كوليّ أمر، بل كصديقٍ ومُرشدٍ حنون. لم يكن يعقوب ذلك الأب المشغول الذي لا يجد وقتًا لأولاده، أو ذاك الذي يسخر من حديثهم، أو يتعامل معهم بجفاء، بل كان نموذجًا للأب الذي يحتضن أبناءه بعاطفته واهتمامه .

🔶 جلسة خاصة... سر التربية الناجحة

الملفت للنظر أن هذا الحديث كان بين يوسف وأبيه فقط، فلم يكن هناك أحد يسمعه، مما يعني أن يعقوب عليه السلام كان يمنح كل ابن من أبنائه وقته الخاص. رغم كثرة أولاده، لم يكتفِ بلقائهم في المجالس العامة، بل كان لديه سعة القلب والوقت ليجلس مع كل واحدٍ منهم على حدة، يسمع منه، يناقشه، ويوجهه بحكمة .

افتقادنا للحوار الأسري

هذا المشهد يسلط الضوء على أمر نفتقده اليوم في بيوتنا: "الجلسة الخاصة بين الأب وأبنائه، وبين الأم وبناتها ."

كثير من الآباء يظنون أنهم يقومون بدورهم على أكمل وجه لمجرد توفير الحياة الكريمة لأبنائهم، لكن الأبوة الحقيقية ليست مجرد تأمين المأكل والمشرب، بل في القدرة على بناء جسور التواصل معهم، والاستماع إلى تفاصيل يومهم، ومشاركتهم مشاعرهم وأفكارهم .

🔶 الأم المثالية ليست فقط من تعتني ببيتها، بل من تأخذ ابنتها إلى جلسة خاصة، تسألها عن يومها، عن صداقاتها، عن مخاوفها وأحلامها، ثم ترشدها بحبٍ ولطف. والأب المثالي هو من يجلس مع ابنه، يصغي إليه، يستفسر عن تجاربه، يوجهه دون قسوة، ويمدحه حين يُحسن التصرف، حتى يصبح الابن واثقًا أن والده هو أول من يلجأ إليه عند الحاجة .

هذا هو الدرس العظيم من المشهد الأول في قصة يوسف: التربية تبدأ من القرب، والحوار، والاحتواء، قبل الأوامر والتوجيهات.

المجلس الخاص... سر التربية الناجحة

🔶 في التربية، هناك فرق كبير بين الجلسة العامة والمجلس الخاص. فالتربية الحقيقية لا تُبنى في التجمعات العائلية فقط، بل في تلك اللحظات التي يجلس فيها الأب

مع ابنه، أو الأم مع ابنتها، على انفراد، في حديثٍ وديّ بعيد عن الأوامر والتوجيهات الصارمة .

هذا ما جسّده الأنبياء في تربيتهم :

-إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل في لحظةٍ من أصعب اللحظات، يخبره برؤياه العظيمة :

" يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى؟ "

فيرد الابن بكل رضا: "يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ".

-لقمان وابنه في جلسة مملوءة بالحكمة والتوجيه الأبويّ اللطيف :

"يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ"...

"يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ"...

ما يجمع بين هذه المشاهد ليس فقط الحوار، بل الأسلوب الراقي في المخاطبة. فالابن ينادي والده بـ "يا أبتِ", فيرد الأب عليه بـ "يا بني". نداء مفعم بالحب والحنان، يعكس العلاقة القوية والاحترام المتبادل بينهما .

التربية بالاحترام... قبل الأوامر

كيف نطلب من أبنائنا أن يحترمونا، ونحن لا نخاطبهم إلا بعبارات التحقير؟

كيف نغرس الأدب فيهم، ونحن أول من يهينهم عند أقل خطأ؟

الابن مرآة أبيه، والابنة انعكاس لوالدتها. فالأم التي تمارس الغيبة، وتعامل زوجها بجفاء، كيف تتوقع أن تكون ابنتها مختلفة؟ والأب الذي يصرخ في وجه ابنه، كيف ينتظر منه الطاعة والمحبة؟

🔶 الطفل صفحة بيضاء، يكتسب أخلاقه مما يراه ويسمعه. إن نشأ في بيتٍ مليء بالاحترام، سيتعجب عندما يرى غير ذلك خارجه. وإن نشأ في بيئة تسودها الإهانات والشتائم، سيظن أن هذا هو الطبيعي .

الاحتواء قبل التوجيه

حين قصّ يوسف عليه السلام رؤياه على أبيه، لم يقابله يعقوب عليه السلام بالسخرية أو الاستخفاف، بل استمع إليه بحب، وقدّر مشاعره. تخيل لو كان أبًا آخر مكانه، ربما كان سيقول: "كواكب وشموس إيه؟! خلاص بقى مش ناقصك "!

🔁 هكذا، دون أن ندري، نكسر أبناءنا. عندما يأتي الابن متحمسًا ليشارك حلمًا أو طموحًا، فيُقابل بالسخرية، لن يكررها مرة أخرى. سيغلق قلبه، ولن يعود يخبر والديه بشيء. وحين يكبر، لن يعرفوا أين يذهب، أو ماذا يفعل، لأنه تعلّم منذ الصغر أنهم ليسوا ملاذًا آمنًا له .

🔶 كيف نصلح علاقتنا بأبنائنا؟

-استمع إليهم بجدية، حتى لو كان حديثهم بسيطًا في نظرك. ربما تبدو مشكلتهم صغيرة بالنسبة لك، لكنها عظيمة في أعينهم. لا تقلل من مشاعرهم .

-امنحهم الوقت. لا تجعل انشغالك حجّة، فجلسة خاصة مع ابنك قد تكون أهم استثمار تقوم به .

-أنزل إلى مستواهم. خاطبهم بقدر فهمهم، وشاركهم مشاعرهم، واحتويهم بلغة الحب .

أى إذا أردت أن تسمع من ابنك "يا أبتِ", فاجعل أول كلماتك له "يا بني". وإذا أردته أن يثق بك، فكن له ملاذًا. وإذا أردته أن يحترمك، فابدأ باحترامه أولًا .

التربية ليست بالأوامر... بل بالحب!

🔶 فن التربية والاحتواء في قصة يوسف عليه السلام

يتحدث يوسف عليه السلام إلى والده يعقوب عليه السلام بكل طمأنينة عن رؤياه العجيبة: "إني رأيت أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر، رأيتهم لي ساجدين ".

لم يكن هذا مجرد حلم عابر، بل كانت رؤية تحمل دلالات عظيمة، أدركها يعقوب عليه السلام فورًا. فقد فهم أن الكواكب ترمز إلى إخوة يوسف، والشمس والقمر إلى والديه، والسجود هنا ليس عبادة، بل تكريمًا، كما كان الحال في الشرائع السابقة .

التفسير الرمزي للشمس والقمر

🔶 اختلف العلماء في تحديد من تمثل الشمس ومن يمثل القمر، لكن هناك دلالات واضحة ترجح أن الأب هو الشمس، والأم هي القمر. فالشمس تجمع بين النور والحرارة، تمامًا كما يجمع الأب بين التوجيه والحزم. بينما القمر يعكس نور الشمس دون حرارة، كما تعكس الأم حب الأب وحنانه على الأبناء، وتضفي لمسة من الحنان والرحمة في الأسرة .

الحكمة في التربية: لا تقصص رؤياك

🔶 أول درس في هذه القصة هو الحذر من الحسد والمكر. فقد أوصى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف قائلًا: "يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ".

هذا يدل على معرفة يعقوب العميقة بشخصيات أبنائه، فلم يكن غافلًا عن غيرتهم، لكنه في الوقت ذاته لم يحرمهم من رعايته واهتمامه .

أنواع الرؤى وكيفية التعامل معها

<u>قسم النبي ﷺ الرؤى إلى ثلاثة أنواع :</u>

١- رؤيا حق من الله: تكون واضحة وتحمل دلالات قوية، فإذا كانت خيرًا، نخبر بها من نحب، وإن كانت شرًا، لا نحدّث بها أحدًا، ونستعيذ بالله منها .

٢- رؤيا من الشيطان: تكون مضطربة ومزعجة، ولا تفسير لها سوى أنها محاولات لإدخال الخوف في النفس .

٣- حديث النفس: حيث يحلم الإنسان بما يشغل تفكيره في حياته اليومية .

🔶 الدرس الأهم: الحذر من نشر النعم

يعلمنا يعقوب عليه السلام درسًا عظيمًا في عدم استعراض النعم أمام من قد يحسدنا، فقد تكون النفوس غير سليمة .

🔁 وفي زمننا هذا، أصبح من الشائع مشاركة كل لحظات الفرح والنجاح على وسائل التواصل الاجتماعي، دون التفكير في تأثيرها. لكن الحكمة تقول: أخبر بنعمك من تثق بحبه لك، ولا تعلنها أمام الجميع .

الاحتواء أساس التربية

🔶 من خلال هذا المشهد، نتعلم أن التربية لا تعتمد على الأوامر الجافة، بل على الاحتواء والاستماع. فالابن الذي يجد الأمان في الحديث مع والديه، سيظل قريبًا منهم، بينما من يُقابل بالسخرية أو التوبيخ، سيفقد الثقة ولن يشاركهم همومه أو طموحاته .

إن الأبناء مرآة والديهم، فاحرص على أن تعكس لهم صورة الاحترام والاحتواء، ليبادلوك الحب والطاعة عن اقتناع، وليس عن خوف.

في هذا المشهد التربوي البديع، نجد يعقوب -عليه السلام- يؤسس في قلب ابنه يوسف -عليه السلام- أعمدة الثبات والوعي، فيعلمه أن العداوة الحقيقية ليست بينه وبين إخوته، بل بينه وبين الشيطان، فهو العدو الأزلي الذي يسعى لإفساد النفوس وإيقاع العداوة بين الإخوة. بهذه الرؤية العميقة، حفظ يوسف قلبه من الحقد، مما سهّل عليه لاحقًا مسامحة إخوته حين قال: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم".

ثم ينتقل يعقوب -عليه السلام- إلى ترسيخ حب الله في قلب يوسف، وذلك من خلال طريقين :

١- ذكر نعم الله المتعدية: حيث أخبره أن الله هو من سيجتبيه ويصطفيه، وهو من سيعلمه تأويل الأحاديث، موضحًا له أن كل خير يناله هو من الله، وليس من البشر .

٢- ذكر صفات الله الذاتية: مثل كونه عليمًا وحكيمًا، فكل صفات الجلال والكمال تستوجب المحبة والتعظيم .

🔁 وهكذا، غرس يعقوب -عليه السلام- في يوسف حب الله والخضوع له، مما جعله ثابتًا على الحق مهما واجه من فتن. فحين تعرض لمحنة امرأة العزيز، قال بملء اليقين: "معاذ الله! إنه ربي أحسن مثواي ".

وهنا تكمن روعة التربية، أن يربط الأب أبناءه بالله، لا بذاته، فينشأ الابن طائعًا لربه في كل حال، سواء في حضور والده أو غيابه، ثابتًا على الحق في العلن والخلوات، مدركًا أن النعمة من الله، وأن العدو الحقيقي هو الشيطان، وأن طريق النجاة هو في محبة الرحمن.

🔶 تربية الأنبياء: كيف صُنع يوسف -عليه السلام-؟

إن التربية الحقيقية لا تُبنى على الخوف من البشر، بل على مخافة الله في السر والعلن، وهذا هو الدرس الأهم الذي غرسه يعقوب -عليه السلام- في ابنه يوسف. فكثير من الآباء يظنون أن أبناءهم ملائكة، لأنهم يرونهم أمامهم صالحين، لكن الحقيقة تظهر عندما يغيب الرقيب البشري، ويُترك الابن ليواجه اختياراته وحده. والسبب في ذلك أننا نربي أبناءنا على احترامنا وخوفهم منا، وليس على مخافة الله، فتكون النتيجة أنهم يحسنون التصرف أمامنا، لكنهم قد يقعون في أخطاء جسيمة حين لا نكون حاضرين .

🔶 لقد بدأ يعقوب -عليه السلام- تربية يوسف بزرع الإيمان العميق بالله، فأكد له أن الله هو ربه الخاص، إذ قال: "يجتبيك ربك"، ولم يقل "ربنا"، مما يخلق علاقة شخصية بين يوسف وبين الله. ثم أوضح له أن الله ليس فقط سيختاره، بل سيعلمه "من تأويل الأحاديث"، ويكمل نعمته عليه. وهنا لفتة عظيمة؛ فالنعم درجات، وأعلى هذه الدرجات هي الاصطفاء النبوي .

🔶 ثم بيّن يعقوب -عليه السلام- أن هذه النعمة ليست مقصورة على يوسف وحده، بل تمتد إلى آل يعقوب جميعًا، تمامًا كما أتمها الله على إبراهيم وإسحاق، مشيرًا بذلك إلى أن نعمة الصلاح تمتد عبر الأجيال، فصلاح الجد ينفع الأحفاد، وغنى الجد يعود خيره على الأبناء .

🔶 فلسفة الابتلاء والتمكين

يعقوب -عليه السلام- كان واعيًا بسنن الله في الكون، فعلم أن الاجتباء لا يأتي إلا بعد الابتلاء. لذا، عندما قال يوسف وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ كان يدرك تمامًا أن هذا الاصطفاء لن يكون سهلاً، بل سيمر عبر محن شديدة. فقد جاء في الأثر أن الإمام الشافعي سُئل: "أيهما أحب إليك، أن يُمكَّن الرجل أم يُبتلى؟"، فأجاب: "لا يُمكَّن حتى يُبتلى ."!

وهنا تأتي الحكمة في اختيار الأسماء الإلهية في نهاية الآية: "إن ربك عليم حكيم". فعندما يواجه يوسف المحن ويسأل: "لماذا يحدث لي كل هذا؟"، ستكون الإجابة " ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ". وعندما يصل إلى الملك ويتساءل: "لماذا اصطفاني الله من بين إخوتي؟"، ستكون الإجابة ذاتها .

هذه القاعدة الإيمانية نجدها في قصة نوح -عليه السلام- أيضًا، حين قال: وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ." فجاء الرد الإلهي: "قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ" فكم من أمور في حياتنا نجهل حكمتها، لكن يكفينا أن نوقن أن الله "عليم حكيم ".

ثبات يوسف في المحن

لقد كان تأثير هذه التربية عظيمًا، إذ لم ينجرف يوسف -عليه السلام- مع الفتن والمحن، بل ظل ثابتًا في كل موقف واجهه، لأنه نشأ على عداوة الشيطان ومحبة الرحمن .

-عندما وُضع في السجن ظلمًا، لم يشكُ من قضاء الله، بل كان يبث الإيمان في قلوب المساجين قائلًا: "ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ".

-عندما راودته امرأة العزيز، قاوم شهوة الرجال بقوة حب الله، " قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ "

-عندما خُيِّر بين السجن والفاحشة، اختار السجن طوعًا " وقَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ"

-ثم تأتي اللحظة الفاصلة بعد أربعين سنة، عندما تحقق تأويل رؤياه، فيقول: هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ لاحظ هنا أنه قال "ربي"، كما علمه يعقوب، ولم يقل "ربك". ثم لم ينسب دخول السجن إلى الله، بل قال: "وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن"، فلم يقل "إذ أدخلني السجن"، لأن المؤمن الحق لا يرى في الله إلا الجمال والرحمة .

وأخيرًا، عندما التقى بإخوته، لم يذكر انتقامًا، بل قال: "من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم." وهنا نرى بصمة يعقوب واضحة، إذ ختم كلامه بنفس الأسماء الإلهية التي زرعها والده في قلبه منذ الطفولة: "العليم الحكيم ".

خلاصة التربية النبوية

لقد كانت تربية يعقوب ليوسف تربية إيمانية متكاملة، قائمة على أصلين ثابتين :

١- عداوة الشيطان، حتى لا يُخطئ الإنسان في تحديد عدوه الحقيقي .

٢- محبة الرحمن، حتى يجد العبد في قلبه حصنًا يحميه من كل فتنة .

🔸 هذه التربية لم تكن مجرد كلمات عابرة، بل كانت أساسًا متينًا ظل يوسف -عليه السلام- يبني عليه طوال حياته، فثبت عند المحن، وصبر عند البلاء، ولم يتغير حين جاءه التمكين .

وهكذا، صنع يعقوب نبيًّا ثابتا أمام الابتلاءات، راسخًا أمام الفتن، واثقًا في قضاء الله وحكمته .

🔁 فلنتعلم من هذه القصة كيف نربي أبناءنا، لا على مراقبة البشر، ولكن على محبة الله ومراقبته في السر والعلن.

المحاضرة الثانية
مخطط شيطاني

○ المقدمة ○

🔸 تتجلى في قصة يوسف عليه السلام حكمة الله في اختيار المشاهد التي يرويها لنا

🔁 فعلى الرغم من كثرة الأحداث التي سبقت إلقاء يوسف في الجب، إلا أن الله اختار مشهدًا واحدًا فقط ليسلط الضوء عليه، لأنه المفتاح لفهم القصة بأكملها. هذا المشهد يكشف سر ثبات يوسف في بيت العزيز، وصبره في السجن، وتواضعه في الملك. كل

ذلك كان نتيجة تربية يعقوب عليه السلام، الذي استثمر السنوات القليلة التي قضاها يوسف معه في غرس القيم العظيمة في قلبه.

🔶 من هذه القصة تبرز فائدتان مهمتان:

■ للمربي: لا تؤجل التربية، فالسنوات الأولى تصنع الفارق. يعقوب عليه السلام لم ينتظر حتى يكبر يوسف ليغرس فيه المعاني الكبرى، بل بدأ منذ صغره، مما جعله قادرًا على مواجهة التحديات بثبات وإيمان.

■ للمتربي: لا تضيع الفرص التربوية المتاحة لك، فقد لا تتكرر. كثيرون يتكاسلون عن التعلم والتزكية بحجة أن الفرصة موجودة دائمًا، لكن قد تأتي لحظة يجدون فيها كل الأبواب قد أُغلقت.

التربية الصالحة تصنع أبطالًا، والمحاضن التربوية، سواء كانت أسرة، مسجدًا، أو شيخًا، هي نعمة يجب اغتنامها قبل أن تزول.

🔶 المحضن التربوي وأهميته في بناء الإنسان

🔁 المحضن التربوي هو البيئة التي يحتضن فيها الإنسان تربويًا، سواء كان ذلك من خلال الأسرة، أو شيخ مرشد، أو دار علم، أو حتى صديق ناصح. هذه البيئة تشكل الشخصية، وتغرس القيم، وتمد الإنسان بالزاد الذي يحتاجه في رحلته الحياتية. ومن يحظى بمحضن تربوي، خاصة في بداية التزامه، عليه أن يغتنم هذه الفرصة قبل أن تزول.

🔶 في واقعنا المعاصر، تغيرت الظروف، وأُغلقت مساجد، وتعطلت حلقات العلم، ولم يعد المشايخ متاحين كما كانوا. كثيرون يتحسرون اليوم على فرص ضاعت، ويسألون: "أين الدروس التي كنا نؤجل حضورها؟"، لكن السؤال الأهم: "أين كنا عندما كانت الفرص متاحة؟".

🔁 الآن، أتيحت لنا فرصة التعلم عبر الإنترنت، من خلال الدورات والدروس المباشرة، لكن البعض لا يزال يتكاسل ويؤجل. والدرس المستفاد من قصة يوسف عليه السلام أنه لو تهاون في الاستفادة من والده يعقوب، وأجّل التعلم بحجة أنه صغير، لما كان قادرًا على الثبات أمام ابتلاءات الحياة.

🔶 الجامعة: الفرصة الذهبية للتعلم

مرحلة الجامعة هي فترة ذهبية لمن أراد أن يطلب العلم، يحفظ القرآن، أو يشارك في الدعوة. فهي توفر وقتًا منظمًا وفراغًا نسبيًا قد لا يتكرر بعد التخرج، حين تتزاحم المسؤوليات من عمل وزواج والتزامات أخرى. من استثمر وقته في هذه المرحلة خرج منها راسخًا، مهما تغيرت به الظروف. ومن أهملها دخل في طاحونة الحياة بلا أساس متين، ووجد نفسه مع الأيام بلا زاد إيماني أو علمي.

يوسف عليه السلام يبعث برسالة لكل شاب: "اغتنم وقتك، فلا تدري متى ستحتاج ما ادخرته". ويعقوب عليه السلام يوجه نداءً لكل مربٍّ: "لا تؤجل غرس القيم فيمن حولك، فقد لا يكون الغد في متناولك".

🔶 إن العمل الدعوي، كأي مشروع عظيم، يحتاج إلى سرعة في الإنجاز واستثمار كل لحظة متاحة. فالعمر قصير، والفرص لا تبقى إلى الأبد، ومن يملك اليوم القدرة على التعلم أو التعليم، عليه أن يغتنمها قبل أن يُحال بينه وبينها.

🔶 العبر والدلالات في قصة يوسف عليه السلام

تبدأ سورة يوسف ببيان أن في قصته وقصة إخوته آيات للسائلين، أي عبرًا عظيمة لمن يبحث عن الهداية ويطلب المعرفة بصدق. كما تختتم السورة بالتأكيد على أن في هذه القصة عبرة لأولي الألباب، مما يعكس عمق الحكم والدلالات التي تتضمنها.

🔶 أهم الدلالات والعبر في السورة:

١- إثبات وحدانية الله: تتجلى في أحداث القصة، وفي دعوة يوسف عليه السلام في السجن، حيث أكد أن الحكم لله وحده، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

٢- كمال صفات الله: فالسورة تكشف عن حكمة الله البالغة، وفضله الواسع، وعلمه المحيط، وقوته التي تفوق كيد البشر، وغلبته التي تتحقق رغم تدابير الظالمين.

٣- صدق الرسل وصفاتهم الكريمة: إذ نجد في يوسف ويعقوب عليهما السلام نماذج للصبر، والعفو، والتوكل على الله، وقوة الرجاء فيه، مع الشكر والثبات على الحق.

٤- حسن عاقبة التقوى والصبر: كما في قول يوسف عليه السلام: "إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"، مما يبرز أن أهل الصبر والتقوى لهم العاقبة الحسنة.

٥- قبح عاقبة الحسد والكبر والحقد: حيث أودى حسد إخوة يوسف بهم إلى الخطيئة والندم، وبيّنت القصة أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

٦- الإيمان بالدار الآخرة: فقد أظهرت السورة مبدأ الثواب والعقاب، والعاقبة الحتمية لكل إنسان بناءً على أعماله.

٧- شرف العلم والدعوة إلى الله: حيث رُفِعَ شأن يوسف عليه السلام بالعلم، وكانت دعوته إلى التوحيد بارزة حتى في أشد لحظات المحنة.

٨- أساليب الحكمة في الدعوة: إذ قدم يوسف عليه السلام نموذجًا للداعية الذي يخاطب الناس بالحسنى ويستخدم الحكمة والموعظة الطيبة في نشر الحق.

٩- إرادة الله الغالبة: في قوله تعالى: "اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، حيث يتجلى أن الله ينفذ إرادته مهما حاول البشر تعطيلها.

١٠- إثبات نبوة النبي محمد ﷺ: إذ إن رواية النبي ﷺ لهذه القصة بتفاصيلها دون أن يكون حاضرًا لأحداثها، دليل قاطع على أنه وحي من الله.

١١- إثبات مصدرية القرآن الإلهية: فالقصة بأسلوبها العجيب ومعانيها العميقة لا يمكن أن تكون إلا وحيًا من عند الله سبحانه وتعالى.

السائلون هم المنتفعون بالآيات

🔶 تؤكد الآية أن هذه الدلالات لا يستفيد منها إلا من يسأل ويبحث بصدق، لأن السؤال هو مفتاح المعرفة، كما كان حال الصحابة الذين كانوا يسألون النبي ﷺ عن أمور دينهم بجدّ واهتمام. فمن أراد الهداية، فعليه أن يسأل ويتعلم، وإلا بقي في حيرة وضلال

🔁 بهذا، تقدم لنا سورة يوسف نموذجًا متكاملًا للعبرة والإرشاد، وتؤكد أن الهداية لمن يسأل، والنجاة لمن يعمل بما علم.

🔸 الحسد وأثره في قصة يوسف عليه السلام

في قصة يوسف عليه السلام نجد مثالًا واضحًا على خطورة الحسد وآثاره المدمرة. فقد بدأ الحسد بين الإخوة عندما رأوا أن يعقوب عليه السلام يحب يوسف وأخاه بنيامين أكثر منهم، ليس لسبب غير عادل، بل لأنهما كانا أكثر برًّا وخلقًا. ومع ذلك، لم يحاولوا تحسين أخلاقهم، بل لجأوا إلى الغيرة والتآمر.

🔸 خطورة الحسد عبر التاريخ

الحسد ليس مجرد شعور داخلي، بل هو داء خطير أهلك أقوامًا على مر العصور:

- إبليس حسد آدم على المكانة التي منحه الله إياها، فكان سبب طرده من الرحمة.
- ابن آدم الأول حسد أخاه حتى وصل إلى قتله.
- اليهود حسدوا العرب على بعثة النبي ﷺ فرفضوا الإيمان به.

🔸 فهم خاطئ للحسد

المشكلة الكبرى أن الحاسد يريد الميزة التي عند غيره، لكنه لا يرى الجهد الذي بُذل للحصول عليها، ولا يلاحظ عيوبه التي منعته من تحقيقها. فلو كان إخوة يوسف عقلاء، لكانوا سألوا أنفسهم:

- لماذا يحب أبونا يوسف أكثر منا؟
- الإجابة: لأن أخلاقنا سيئة، بينما هو أكثر أدبًا وبرًّا.
- الحل؟ أن نكون مثله، وسننال نفس الحب.

لكن بدلًا من ذلك، اختاروا الخيار الأسوأ: التخلص من يوسف! وهذه هي مأساة الحسد، فهو يعمي صاحبه عن الحقائق ويدفعه إلى الظلم.

الحاسد يعترض على قسمة الله

🔸 الحسد في جوهره ليس اعتراضًا على المحسود، بل هو اعتراض على قسمة الله للأرزاق. فالله هو الذي يمنح النعم بحكمته، كما قال تعالى:

» "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" (الزخرف: ٣٢).

ولذلك، فإن الحاسد لا يهدأ حتى يدرك أن الأمر كله بيد الله، كما حدث مع إخوة يوسف عندما قالوا في النهاية:

» "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" (يوسف: ٩١).

أخيرًا فهموا أن الله هو الذي اصطفى يوسف، لكن بعد أربعين سنة من العذاب والضياع!

الحسد لا ينتهي حتى بعد زوال المحسود

حتى بعدما غاب يوسف عن إخوته لسنوات، ظل الحسد ينهش قلوبهم. فحينما ذكره أبوهم قالوا له:

> "تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ" (يوسف: ٨٥).

حتى الذكرى لم يتحملوها! وهذا دليل على أن الحسد نار تظل مشتعلة حتى بعد زوال المحسود نفسه.

الفرق بين الحب والعدل

إخوة يوسف قالوا: "لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا" (يوسف: ٨).

لكن هل أخطأ يعقوب في ذلك؟

لا، لأن المحبة أمر فطري لا يمكن التحكم فيه. فالعدل مطلوب في العطاء، لكنه غير ممكن في المشاعر، إذ لا يستوي من يقول: "يَا أَبَتِ" بمن يقول: "إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"!

الحل: اسأل الله بدلًا من أن تحسد

بدلًا من الحسد، اطلب من الله أن يرزقك مثل ما رزق غيرك. قال تعالى: > "وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ" (النساء: ٣٢).

إذا رأيت أحدًا عنده نعمة، فبدلًا من الغيرة، قل:

- "يا رب، ارزقني مثلها وبارك له فيها".
- "يا رب، اجعلني مجتهدًا مثله".

أى أن

- الحسد يعمي الإنسان عن رؤية الحق، ويدفعه إلى الظلم.
- الحاسد في الحقيقة يعترض على قسمة الله، وليس على المحسود نفسه.
- الحل ليس في تمني زوال النعمة، بل في التقرب إلى الله وطلب الخير منه.
- الحب أمر طبيعي لا يلزم العدل فيه، لكن يمكن كسبه بالأخلاق والبر.

🔁 فلا تكن من الحاسدين، وكن من السائلين لله من فضله!

العـدل في المحبة والتمييز بين الأبناء: دروسٌ من قصة يوسف عليه السلام

🔶 إنَّ قصة نبيِّ الله يوسف -عليه السلام- تحمل دروسًا عظيمة في الحسد، والعدل بين الأبناء، وفهم طبيعة الحب القلبي الذي لا يخضع لميزان المساواة. لقد وقع إخوة يوسف في الحسد بسبب محبة أبيهم الزائدة له ولأخيه بنيامين، لكنهم لم يتفكروا في سبب هذه المحبة، ولم يسعوا إلى تحسين أنفسهم ليحظوا بمثلها، بل لجأوا إلى المكيدة والإيذاء.

🔶 الحسد: داءٌ يهلك صاحبه

الحسد من أشد الأمراض القلبية فتكًا، فقد أهلك إبليس حين حسد آدم -عليه السلام-، وأدى إلى أول جريمة قتل في التاريخ عندما حسد أحد أبناء آدم أخاه فقتله، كما كان سببًا في كفر اليهود برسالة النبي ﷺ. الحاسد لا ينظر إلى الأسباب التي جعلت المحسود في مكانةٍ متميزة، ولا إلى عيوبه التي منعته من تحقيق ما وصل إليه غيره، بل يريد الميزة ذاتها دون بذل أي جهد. ولو أن إخوة يوسف تفكروا في سبب محبة أبيهم له، لوجدوا أن ذلك عائدٌ إلى أخلاقه العالية وأدبه الجم، ولكان الحل ببساطة هو الاقتداء به، بدلاً من التفكير في إبعاده عن أبيهم.

العدل بين الأبناء: في العطايا لا في المحبة

🔸 إنَّ العدل بين الأبناء واجب، لكنه يكون في العطايا والهبات وليس في المشاعر القلبية، لأن الحب أمرٌ لا يُتحكم فيه. فقد أحبَّ النبي ﷺ عائشة -رضي الله عنها- أكثر من باقي زوجاته، ومع ذلك كان يعدل بينهن في الأمور المادية. لذلك، نهى النبي ﷺ عن تفضيل أحد الأبناء على الآخر في العطايا، لأن ذلك قد يؤدي إلى الغيرة والحسد بينهم، لكنه لم يفرض العدل في الحب القلبي، لأنه خارج عن إرادة الإنسان.

🔸 التعامل العادل مع الأبناء: أثر التفاصيل الصغيرة

🔁 من المهم أن يحرص الوالدان على توزيع الاهتمام والمودة بين أبنائهم بشكل متوازن، حتى في أبسط الأمور، مثل إلقاء التحية والابتسام والثناء على مظهرهم، لأن الأطفال يلاحظون هذه

🔸 التفاصيل الدقيقة، وقد تترك أثرًا عميقًا في نفوسهم. تجاهل هذه الجوانب قد يؤدي إلى خلافات مستقبلية بين الأشقاء، حتى بعد وفاة الوالدين.

🔁 إخوة يوسف والحسد المستمر

رغم مرور السنوات، ظل الحسد مستقرًا في نفوس إخوة يوسف. فعندما اتُهِمَ بنيامين بالسرقة، قالوا: "فَإِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ"، حتى بعد كل ما حدث، لم يستطيعوا التخلص من شعور الحقد تجاه يوسف. بل حتى عندما أظهر يعقوب -عليه السلام- حزنه عليه بعد سنوات طويلة، اعترضوا على ذلك قائلين: "تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ"، مما يدل على أن نار الحسد لا تنطفئ بسهولة، بل تظل تلتهم قلب الحاسد حتى وإن اختفى المحسود من حياته.

🔸 العبرة من القصة

🔁 الحب القلبي لا يُشترط فيه العدل، لكن العدل مطلوب في العطايا والهبات حتى لا تنشأ الضغائن بين الأبناء. ولو أدرك الحاسد أن الأرزاق بيد الله، لطلب منه من فضله بدلًا من الانشغال بحسد الآخرين. إن قصة يوسف -عليه السلام- تعلمنا أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من الداخل، وأن الرضا بقضاء الله هو السبيل الوحيد للراحة القلبية والسكينة.

🔁 وهم الكثرة.. بين الاعتقاد الخاطئ وتقدير القيم الحقيقية

إن الاعتقاد بأن الأفضلية تُقاس بالكثرة العددية أو الغنى المالي هو خطأ شائع في المجتمعات عبر العصور. فالرجل صاحب الجنتين قال: "أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا"، وكذلك كان تفكير المشركين حين قالوا للمؤمنين: "أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا". هذه النظرة المادية انتقلت إلى واقعنا اليوم، حيث أصبحت المكانة تُقاس بعدد المتابعين

والمشاهدات، لا بالقيم والأخلاق. فهناك من يفرض نفسه فقط لأنه الأكثر شهرة، دون اعتبار لحقيقة محتواه أو تأثيره على المجتمع.

"نحن عصبة".. منطق القوة العددية

هذا المنطق ذاته هو ما وقع فيه إخوة يوسف حين قالوا: "نَحْنُ عُصْبَةٌ"، أي أننا الأكثر عددًا، فنحن الأحق بالمحبة والمكانة. لكنهم لم يدركوا أن التفوق لا يُقاس بالعدد، بل بالصفات والأخلاق. بل بلغ بهم الأمر أن اتهموا نبيًّا من أنبياء الله بالضلال، قائلين: "إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ".

معنى "الضلال" في سياق الآية

كلمة "ضلال" في القرآن تأتي بمعنيين:

١- الضلال عن الحق عمدًا، وهو الكفر الذي يعني الإعراض عن الهدى عن علم وإرادة.

٢- الضلال عن إدراك الحقيقة، أي أن الشخص لم يتعمد الخطأ، لكنه لم يصل إلى الفهم الصحيح.

وقد اختلف العلماء في تفسير قول إخوة يوسف، فمنهم من رأى أنهم قصدوا المعنى الأول، مما يُعد كفرًا، لكنهم عُذروا بجهلهم. بينما ذهب آخرون إلى أنهم لم يقصدوا اتهام أبيهم بالبعد عن الحق، بل أرادوا القول إنه لم يُدرك حقيقة الأمور، وهو تفسير يخفف من وطأة إساءتهم، لكنه لا ينفي سوء أدبهم البالغ تجاه والدهم النبي.

هل صار إخوة يوسف أنبياء بعد توبتهم؟

هناك من قال إنهم أصبحوا أنبياء بعد ذلك، مستندين إلى ذكرهم في قوله تعالى: "وَإِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ". لكن الصحيح أن النبوة لم تكن فيهم، بل في نسلهم. والسبب أن الأنبياء لا يمكن أن يكونوا قبل نبوتهم في حال سيئ مليء بالخيانة، والغيرة، والتآمر على القتل، كما كان حال إخوة يوسف. فالأنبياء حتى قبل بعثتهم يكونون من أصلح الناس، كما قال الله عن إبراهيم: "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ".

العبرة من القصة

المكانة لا تُمنح بالكثرة، ولا يُفرض الاحترام بمجرد الشهرة. ومن أراد محبة الناس، فعليه أن يُصلح نفسه أولًا، بدلًا من التساؤل: "لماذا لا يُحبني فلان؟". فكما قيل: "أحبك كيف وأنت تعاملني بهذه الطريقة؟ أصلح نفسك، وستجدني أقرب إليك". وهذا درسٌ لكل من يظن أن القيم تُستبدل بالأعداد، أو أن الاحترام يُشترى بالشهرة لا بالعمل الصالح والسلوك القويم.

الحسد.. من شرارة الغيرة إلى نيران الجريمة

حين يتملك الحسد القلوب، يعمي البصائر، ويدفع الإنسان إلى أفعال لا تخطر على بال. وهذا ما حدث مع إخوة يوسف، إذ بلغ بهم الحقد مبلغًا عظيمًا، حتى وصلوا إلى اقتراحٍ مرعب: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا". لم يكن الأمر مجرد شعور بالغيرة، بل تحول إلى مخطط للتخلص من أخيهم، غير عابئين بحرمة الدم، ولا بصغر سنّه، ولا بعاطفة أبيهم الشيخ الكبير الذي كان يجد في يوسف راحته وسعادته. وكما قال ابن إسحاق، فقد اجتمع في هذا الفعل من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقسوة القلب، ما لا يُتصوَّر أن يصدر عن أبناء نبيٍّ من أنبياء الله.

لكن العجب ليس في قسوتهم فحسب، بل في منطقهم المقلوب! فقد توهموا أن قتل يوسف سيجعل أبيهم يحبهم، "يخلُ لكم وجه أبيكم"، وكأن المحبة تُفرض بالإكراه! كيف يُعقل أن يُنسى يوسف من قلب أبيه، بل كيف لا يثير غيابه الشك فيهم؟ ألم يدركوا أن يعقوب عليه السلام قد يُذبل قلبه الحزن، فلا يبقى في قلبه متسعٌ لأحد؟

بين الحب الحقيقي والأنانية المقنَّعة

هكذا يزين الشيطان للإنسان الباطل، فيوهمه أن الأنانية هي الحب، وأن حب الذات مقدَّم على كل شيء. لكن الحب الحقيقي شيء آخر؛ الحب عطاء، تضحية، خوف على المحبوب، وليس استغلالًا ولا إلحاقًا للأذى به.

نرى هذا المعنى جليًّا في حب يوسف لأخيه الصغير حين قال له مطمئنًا: "إني أنا أخوك فلا تبتئس". الحب لا يُحزن، لا يُخيف، لا يُؤذي. على النقيض تمامًا، نجد امرأة العزيز التي ادَّعت حب يوسف، لكنها في الحقيقة لم تكن تحبه، بل كانت تحب شهواتها. وحين رفضها، لم تتردد في إلقائه في السجن ظلمًا: "ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم"، ولم تهتم به بعدها قط! أي حب هذا؟!

الحب لا يكون إلا طاهرًا

وهذا درسٌ لكل فتاةٍ تُخدع بمشاعر زائفة، وتظن أن الشاب الذي يضغط عليها لفعل الحرام يحبها. الحب الحقيقي لا يدفع إلى المعصية، بل يحمي من الوقوع فيها. الشاب الذي يُجرّكِ إلى الخطأ، لا يحبكِ، بل يحب نفسه، يحب امتلاككِ، يستغل ضعفكِ. جربي أن تبتعدي عنه، وستجدينه ينقلب إلى وحشٍ يهددكِ، يبتزكِ، وربما يؤذيكِ. الحب الصادق يأتي من الباب، لا من النافذة، ويطلبكِ بالحلال، لا بالخداع والاحتيال.

النهاية الحتمية للحب الأناني

العاقبة دومًا للصدق، والخيبة مصير الأنانية. فالحب الزائف ينتهي بانكسار، وتعاسة، وندم. من يحب نفسه على حساب الآخرين، سيظل معذبًا بمحبوبه، يطارده الشعور بالنقص، ويكتوي بنار الحرمان، حتى لو نال مراده. وكما رأينا في إخوة يوسف، لم يذوقوا راحةً بعد فعلتهم، بل عاشوا في قلقٍ مستمرٍ، حتى اعترفوا بخطئهم لاحقًا، طالبين المغفرة، بعد أن ذاقوا مرارة البعد والندم.

فليكن ميزان الحب عندك واضحًا: من يحبك لن يؤذيك، ومن يؤذيك لم يحبك قط!

حين يزين الشيطان المعصية بوهم التوبة

ماكرٌ هو الشيطان، يعرف كيف يدخل إلى القلوب، ويجيد إضفاء المسحة البريئة على أعظم الذنوب. لم يكتفِ بتحريض إخوة يوسف على التخلص منه، بل أضاف إلى

خطته لمسة خادعة، فقال لهم: "وتكونوا من بعده قومًا صالحين". أراد أن يطمئن ضمائرهم بأن الذنب مؤقت، وأن التوبة بعده قريبة، فما المشكلة إذن؟!

🔸 وهذه الحيلة لم تزل تُستعمل حتى اليوم، حين يهمس الشيطان في أذن العاصي: "افعلها الآن، وتُب غدًا". "سننطلق في رحلة اللهو، ثم نستغفر عند عودتنا!"، "سنخطئ اليوم، لكن مع رمضان سنبدأ من جديد!"، "سنعيش حياتنا في الشباب، ثم نهتدي عند الكِبَر!"... لكن، من يضمن العمر؟! ومن قال إن التوبة تُنال متى شئنا؟!

"واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" [الأنفال: ٢٤]،

🔁 فقد يغلق الله باب التوبة عمن استهزأ بها، ويسلبه الرغبة في العودة. ولو نظرنا إلى إخوة يوسف، لوجدنا أن شيطانهم قد خدعهم، فلم ينالوا لا محبة أبيهم، ولا صاروا صالحين بعدها مباشرة. بل مضت أربعون سنة وهم على حالهم، كادوا يهلكون على ما هم عليه، لولا أن يوسف عليه السلام سامحهم، فكانت لهم فرصة التوبة. ولكن، هل للجميع مثل هذه الفرصة؟

الخيانة حين تأتي منا أقرب الناس

🔸 لا شيء أشد إيلامًا من خيانة القريب. فالغريب إن أضرّك، هان الأمر، أما حين تأتي الطعنة ممن كنت تظنه سندًا، فإنها تنغرس في القلب عميقًا. وهذا ما فعله إخوة يوسف، حين خانوا أخاهم الصغير، ولم يرقّ قلبهم لشيخوخة أبيهم.

فالأخ والأخت، في الأصل، حصنٌ وسند، كما رأينا في أخت موسى عليه السلام التي تعقبته بعينها خوفًا عليه، وهارون الذي خلف موسى في قومه ليصلح بينهم. وحين ينقلب هذا السند إلى عدو، يكون الجرح غائرًا، والألم مضاعفًا.

🔸 احتياج الأبناء لأكثر من العطاء المادي

حين قال إخوة يوسف: "يخلُ لكم وجه أبيكم". كانوا يبحثون عن شيءٍ أهم من الهدايا، وأغلى من النفقة، وهو الاهتمام. الأبناء يحتاجون إلى أن يجدوا آباءهم وأمهاتهم قريبين منهم، يتحدثون معهم، يسمعونهم، يشعرون بوجودهم. ليست الهدايا ولا المدارس الفاخرة هي التي تغني عن هذا القرب، بل دفء المشاعر والوقت الذي يُمنح لهم بصدق.

الحب الحقيقي لا يفتر مع الغياب

وأعظم مثال على الحب الحقيقي، هو حب يعقوب ليوسف. أربعون سنة تمرّ، ولا يزال قلبه متعلقًا بابنه، حتى أبيضت عيناه من الحزن، لكنه لم ينسه لحظة. هذا هو الحب الصادق، لا يُمحى بالغياب، ولا يبهت مع الزمن. هو كالصديق الذي تغيب عنه سنين، وحين تلقاه، تجد نفسك تتحدث معه وكأنك لم تفارقه يومًا.

الحب لا تقطعه المسافات، ولا تمحوه الأيام، بل يظل راسخًا، كما ظل حب يعقوب ليوسف رغم مرور العقود.

الدرس الأكبر

🔶 لا تنخدع بوهم التوبة المؤجلة، فالعمر ليس ملكًا لك، والخداع الأكبر هو أن تظن أن ذنبك قابل للمحو متى شئت. والتوبة ليست مجرد كلمة تُقال، بل صدقٌ وإخلاص، قد لا يُتاح للجميع فرصة الوصول إليهما. فإن كنت تعلم الحق، فلا تؤجله، وإن كنت تحب، فليكن حبك صادقًا، وإن وثقت، فاختر لمن تعطي ثقتك، فإن أقرب الناس قد يكون أحيانًا أشدهم إيذاءً.

حين تكون الخيارات كلها شرًا

عندما اجتمع إخوة يوسف على التخلص منه، برز بينهم صوتٌ فيه قليلٌ من الخير، هو الأخ الأكبر، أو أكثرهم رفقًا، الذي قال: "لا تقتلوا يوسف، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين". لم يكن يريد أن يمنع الشر تمامًا، لكنه على الأقل سعى لتخفيفه، فبدلًا من القتل، اقترح النفي. وأحيانًا يجد الإنسان نفسه أمام خيارات كلها مريرة، فيكون عليه أن يختار الأقل ضررًا.

لكن، ما ظنه الإخوة نهايةً ليوسف، كان في الحقيقة بداية رفعته. أرادوا له الجب، فرفعه الله إلى العرش! "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". حين يريد الله أن يصنع عبدًا مميزًا، يقتلعُه من بيئته التي تعيقه، يخرجه من دوائر الحسد والمكر، وينقله إلى أماكن تهيئه لما هو أعظم. كان لا بد ليوسف أن يبتعد عن محيطٍ يملؤه الحقد، ليبدأ رحلة الصقل والتمكين، من بيت العزيز إلى السجن، ومن السجن إلى الحكم والسلطان.

🔶 كم مرة ظننت أن ما أصابك هو محنة، ثم اكتشفت بعد حين أنه كان منحة؟ كم مرة أبعدك الله عن شيء تعلّقت به، ثم أدركت لاحقًا أنه كان يحفظك ويرفعك إلى ما هو خير لك؟ فكن على يقين، أن الله يدبر أمرك بحكمة، ولو لم تفهمها الآن.

🔶 ريبة الكلمات وزيف النوايا

حين جاء إخوة يوسف إلى أبيهم، كان كذبهم واضحًا بين سطور كلامهم: "يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنّا له لناصحون".

المريب يكاد يقول: "خذوني"!

■ الطيبة المفاجئة مريبة، فهم لم يكونوا بهذه المحبة من قبل.

■ كثرة التأكيدات تدعو للشك: "إنا له لناصحون"، لام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة، كلها محاولة يائسة لإخفاء ما في قلوبهم.

■ اللاوعي يفضح النوايا: أول كلمة نطقوا بها "ما لك لا تأمنا"، كأنهم يعترفون ضمناً بأن هناك سببًا يدعو أباهم لعدم الثقة بهم.

ولأنهم يعلمون أن الأمر يحتاج إلى إقناع طويل، لم يطلبوا يوسف فورًا، بل قالوا "أرسله معنا غدًا". لم يكن الأمر سهلًا، وكانوا بحاجة إلى وقت لكسر تردد أبيهم، وهذا يدل على شعورهم الداخلي بأن ما يفعلونه خطأ.

🔶 لكن رغم تخطيطهم، لم يكن يدور في خلدهم أن الله هو المدبّر الحقيقي، وأن ما ظنوه نصرًا لهم، كان في الحقيقة بداية خسارتهم، وما ظنوه هلاكًا ليوسف، كان أول خطوة في تمكينه.

🔶 الدرس الأكبر

لا تخف إن وجدت نفسك في ظلمات "غيابة الجب"، فربما هي أول خطوة نحو مجد لم تتخيله. ولا تبتئس إن انتُزِعتَ من مكانٍ أحببته، فقد يكون ذلك هو السبيل لصعودك. وثق دائمًا أن تدبير الله لك خير من تدبيرك لنفسك، وإن لم تدرك ذلك الآن، فسيكشفه لك الزمن.

🔶 ميزان الحكمة في الحكم على النصيحة

🔁 حين جاء إخوة يوسف إلى أبيهم، كانت كلماتهم مملوءة بالتوكيد والمبالغة: "ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ◌ أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له

لحافظون". لكن يعقوب -عليه السلام- لم ينخدع بهذه الكلمات، بل رد بحزن وحذر: "إني ليحزنني أن تذهبوا به".

فهنا قاعدة ذهبية: لا تصدق أي نصيحة إلا بعد عرضها على ميزانين:

١- ميزان الشريعة: إن خالفت الشريعة، فهي ليست نصيحة بل خداعٌ مغلفٌ بعبارات حسنة. فكما أقسم إبليس لآدم "إني لكما لمن الناصحين"، لم تكن نصيحته إلا غرورًا. كذلك من ينصحك بما يخالف الدين – كالتنازل عن مبادئك لتحقيق مكاسب دنيوية – لا تصدقه، مهما بدت نصيحته عقلانية.

٢- ميزان حال الناصح: إن كان معلومًا بالخيانة أو الحسد أو العداء، فكيف تأتمن نصيحته؟ فالنصيحة الحقيقية تأتي من قلبٍ مخلص، لا من لسانٍ مخادع.

اللعب.. حقٌّ لا يتعارض مع الجد

وفي ثنايا القصة، نأخذ لمحة تربوية: حتى أبناء الأنبياء يحبون اللعب! قول إخوة يوسف: "أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب" يدل على أن اللعب كان جزءًا من حياتهم، لكنه لم يكن شغلهم الشاغل. فالتربية الحكيمة تقتضي التوازن، لا إفراط في اللعب حتى يضيع الجد، ولا منعٌ تامٌّ فيتحول الطفل إلى رجل صغير قبل أوانه.

🔶 كم من أبٍ يرى مكانته الدينية أو العلمية سببًا لمنع أولاده من اللعب، كأنه يخجل من أن يُرى ابنه يلهو! وكم من أمٍّ تحرم طفلها من طفولته بدعوى الجدية والانضباط! حتى أن البعض يضغط على الصغار ليحملوا عباءة العلماء في سنٍّ مبكرة، فيُدفع الطفل للخطابة والتعليم وهو لم يزل في عمر اللهو والمرح.

دعوا لكل مرحلة حقها، فليس المطلوب أن يكون ابن الشيخ مختلفًا عن بقية الأطفال، بل المطلوب أن يكون إنسانًا سويًّا، يأخذ من كل مرحلة نصيبها المناسب، ليكبر متوازنًا، عالمًا بوقته، متمسكًا بدينه دون أن يُحرَم من طفولته.

ميزان الحكمة في الابتلاء والظن بالله

حين قال يعقوب -عليه السلام- "إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب"، لم يكن يعلم أنه بلّغ أبناءه – دون قصد – الحجة التي سيستخدمونها في خداعه. فقد عادوا إليه بنفس الكلمات: "أكله الذئب". هنا تتجلى لنا حكمة عظيمة: لا تُخبر الناس بنقاط ضعفك، فقد يستغلونها ضدك.

لكن الأعمق من ذلك هو ما يُعرف بـ"البلاء موكّل بالمنطق"، أي أن كلام الإنسان يعكس ظنه بالله، فيعامله الله بناءً على هذا الظن. والدليل على ذلك ما حدث مع النبي ﷺ عندما زار رجلًا مريضًا وقال له: "لا بأس، طهور إن شاء الله". لكن الرجل أجاب: "بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور". فردّ عليه النبي ﷺ: "فليكن إذًا". فكان كما ظنّ، ومات بالحمى!

إذن، الكلمة ليست مجرد صوت يخرج من الفم، بل انعكاس لظن الإنسان بربه. من ظن بالله خيرًا، وجد الخير، ومن ظن سوءًا، وجد السوء.

🔶 الفرق بين البلاء والظن وقانون الجذب

١- البلاء موكّل بالمنطق: كلامك أنت يعكس ظنك بالله، والله يعاملك بقدر هذا الظن.

٢- التشاؤم: أن تتشاءم بسبب كلام أو أفعال الآخرين، كأن يخبرك أحدهم أن يومك سيكون سيئًا، أو تمر بمكان اسمه "محطة مظلوم" فتعتقد أن يومك سيكون نحسًا، وهذا غير صحيح.

٣- قانون الجذب (الباطل): الاعتقاد بأن الكلمات وحدها تجذب الأقدار دون إرادة الله، وهذا ضلال وشرك حديث.

الصبر في وجه الابتلاء

قصة يعقوب -عليه السلام- تحمل في طياتها ألمًا لا يُوصف، فكم كان شديدًا عليه أن يُحرم من ابنه أربعين عامًا! لكن رغم كل هذا، عاد يوسف إليه في النهاية. أما النبي ﷺ، فقد دفن ستة من أبنائه، ودفن زوجتين، ومع ذلك كان صبره أعظم من أن يوصف.

العبرة؟

- إذا منعك والدك من شيء، فاعلم أن ذلك من محبته، لا من قسوته.
- لا تُطل الغياب عن والديك، فأنت لا تعلم كم يحزنهم فراقك.
- كن حذرًا في كلامك، فظنك بالله يُرسم بألفاظك، فلتكن ألفاظك كلها خيرًا.

وهكذا، يظلّ الميزان قائمًا: إن ظننتَ خيرًا، وجدتَ الخير، وإن ظننتَ سوءًا، فالله عند ظن عبده به.

🔸 هل ابتُلي يعقوب عليه السلام بمنطقه؟

🔁 هناك فرق جوهري بين التوقع الحتمي والتحذير من خطر محتمل. يعقوب -عليه السلام- لم يقل "سيأكله الذئب", بل قال: "أخاف أن يأكله الذئب". الخوف هنا ليس جزْمًا بوقوع المصيبة، بل تعبير عن الحرص الأبوي والتنبيه من خطر قد يحدث.

🔸 لماذا لا تنطبق عليه قاعدة "البلاء موكّل بالمنطق"؟

■ لأنه لم يصرّح بحدوث الأمر، بل عبّر عن خوفه فقط.

■ لأن الكيد كان مدبَّرًا قبل أن يتكلم، مما يعني أن ما حدث لم يكن نتيجة لكلامه، بل نتيجة لمكر إخوته.

■ الفرق واضح: من يقول "سأسقط، سأفشل", فهو يسيء الظن بالله. أما من يقول "أنا قلق من هذا الأمر، فليكن الله معي", فهو يعبّر عن حذره لا عن سوء ظنه.

🔸 لكن ما حدث أن أبناءه استغلّوا كلماته، واتخذوها حجة جاهزة لجريمتهم. وهذا درس آخر: لا تُلقّن خصمك الحجة ضدك، ولا تُظهر نقاط ضعفك لمن قد يستغلها.

ختامًا، يعقوب -عليه السلام- لم يُبتلَ بسبب كلامه، لكنه واجه مكيدة استغلت حذره لصياغة كذبة مدبرة. فليكن حديثنا دائمًا موزونًا، لا نعطي لأحد سلاحًا ضدنا، ولا نفتح بابًا لسوء الظن بالله، فهو عند ظن عبده به

المحاضرة الثالثة
فصبر جميل

المقدمة

🔸 تبدأ آيات سورة يوسف بمشهد ذهاب إخوة يوسف به بعد إلحاحهم على أبيهم يعقوب عليه السلام ليأذن لهم بأخذه معهم، بينما كان يعقوب يخشى عليه وقال: " قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ"، لكنهم طمأنوه قائلين: قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ"

🔁 ومن هذه الآيات يتبادر إلى الأذهان تساؤلان: هل قاعدة "البلاء موكل بالمنطق" صحيحة؟ وهل تنطبق على يعقوب عليه السلام؟

القضية تكمن في أن كلام الإنسان قد يكون سببًا لجلب الخير أو الشر، لأن المنطق يعكس ظنه بالله، فمن أحسن الظن وقال كلامًا إيجابيًا استجلب خيرًا، ومن أساء الظن بكلام سلبي فقد ينعكس عليه بالسوء، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا عند ظن عبدي بي".

🔸 يتجلى هذا المفهوم في مواقف عدة، منها عندما زار النبي صلى الله عليه وسلم مريضًا وقال له: "لا بأس، طهور إن شاء الله"، لكن الرجل رد بسوء ظن: "بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور"، فقال له النبي: "فلتكن إذاً"، فمات الرجل كما ظن. والعكس، كان النبي يحب الفأل الحسن، كما في غزوة بدر حين قال عن جيش المشركين: "هذه قريش قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها"، فكان النصر حليف المسلمين، وكذلك في معركة أخرى، حين قال: "هذه غنيمة المسلمين غدًا بإذن الله"، فكانت لهم الغلبة.

🔁 أما يعقوب عليه السلام، فلم يكن كلامه استجلابًا للبلاء، فهو لم يقل "سيأكله الذئب"، بل عبّر عن خوفه بقوله: "وأخاف أن يأكله الذئب"، وهناك فرق بين الجزم بالشر وبين التعبير عن القلق. ولو كان كلامه سببًا مباشرًا للبلاء، لكان الذئب قد أكل يوسف، لكنه لم يحدث.

🔸 ومن اللافت أن يعقوب، دون أن يشعر، لقّن أبناءه الحجة التي استخدموها لاحقًا عند عودتهم بالكذب، وهذا يبرز قاعدة مهمة: "حكاية الشر أمام أهل الشر تعينهم عليه"، فالحديث عن الشر قد يكون مصدر إلهام للمفسدين، لذا كان نهج القرآن في عرض القصص هو الاختصار في ذكر الشر، والتوسع في الخير، حتى يكون التأثير إيجابيًا.

🔁 وهكذا، فإن الحديث الإيجابي ليس مجرد كلمات، بل هو انعكاس لظن الإنسان بالله، ووسيلة لاستجلاب الخير، بينما الحديث السلبي قد يكون استدعاءً للضرر، ولذا وجب أن ندرب أنفسنا على الكلام الطيب الذي يجلب التفاؤل والبركة.

أثر الكلمة في صناعة القدر: بين الإيجابية والحذر من الشر

🔸 في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى لنا حكمة الكلمة وأثرها في مجرى الأحداث. فالمنطق والكلام يعكسان ظن الإنسان بربه، ومن حسن ظنه بالله تفاءل بالكلام الطيب، فكان الخير حليفه، ومن أساء الظن واسترسل في الحديث السلبي، قد يجر على نفسه ما لا يحمد عقباه.

🔁 يتضح ذلك جليًا في مواضع عدة، منها قول الرجل الذي وجد يوسف عليه السلام في البئر: "يَا بُشْرَى هَٰذَا غُلَامٌ"(يوسف: ١٩)، فقد رأى يوسف بشرى، وكان كذلك لمن حوله، بل ولأهل مصر جميعًا. وكذلك قول عزيز مصر لزوجته: "أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا" (يوسف: ٢١)، فكان حسن الظن بالكلام الطيب سببًا في انتفاع مصر كلها بيوسف عليه السلام.

🔸 أما يعقوب عليه السلام، فلم يكن كلامه سلبيًا، بل كان تعبيرًا عن خوفه، فقال: "إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ" (يوسف: ١٣).

🔸 هناك فرق بين الجزم بحدوث الشر وبين التعبير عن القلق

🔁 ولذلك لم يتحقق ما خشيه، لأن البلاء لا يقع بمجرد التعبير عن المخاوف، بل بالأحرى عند الجزم به بسوء ظن بالله.

ومع ذلك، فإن كلماته قدمت دون قصد الحجة لإخوته، فاستغلوها لتبرير جريمتهم. وهنا تتجلى قاعدة عظيمة: "حكاية الشر أمام أهل الشر تعينهم عليه"، فالكلام العفوي قد يصبح أداة في يد المفسدين، لذا كان نهج القرآن في القصص تقليل ذكر

تفاصيل الشر، مقابل التوسع في ذكر الخير، حتى لا يتخذ الأشرار من تلك التفاصيل ذريعة لأفعالهم.

🔸 من هنا، ندرك أهمية تدريب أنفسنا على اختيار الكلمات، فالحديث الإيجابي ليس مجرد قول، بل هو انعكاس لثقتنا بالله، واستجلاب للخير، بينما الحذر من نشر تفاصيل الشر يقي الناس من الوقوع فيه.

🔸 خطر شيوع الفاحشة وأثره في تطبيع الشر

إن للكلمة أثرًا عظيمًا، فهي إما أن تكون نورًا يهدي القلوب، أو نارًا تشعل الشر في النفوس. في القرآن الكريم، نجد أن القصص الإلهية تختصر مشاهد الفساد والشر، بينما تتوسع في تصوير الخير، لأن تفصيل مشاهد الفاحشة والإجرام لا يفيد الجميع، بل قد يصبح دليلًا لمن كان في قلبه ميلٌ للشر.

على العكس من ذلك، نجد أن القصص الأرضية، كالأفلام والمسلسلات، تمعن في تصوير مشاهد الفساد، وتقضي أغلب وقتها في عرض الشر بحجة الواقعية، بينما تترك للحلقة الأخيرة درسًا أخلاقيًا لا ينتفع به إلا القليل، بعد أن يكون الشر قد تغلغل في النفوس. وهذا ما نراه في الواقع، حيث تنتشر الجرائم بأساليب مستوحاة من تلك الأعمال، فيقتل الزوج زوجته كما رأى في المسلسل، ويسرق الشاب البنك كما تعلّم من الفيلم، بل حتى حالات الانتحار وقعت بسبب معرفة الناس بأساليبها من خلال المشاهد الدرامية.

ولذلك، نهى الله تعالى عن إشاعة الفاحشة، حتى لمن لم يرتكبها، فقال: "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (النور: ١٩). فإن كان مجرد حب إشاعتها يستوجب العذاب الأليم،

🔸 فكيف بمن ينشرها ويجعلها مألوفة للناس؟ وكيف بمن يفعلها ويرتكبها؟

إن كثرة الحديث عن الفواحش، سواء في الإعلام أو في المجالس، يهوّن من وقعها في القلوب، ويجعلها مألوفة ومقبولة، حتى تصبح النفوس مهيأة لفعلها. لذا، علينا أن ننتقي كلماتنا، ونتجنب الحديث عن الشر، ونغرس الإيجابية في ألسنتنا وعقولنا، حتى يكون حديثنا سببًا في نشر الخير، لا أداةً لنقل الشر وتعليمه.

🔸 الكلمة الطيبة والتفاؤل.. درع في مواجهة السلبية والقسوة

أصبحت السلبية اليوم عنوانًا للتفكير، وأضحى التشاؤم والانتقاد المفرط من مظاهر "الوعي الزائف"، حيث يتنافس البعض في الحديث عن الظلام واليأس وكأنها علامة على الذكاء والواقعية. لكن رسول الله ﷺ نبّهنا إلى خطر هذا السلوك فقال: "من قال هلك الناس فهو أهلكهم"، أي أنه إما كان سببًا في هلاكهم، أو كان هو الأكثر فسادًا بينهم بنشره لهذا الفكر.

الكلمة الإيجابية لا تغير الواقع فقط، بل تصنعه.

🔶 حين نواجه التحديات، علينا أن نختار كلماتنا بعناية، فبدلًا من القول: "الأوضاع سيئة"، نقول: "بإذن الله، الأمور ستتحسن"، وبدلًا من اليأس من الأبناء، نقول: "سيكونون بخير، وسينجحون بعون الله". الكلمات الطيبة ليست مجرد عبارات، بل هي بذورٌ تُزرع في النفوس لتنبت تفاؤلًا وأملًا.

🔶 لا تحكِ الشر أمام أهل الشر

من أعظم الدروس التي يعلمنا إياها القرآن هو عدم تمكين أهل الشر من أدوات الشر ذاتها. فعندما عبّر سيدنا يعقوب عن خوفه على يوسف عليه السلام بقوله: "وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ"، التقط إخوته هذه الفكرة وجعلوها حجةً لمؤامرتهم. فذكر الشر أمام من ينوي ارتكابه قد يكون دافعًا له لتنفيذه.

🔶 قصة يوسف.. تجسيد لقسوة القلوب عندما يعميها الحقد

🔁 حين اجتمع إخوة يوسف على أذيته، لم يكن هناك فاصل بين إظهار الحب أمام الأب، وإطلاق العنان لحقدهم بمجرد أن غابوا عن ناظريه. بدأوا بشتمه وضربه، ثم ألقوه في البئر بوحشية تقطع نياط القلب. كان كلما استنجد بأحدهم، زاده قسوةً وصفعًا. وفي ظلام البئر، وقف يوسف وحيدًا، تحيط به المخاوف والآلام، لكنه لم يكن وحيدًا حقًا، فقد أحاطه الله برحمته، وأنزل عليه السكينة التي كانت له عزاءً وسندًا.

العبرة هنا عظيمة:

■ الحسد والحقد قد يدفع الإنسان إلى أقسى درجات الظلم.

■ السكينة الإلهية هي الملجأ حين تضيق بنا السبل.

■ لا تفتح لأهل الشر أبواب الشر بذكره أمامهم.

■ اجعل حديثك طيبًا، فالطاقة الإيجابية تصنع مستقبلًا أكثر إشراقًا.

فلنحذر من كلماتنا، فإنها تصنع واقعنا، ولنجعل التفاؤل والأمل منهج حياتنا، كما كان نهج الأنبياء والصالحين.

◆ نور الأمل وسط ظلمات المحنة

حينما اشتد الظلام على يوسف، وبلغت المحنة ذروتها، تجلَّت رحمة الله في هيئة وحي وإلهام، كما قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ"

◆ لكن ما المقصود بالوحي هنا؟

↩ ليس وحي النبوة، بل وحي الإلهام والتثبيت، ذلك الوحي الذي يرسله الله ليهدِّئ القلوب المضطربة، كما أوحى لأم موسى أن تُلقي طفلها في اليم، وكما أوحى للنحل أن تتخذ الجبال بيوتًا. إنه الإعلام في الخفاء، رسالة خفية من الله تمنح القلب يقينًا وسط العاصفة، وتزرع في النفس الطمأنينة حين يظن الإنسان أن لا مخرج.

قسوة القلوب حين يعميها الحقد

ما أبشع أن يأتي الألم من أقرب الناس إليك! أظهر إخوة يوسف له الودَّ أمام أبيهم، لكن ما إن انفردوا به حتى تحوَّل الحسد إلى وحش ينهش قلوبهم. انهالوا عليه بالضرب والإهانة، وحينما تعلَّق بأحدهم مستنجدًا، لم يجد إلا الصد والضرب. لم يكتفوا بإلقائه في البئر، بل قطعوا الحبل في منتصف الطريق، ليرتطم جسده الصغير بالماء، ويجد نفسه وحيدًا في ظلمة الليل وظلمة الجب، بلا أنيس سوى ضوء القمر وانعكاس صورته المرتجفة على سطح الماء.

◆ كم من أسئلة دارت في ذهنه في تلك اللحظة؟

لماذا فعلوا ذلك؟ أين أبي؟ هل سأراه مجددًا؟ ماذا عن أخي الصغير؟ أي مصير مجهول ينتظرني؟

↩ رحمة الله حين يشتد العسر

في تلك اللحظة التي كاد قلبه يرتجف فيها من الخوف، جاءت رحمة الله كالبلسم، سكينة نزلت على قلبه، طمأنينة أنسته الوحشة، ووهبته الثبات. فالله لا يترك عباده، وإذا اشتد الظلام لاح الفجر، وإذا ضاق الحال جاء الفرج، وإذا اضطربت القلوب أرسل الله سكينته كما قال: "فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ".

🔶 الدرس الأعظم: لا تستهِن بالكلمة الطيبة، فبها يزرع الأمل، وبها يغير الله الواقع، كما غيَّر ظلمة البئر إلى نور الملك، والمحنة إلى منحة، واليأس إلى يقين.

حسن الظن بالله وأثره في تجاوز المحن

تتضمن الآية الكريمة "وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون" معنيين متكاملين: الأول أن الله أوحى إلى يوسف بأنه سيخبر إخوته بما فعلوه في المستقبل، والثاني أن الإخوة لم يكونوا على علم بهذا الوحي حين وقوعه. وهذا يبرز بُعدًا هامًا في فهم الأقدار الإلهية، حيث تُدار الأمور بحكمة إلهية لا يدركها الإنسان في لحظتها.

تحول المحنة إلى منحة

🔶 تكشف قصة يوسف عليه السلام عن قانون إلهي مهم: الأقدار التي تبدو مؤلمة قد تكون وسيلة لتحقيق الخير الأعظم. فإلقاؤه في البئر، رغم قسوته، كان مقدمةً لبلوغه الملك والتمكين. وهذا يدعو إلى إعادة النظر في المصائب، حيث قد يكون الألم الحالي هو نفسه بداية التمكين في المستقبل، سواء على مستوى الأفراد أو الأمم.

🔶 أهمية حسن الظن بالله

تؤكد القصة أن حسن الظن بالله مفتاح لتحمل الابتلاءات، فالمؤمن مُطالب برؤية الخير في كل حدث، حتى وإن بدا ظاهره مؤلمًا. فكما قال يعقوب عليه السلام: "فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين"، فإن رعاية الله لعبده تفوق أي رعاية بشرية، حتى لو بدت الظروف قاسية في ظاهرها.

🔶 الوحي الإلهي والسكينة

ليس الوحي مقتصرًا على الأنبياء ، بل يمكن أن يكون إلهامًا وتثبيتًا يلقيه الله في قلوب المؤمنين في أوقات الشدة، وفقًا لمقدار الإيمان والتقوى. وقد تجلى ذلك في سكينة أهل غزة وأمثالهم ممن واجهوا المحن بإيمان وثبات، مما يثبت أن الطمأنينة والسكينة الإلهية واقع ملموس يحصل لمن امتلأ قلبه بالإيمان واليقين.

🔶 تدعونا القصة إلى تغيير نظرتنا إلى الأقدار المؤلمة، والتعامل مع الأزمات بحسن ظن بالله، فكل محنة قد تخفي وراءها منحة عظيمة. والثقة في الله تعني الإيمان بأنه مهما بدت الظلمة حالكة، فإن نور الفرج قادم لا محالة.

🔶 فوائد مستخلصة من قصة يوسف عليه السلام

١- التوكل على الله وحده:

في قوله تعالى: "فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا" (يوسف: ١٥)، نرى تطبيقًا عمليًا لحديث النبي ﷺ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك". فلا ينبغي أن يتعلق قلب الإنسان بالناس خوفًا أو رجاءً، فالأمر كله بيد الله وحده.

٢- حتمية انتصار المظلوم:

كل مظلوم سيُنبئ ظالمه بفعله، سواء في الدنيا أو يوم القيامة، حيث سيوقفه الله بين يديه ليسأله عن ظلمه. كما أن الله يُريح قلوب المظلومين بتمكينهم من رؤية عاقبة الظالم، كما يُطلع أهل الجنة على أهل النار ليشهدوا تحقق عدل الله.

٣- انقلاب المِحنة إلى مِنحة:

سُقِط يوسف عليه السلام في البئر، فرفعه الله إلى عرش الملك. وهذا درسٌ عظيم بأن الأقدار التي تبدو قاسية قد تكون بدايات التمكين، فلا يقاس الخير بظاهره، بل بعاقبته.

٤- ليس كل إجماع معتبرًا:

اجتماع إخوة يوسف كان على باطل، مما يبين أن الإجماع لا يكون حجة إلا إذا صدر عن أهل الاختصاص والثقة، سواء في الفقه أو التفسير أو غيرها من العلوم. فلا يُعتد بإجماع غير المؤهلين، ولو كثر عددهم.

٥- الصبر مفتاح الفرج:

تعرض يوسف عليه السلام لضيقات متتالية: ضيق البئر، ثم السجن، ثم المحنة في بيت العزيز، حتى جاءه الفرج من أوسع الأبواب. وهذا يعلمنا أن الفرج لا يأتي إلا للصابرين، كما قال: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٩٠). فالفرج ليس عشوائيًا، بل يأتي لمن جمع بين التقوى، الصبر، والإحسان.

٦- استحضار حسن العاقبة يعين على الصبر:

كان يوسف عليه السلام مطمئنًا رغم ابتلاءاته، لأنه أيقن أن النهاية ستكون خيرًا. ونحن لدينا وحي يخبرنا بأن عاقبة المؤمنين خير، وأن الجنة جزاء المظلومين والمجاهدين في سبيل الله. فمن أيقن بجمال النهايات، سَهُلَ عليه تحمل الابتلاءات.

🔸 أى أن:

قصة يوسف عليه السلام تعلمنا أن الأقدار لا تُقرأ بلحظتها، بل بعاقبتها، وأن الفرج قد يأتي من حيث لا نحتسب، إذا تحقق في القلب الإيمان بحكمة الله، وحُسن الظن به، والصبر على قضائه.

🔸 التلاعب بالمشاعر: مشهد الخداع المحكم

"وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" (يوسف: ١٦).

🔁 يا لها من براعة في التمثيل! ويا له من إتقان في الخداع والمكر! إن الإنسان إذا أراد الغدر، تفنن في وسائله، حتى تفوق على كل المخلوقات. لقد جاؤوا أباهم بعيونٍ دامعة، وقلوبٍ راقصة طربًا بانتصار مكيدتهم، في مشهد يجسد قدرة الإنسان على الازدواجية بين المظهر والمخبر، بين الدموع التي تنهمر كذبًا، والقلوب التي تخفي الفرح بانتصار الحيلة.

🔸 دموع التماسيح: ليست كل دمعة صادقة

🔁 إن البكاء في حد ذاته ليس دليلًا على الصدق، فالعبرة ليست بملامح الوجه، بل بقرائن الحال. فكم من دموعٍ انهمرت، وحقيقتها ليست سوى ستار يخفي مكرًا وخداعًا. هؤلاء الإخوة لم يكن بكاؤهم تأثرًا، بل كان وسيلة لإخفاء ما في صدورهم من كيدٍ وحقد، فاختاروا الليل غطاءً ليخفوا به ما قد تفضحه وجوههم من علامات الخداع والنشوة بما ارتكبوه.

قلب الأب المكلوم ووقع الخبر الصادم

لم يقل الله تعالى: "وجاؤوا إلى البيت"، بل قال: "وجاؤوا أباهم"، وكأن الأب كان ينتظرهم بلهفة وقلق منذ لحظة فراق يوسف، مترقبًا عودته، متوجسًا من تأخرهم. لكنه لم يكن يتوقع أن تأتي الصدمة بهذا العنف، فقد ألقوا في وجهه ادعاءهم القاسي:

"أَكَلَهُ الذِّئْبُ" دون مقدمات، دون تمهيد، دون مراعاة لقلب الأب المفجوع. فالمحب الحقيقي يخشى أن يؤذي من يحب ولو بكلمة، أما هم فلم تكن قلوبهم تحوي إلا أنانية قاتلة، جعلتهم يقذفون بالكلمة دون اكتراث لمشاعر أبيهم.

🔸 الحيلة المدروسة: اختيار توقيت الليل

🔁 لقد تأخروا حتى حلول العشاء، لم يعودوا في وضح النهار، لأن النور يفضح ما تحاول الوجوه إخفاءه. اختاروا ظلام الليل حتى لا يُرى في أعينهم بريق الخداع، حتى لا يُفضح في ملامحهم أثر الفرح بغياب يوسف. فأرادوا أن تكون أصوات البكاء وحدها هي الشاهدة، علها تخدع قلب الأب الحزين.

العبرة من المشهد

ليس كل من يبكي صادقًا، وليس كل ما يلمع ذهبًا. فالعين قد تدمع والقلب يضحك، واللسان قد ينطق بالأسى والروح ترقص فرحًا. فاحذر أن تخدعك الدموع، وتأمل دائمًا في القرائن المحيطة، فربما كان الباكي أشد الماكرين، وكان الحزين أكثر المسرورين.

🔸 خيوط الكذب الواهية: بين شك يعقوب ومكر الإخوة

"قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ" (يوسف: ١٧)

🔁 جاء إخوة يوسف حاملين رواية ملفقة، تفتقر إلى الحبكة، فكانت أولى علامات الريبة والتناقض واضحة منذ البداية. بالأمس كانوا يلحّون على أبيهم ليأخذوا يوسف معهم ليلعب ويمرح، ثم فجأة يصبح يوسف هو الحارس للأمتعة بينما هم ينشغلون باللهو؟ كيف لمن أراد اللعب أن يتحول إلى حارس للمتاع؟! تناقض صارخ جعل الشك يتسلل إلى قلب يعقوب عليه السلام منذ اللحظة الأولى.

🔸 الريبة في كثرة التأكيد

🔁 ثم جاء تأكيدهم المفرط ليكشف زيفهم، فقالوا: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين"، وكأنهم يُقرّون مسبقًا بأن ما يقولونه غير مقنع. فالمؤمن الصادق لا يحتاج إلى أن يكرر تأكيد صدقه، ولا أن يقسم على ذلك، لأن الصدق يفرض نفسه بلا

تكلف. ولكن الكاذب مهزوز الثقة بنفسه، يحاول جاهدًا أن يُقنع غيره بما لا يستطيع هو تصديقه في داخله. وكما قيل: "يكاد المريب أن يقول خذوني".

🔶 القميص الفاضح: دليل الإدانة

🔁 ثم جاءت الكذبة الكبرى: "وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ". أرادوا أن يجعلوا القميص شاهدًا على موت يوسف، ولكنهم نسوا أبسط تفاصيل حبكتهم. وضعوا الدم، ولكنهم لم يمزقوا القميص! فأي ذئب هذا الذي ينهش جسدًا ولا يمزق ثيابه؟! كانت هفوة مكشوفة، أوقعهم الله فيها ليكون في وسط الألم بصيص أمل ليعقوب عليه السلام.

القميص: رسالة مزدوجة بين الحزن والرجاء

لقد كان القميص يحمل في طياته مشاعر متضاربة، فهو من جهة دليل زائف على الفقدان، لكنه في الوقت ذاته يحمل بشرى غير معلنة: يوسف لم يؤكل، ولم يُقتل. إن كان الذئب قد افترسه، فأين آثار الهجوم؟! هنا أدرك يعقوب عليه السلام أن الأمر ليس كما يدّعون، وأن يوسف ما زال على قيد الحياة، وإن كان مفقودًا.

🔶 اليقين المستند إلى الرؤيا

ورغم أن يوسف قد غاب عن ناظريه، فإن قلب يعقوب ظل متعلقًا بأمل اللقاء. فقد كان يحمل في صدره يقينًا مصدره الرؤيا التي رآها يوسف يومًا، والتي لم تتحقق بعد. لقد رأى يوسف أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له، فطالما لم يتحقق ذلك، فلابد أن يوسف ما زال حيًا، وأن الله سيجمعه به يومًا ما.

🔁 ومضت السنون، أربعون عامًا كاملة، ويعقوب لا يزال متيقنًا من أن يوسف لم يمت، حتى قال في شيخوخته: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ" (يوسف: ٨٧). كيف لرجل أن يبحث عن ابنه المفقود بعد كل هذا الزمن إلا بيقين لا يتزعزع؟!

🔶 لقد اجتمعت أمام يعقوب دلائل عدة: التناقض في القصة، كثرة التأكيد على الصدق، القميص غير الممزق، وأخيرًا الرؤيا التي كانت وعدًا إلهيًا لا بد أن يتحقق. فتيقن أن يوسف حي، لكنه لا يعلم أين هو، ولا كيف يصل إليه. أما إخوته، فقد أصروا على كذبتهم حتى النهاية، لكن الله كان يدبر ليوسف ما هو أعظم من كل مكرهم.

الصبر الجميل: سلاح في مواجهة الابتلاءات

في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى معاني الابتلاء والصبر في أبهى صورها، إذ لم يكن اختبار يعقوب عليه السلام مجرد فقدان ابنه، بل كان في مواجهة كذبٍ محكم من أقرب الناس إليه، أبنائه. قمة الألم لم تكن فقط في غياب يوسف، بل في تفاصيل القسوة التي تعرض لها، حيث جُرّد من قميصه وأُلقي في البئر، يواجه البرد والوحشة بلا حول ولا قوة. ومع ذلك، كان يقين يعقوب في الله أقوى من كل الدلائل الظاهرة، مستندًا إلى الرؤيا التي لم تتحقق بعد، وإلى قناعته بأن الله لا يخلف وعده.

الصبر الجميل: مفهومه وقيمته

حينما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يملك فيها أي وسيلة لتغيير الواقع، يكون الصبر الجميل هو الحل الأمثل، لا بوصفه استسلامًا، بل باعتباره استراتيجية قوية. الصبر الجميل هو الصبر الذي يخلو من الجزع والتسخط، ويترافق مع حسن الظن بالله والثقة في تدبيره.

هذا المفهوم تجسد مرة أخرى في حادثة الإفك، عندما وجدت السيدة عائشة رضي الله عنها نفسها في موقف لا تستطيع إثبات براءتها، ولم تجد ملجأ إلا قول يعقوب عليه السلام: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ". وعندما اختارت الإعراض عن الجميع، جاء الفرج من عند الله بآيات تتلى إلى يوم القيامة تبرئها.

الصبر كحل عملي

غالبًا ما تواجهنا مشكلات تبدو بلا حل، سواء في الأسرة أو العمل أو العلاقات الاجتماعية، وحين تنعدم الخيارات المتاحة، يصبح الصبر الجميل أعظم وسيلة للخروج من الأزمة. كثيرون ينظرون إلى الصبر على أنه مجرد انتظار سلبي، لكنه في الحقيقة قرار استراتيجي، يتطلب ثقة بالله وحسن تدبير. وكما رأينا في القصص القرآني، فإن من يصبر صبرًا جميلًا يجد الفرج يأتيه من حيث لا يتوقع.

الدرس المستفاد

حين تواجه أزمة تبدو مستعصية، وتنفد جميع الحلول البشرية، تذكر أن هناك بابًا لا يغلق: "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا". فاليقين بوعد الله، والصبر الجميل، قد يكونان أعظم أسباب الحل، ولو بعد حين.

الصبر الجميل: قوة إيمانية ومفتاح الفرج

الصبر ليس علامة ضعف أو استسلام، بل هو سلاح قوي مستمد من الإيمان بالله والثقة في تدبيره. فهو ليس مجرد انتظار بلا فعل، وإنما هو توكل على الله والاعتماد عليه في مواجهة الابتلاءات. قال تعالى: "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ"، مما يوضح أن الصبر الصحيح يعتمد على استمداد القوة من الله.

الصبر الجميل: معناه وأبعاده

الصبر الجميل هو ذلك الصبر الذي يخلو من الجزع والشكوى لغير الله، كما قال بعض العلماء: "الصبر الجميل هو الصبر بلا شكوى". فلا يصح أن يكون الصبر مصحوبًا بأفعال تدل على السخط، مثل اللطم أو شق الثياب أو التعبير عن الغضب بطرق غير سوية، لأن ذلك يتنافى مع حقيقة الصبر.

مثال تطبيقي على الصبر الجميل:

■ في حادثة الإفك، عندما واجهت السيدة عائشة رضي الله عنها اتهامات باطلة ولم تجد من يصدقها، لم يكن أمامها سوى اللجوء إلى الله بقولها: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"، فجاء الفرج من عند الله ببراءتها في آيات تتلى إلى يوم القيامة.

■ سيدنا يعقوب عليه السلام، رغم فقدانه ليوسف وغياب الأسباب الظاهرة، لم يفقد الأمل، بل ظل موقنًا بقدرة الله على جمع شمله بأبنائه، فقال: "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا"، فكان ظنه بالله حسنًا، وكانت النتيجة أن الله أتم له ذلك.

التوكل على الله وحسن الظن به

■ قول يعقوب عليه السلام: "وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" ليس مجرد عبارة تُقال لإنهاء الحديث، بل هي منهج حياة يعكس التوكل الحقيقي على الله.

■ حسن الظن بالله شرط أساسي للصبر الجميل، إذ يجب أن يكون الإنسان متيقنًا أن الله يدبر له الخير حتى لو لم تظهر الأسباب أمامه.

كيف نمارس الصبر الجميل؟

١- الامتناع عن الشكوى لغير الله: الصبر الجميل يعني عدم نشر الشكوى للناس، بل رفعها إلى الله.

٢- ضبط الجوارح والمشاعر: لا يكون الصبر جميلًا إذا صاحبه غضب أو تصرفات تعكس السخط.

٣- الثقة في وعد الله: مهما بدت الظروف معقدة، فإن الله قادر على تغييرها، كما حدث مع يعقوب وعائشة رضي الله عنها.

٤- التوكل الحقيقي: قول "والله المستعان" يجب أن يكون تعبيرًا عن الثقة بالله، وليس مجرد كلمات تقال بلا وعي.

دعاء لتحقيق الصبر الجميل

يمكن للإنسان أن يدعو دائمًا بـ: "اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها"، لأن العبرة ليست فقط بما يحدث الآن، بل بما يقدره الله من نتائج في المستقبل، والتي قد تحمل الخير في صور لا ندركها في البداية.

🔶 حكمة الصبر وتدبير اللطيف

إن الصالحين، عند الابتلاء، لا يزدادون إلا جمالًا، كما يزداد الذهب لمعانًا بالنار، فهم يستخرجون من المحن أجمل ما فيهم، وتكشف المصائب عن معدنهم الأصيل. فديننا، الذي يقوم على الجمال، يجعل الصبر جميلًا، كما يجعل الهجر جميلًا، والسراح جميلًا، فإن كان الفراق بهذا الجمال،

فكيف يكون الوصل والإحسان؟

يؤكد النبي ﷺ أن "الصبر عند الصدمة الأولى"، إذ أن أول رد فعل يعكس قوة الإيمان وصدق التوكل. وهذا ما تجلى في موقف يعقوب عليه السلام، إذ لم يتردد لحظة في قوله: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ"، فكلما كان الصبر فوريًا، كان أصدق وأعمق أثرًا.

🔶 تدبير الله اللطيف في قصة يوسف

حين قال تعالى: "وجاءت سيارة"، لم يكن مرور القافلة مصادفة، بل كان تدبيرًا إلهيًا محكمًا. فقد شاء الله أن ينقص ماء القافلة ليبحثوا عن بئر، وشاء أن تقع أعينهم

عليه، وأن يرسلوا واردهم إليه. هذا التدبير الخفي هو سر اسم الله "اللطيف"، الذي اختصر قصة يوسف كلها، كما قال: "إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ".

إذا أراد الله لك أمرًا، هيّأ له الأسباب، يسخّر القلوب والأحداث والأقدار، حتى تصل إلى ما قدّره لك، فهو القائل: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ".

الأمل.. ولو بحبل يتدلى

حين أُدلي الدلو، أمسك به يوسف عليه السلام، متمسكًا بأي فرصة للنجاة. وكأن الرسالة هنا: لا تستهِن بأي أمل، ولو كان ضعيفًا، فقد يكون فيه الخلاص. فإن كان في يدك فسيلة، فاغرسها، وإن سنحت لك فرصة، فاستغلها، فالله قد يكون ينتظر منك خطوة واحدة ليفتح لك أبواب الفرج.

🔶 اللطف الإلهي في تفاصيل حياة يوسف

🔁 لم يكن لطف الله في إخراجه من البئر فقط، بل في كل تفاصيل حياته:

■ جعله محببًا لدى عزيز مصر، فأكرمه رغم كونه عبدًا.

■ ألهم الملك رؤية المنام، ولم يجد أحدًا يفسره سوى يوسف، فكان هذا مفتاح نجاته.

■ ساق له الأسباب حتى وصل إلى مكانته، بعد أن ظن الجميع أنه انتهى.

فما أعجب تدبير الله! لا يستعجل، لكنه لا يخطئ، يُمهِّد الأمور بصمت، حتى تأتي اللحظة المناسبة.

🔶 الإيجابية في رؤية الأحداث

🔁 حين رآه الوارد قال بفرح: "يا بُشرى! هذا غلام"، رأى في الحدث خيرًا، رغم أنه لم يكن يعلم ما وراءه. وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، يرى الخير في كل موقف، مهما بدا الأمر بعيدًا عن فهمه.

🔶 أما قوله تعالى: "وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً"، فالمقصود أن الذين وجدوه أخفوه ليبيعوه سرًّا. ولكن، من الذي باعه؟ هناك قولان:

١- أن الذين وجدوه هم من باعوه بثمن بخس.

٢- أن الذين باعوه هم إخوته، وهم الأرجح، لأن الذين وجدوه كانوا فرحين به، ومن غير المنطقي أن يبيعوه بثمن زهيد.

أى أن

- الصبر الجميل هو الصبر الفوري، بلا جزع ولا شكوى.
- تدبير الله لطيف، لا يُرى بالعين، لكنه يُحسُّ في النتائج.
- إذا أراد الله أمرًا، سخّر له الأسباب، فلا تقلق من الطريق، المهم أن تثق بالمُدبِّر.
- تمسّك بأي خيط من الأمل، مهما بدا واهيًا، فقد يكون هو سبيل نجاتك.
- كن إيجابيًا في رؤية الأحداث، فقد يكون ما تراه شرًا، هو في الحقيقة طريق الخير.

"إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ"...

🔶 هذه خلاصة القصة، وهذا مفتاح الثقة بالله في كل شيء.

العز الحقيقي لا يُقاس بنظرة الناس

🔁 حينما قرر إخوة يوسف عليه السلام بيعه للقافلة خوفًا من افتضاح أمرهم، لم يكن أمامه سوى السكوت، فقد اختار أقل الضررين، إذ لو اعترف بحقيقته، لربما قتلوه ليتخلصوا منه نهائيًا. وهكذا، بِيع يوسف عبدًا وهو الكريم ابن الكريم، وسُلِب حقه وهو في نظر الله مكرَّم ومصطفى.

🔶 قال النبي ﷺ: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره" [البخاري]. فكيف بمن باع أخاه، وبثمن بخس؟! كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم لم يعرفوا قيمته، لكنه عند الله عظيم.

لا تنتظر أن ينصفك الناس »» إنصافك عند الله

🔸 لا تُحبط إذا لم يعرف الناس قدرك، فقد بِيع يوسف بأبخس الأثمان، وهو من أشرف أهل الأرض. فلك في قصته العزاء إن بخَسَك الناس حقك، فثمنك الحقيقي عند الله، وليس في أعين البشر.

🔁 الناس قد يرفعون من لا يستحق، ويُهملون من هو خيرٌ منهم، كما ورد في الحديث: "مرَّ رجل فقالوا: هذا حري إذا تكلم أن يُسمع وإذا خطب أن يُنكح"، ثم مر آخر فقالوا: "هذا حري إذا تكلم لا يُسمع وإذا خطب لا يُنكح"، فقال النبي ﷺ: "هذا الثاني خير من ملء الأرض من الأول". فكم من مجهول في الأرض، معروف في السماء، وكم من مغمور عند الخلق، وهو عند الله من المقربين.

العز الحقيقي في القلب.. والذل في المعصية

🔸 قد تبدو بعض المشاهد مشاهد مذلة، لكن العبرة ليست في الظاهر، بل في الباطن. يوسف عليه السلام في قاع الذل ظاهريًا، لكنه العزيز عند الله، بينما إخوته في موقف المتحكمين، لكنهم الأذلاء في الحقيقة.

قال الحسن البصري: "هم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين، لا يزال ذل المعصية في قلوبهم"، فالعز في طاعة الله، والذل كل الذل في معصيته.

🔸 حتى في أشد اللحظات، كان يوسف هو العزيز، لأن "من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا" [فاطر: ١٠]. وهذا ما فهمه أهل غزة، حينما وقفوا شامخين في وجه الظلم، فاستحقوا لقب "أهل العزة"، لأنهم اختاروا الكرامة على الخضوع، بينما خانهم من اختار الذل رغم امتلاكه القوة.

العزة في القرب من الله

الإمام ابن تيمية حينما سُجن، لم ير في ذلك إذلالًا، بل قال: "المأسور من أسره هواه، والمحبوس من حُبس قلبه عن الله". وحين أغلقوا عليه باب السجن، قال: "فضُرب بينهم بسور، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب"، مؤكدًا أن عزته ليست في المكان، بل في قلبه المليء بالإيمان.

فمن أراد العزة، فليرفع عمله الصالح، وليجعل وجهته إلى الله، فإنه وحده مانح العزة وسالبها.

الطمأنينة في علم الله وحكمته

حين أُلقي يوسف عليه السلام في الجب، لم يكن وحده، بل كان تحت عين الله، وعندما باعه إخوته بثمنٍ بخس، لم يكن ذلك تفريطًا في قدره، بل كان بداية لرفعة شأنه. "وأسروه بضاعةً والله عليم بما يعملون" [يوسف: ١٩]، فالله يرى ويسمع، لكنه لا يتدخل فورًا لأنه عليم وحكيم ولطيف، وتلك الأسماء الثلاثة

🔴 تلخص القصة كلها:

- ■ عليم بكل ما يجري، فلا يغيب عنه شيء.
- ■ حكيم في توقيت الفرج وطريقة التدبير.
- ■ لطيف بعباده، حتى في الابتلاء، فهو يُدبر بحكمة ولطف.

🔁 قد تتساءل: لماذا لا يغيّر الله الظلم الآن؟ لماذا لا تُستجاب دعوتي فورًا؟ الجواب بسيط: لأنه حكيم.

الفرج قادم ولو تأخر

🔁 حين دعا موسى وهارون على فرعون، قال الله: " قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا " [يونس: ٨٩]، ومع ذلك لم يهلك فرعون فورًا، لأن توقيت الإجابة ليس شأن العبد، بل حكمة الله. كذلك أصحاب الأخدود، احترقوا بنار الظالمين، لكنهم صاروا رمزًا للثبات، وانتقم الله لهم لاحقًا، وجعل قصتهم عبرة خالدة.

الحكمة في تأخير الفرج عظيمة، والمهم أن تبقى مطمئنًا لأن الله يعلم، ومجرد معرفتك بذلك كافية لتمنحك السكينة.

🔶 حين يكون العالم بك هو القوي الحاكم

🔁 تخيل أنك في موقف ظلم، وأحدهم يسرقك تحت تهديد السلاح، لكن هناك كاميرا مراقبة، وشخص قوي يراها—وليكن وزير الداخلية مثلًا—يراقب المشهد وعازم على رد حقك. حينها، لن تشعر بالخوف، لأنك تعلم أن حقك محفوظ والمسألة مسألة وقت.

🔶 فإذا كان هذا حالك مع بشر قد يخطئ أو يُغير رأيه، فكيف برب العالمين؟! الله يرى الآن كل ما يقع عليك من ظلم، وهو العليم الحكيم، فلا تقلق ولا تستعجل الفرج، فهو قادم لا محالة.

"وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" [يوسف: ١٩]—هذه وحدها تكفيك طمأنينة وراحة، لأن الله ليس غافلًا، بل يُمهل بحكمة، ثم يُنصف بعدل. ففوض أمرك إليه، وكن مطمئنًا بأن العاقبة للمتقين.

🔴 التدبير الإلهي في قصة يوسف عليه السلام

🔁 يُظهر سياق قصة يوسف عليه السلام كيف أن تدبير الله يسير بحكمة مطلقة، حتى في الأقدار التي قد تبدو قاسية أو غير مفهومة في ظاهرها.

١ـ من العبودية إلى التكريم

بعد أن باع إخوة يوسف أخاهم بثمن بخس، قدر الله أن يكون المشتري هو عزيز مصر، أحد كبار رجال الدولة، مما شكل انتقالًا مفاجئًا في حياة يوسف من قاع المعاناة إلى حياة القصور والرفاهية. هذا التحول السريع في مصيره يؤكد أن الله غالب على أمره، حتى وإن بدا للناس أن الأمور تجري وفق المصادفة أو التدبير البشري.

٢ـ حكمة العقم في نصرة الأنبياء

من لطف الله أن زوجة العزيز كانت عقيمًا، فكان ذلك دافعًا لها ولزوجها إلى التعلق بيوسف، ورعايته كابن بالتبني. هذه الحكمة الإلهية تكررت أيضًا مع امرأة فرعون، التي احتضنت موسى عليه السلام رغم أنه كان من بني إسرائيل، العدو الأول لفرعون. هنا يظهر كيف أن الابتلاء بالعقم كان وسيلة إلهية لاحتضان الأنبياء وحمايتهم في بيئات غير متوقعة.

٣ـ التمكين التدريجي وفق السنن الإلهية

توضح الآيات كيف أن الله يسوق الأسباب لتحقيق مشيئته، حيث يُمهّد ليوسف الطريق نحو التمكين شيئًا فشيئًا. فانتقاله إلى بيت العزيز لم يكن مجرد تغيير مكاني، بل كان جزءًا من إعداد إلهي دقيق، حيث نشأ في بيئة تعزز قدراته، وتهيئه لمهمته القادمة.

٤- سنن الله في الأحداث ودورها في تحقيق الغايات

يُبرز قوله تعالى: " وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ " [يوسف: ٢١] أن كل هذه التحولات لم تكن إلا خطوات ضمن خطة إلهية أكبر. كما أن "ۚوَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [يوسف: ٢١] تشير إلى أن التدبير الإلهي قد يكون غير مرئي للعقل البشري، لكنّه دائمًا يسير نحو تحقيق مقاصد الحكمة الإلهية.

٥- التفاؤل في التعبير وأثره في تحقيق النتائج

عندما قال العزيز: " عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"، كان التعبير إيجابيًا، مما يلفت الانتباه إلى أهمية التفاؤل في التعامل مع الأقدار، حيث استجاب الله لهذا التفاؤل، وكان يوسف بالفعل سببًا للخير لاحقًا.

🔁 النتيجة

🔶 تؤكد هذه الأحداث أن التخطيط الإلهي دقيق ولا يخضع للحسابات البشرية، وأن كل ابتلاء أو تغيير في المسار يحمل حكمة قد لا يدركها الإنسان في لحظتها. فكل شيء يجري وفق نظام إلهي محكم، حيث يكون الخير مختبئًا أحيانًا في الأقدار التي تبدو مؤلمة.

المحاضرة الرابعة
الخطة الخماسية

المقدمة

🔸 في هذا اللقاء المبارك، نقف مع آيات كريمة تحمل في طياتها دروسًا عظيمة وحكمًا بليغة. ففي اللقاء السابق، كنت أرغب في ذكر بعض الفوائد، لكن ضيق الوقت حال دون ذلك، لذا أستكملها الآن.

🔁 تأملوا في قول العزيز لامرأته عن يوسف عليه السلام: "أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا"، وكيف أن هذا القول كان مفتاحًا لتمكين يوسف بعد محنته. وهنا يأتي قول ابن مسعود رضي الله عنه، الذي يستحق أن يُكتب بماء الذهب: "أفرس الناس ثلاثة"، أي أكثرهم فراسةً ونفاذ بصيرة. وذكر منهم:

- عزيز مصر

حين رأى الخير في يوسف عليه السلام.

- ابنة شعيب حين وصفت موسى عليه السلام بالقوة والأمانة.
- أبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان خير خليفة.

وهنا تتجلى حقيقة ذهبية: "المعدن النفيس لا يخفى على اللبيب"، فقد يُجهل قدر الإنسان في بعض الأحيان، كما بيع يوسف بثمن بخس، لكنه سيظل غاليًا في عين من يدرك قيمته. ولذلك، إن وضع الله لك القبول في الأرض، فلن يستطيع أحد انتزاعه.

🔸 إخوة يوسف أرادوا طمسه، لكن الله أنزله في قلب العزيز وامرأته وسكان القصر، فصار مكرمًا بينهم. وكذلك في حياتنا، قد يسعى البعض لتشويه صورتنا، لكن الحقيقة تبقى ثابتة: "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا". فلا ينبغي للمرء أن ينشغل بما يُقال عنه، بل عليه أن يسير في طريقه متوكلًا على الله.

وهذا هو ديدن الأنبياء؛ فحين اتُّهم نوح عليه السلام بالضلال، قال بثقة: "يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، وحين وصف قوم لوط نبيهم بالسفاهة، أجابهم بنفس الثبات: "لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وهكذا كانت مسيرة يوسف عليه السلام، رغم ما لقيه من أذى، فإن الله سخر له من يحبه، ومن يحميه، ومن يعلمه. فالقلوب بيد الرحمن، يقلبها كيف يشاء، ومن توكل على الله، كفاه وأعانه وأيده بنصره.

رُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٌ، وكما قال الله تعالى: "وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا".

هكذا كان حال يوسف عليه السلام، فقد أخرجه الله من جوٍّ مشحونٍ بالحسد والضغينة، حيث لم يكن ليستطيع النمو أو تحقيق ما كُتب له، إلى جوٍّ آخر مليء بالعناية والتكريم. فبدلًا من أن يكون مُطارَدًا من إخوته، أصبح عزيزًا في بيت العزيز، يعيش في نعيم الملوك.

"أَنْتَ تُرِيدُ، أُرِيدُ، وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ".

حين قال الله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ"، لم يكن ذلك التمكين في الأرض بعد، بل كان تمكينًا في القلوب، فقد كسب ودّ العزيز وزوجته، وحُبَّ الناس حوله. ثم بعد سنواتٍ من الابتلاء، جاء التمكين الحقيقي حين قال الله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ".

وهنا درسٌ بليغٌ: التمكين لا يبدأ بالسُلطة، بل يبدأ من القلوب، فإذا تقبّلك الناس وأحبّوك، مهّدوا لك الطريق. أما إن فُرضت عليهم فرضًا، فسيقاومونك حتى تسقط.

وهذا تمامًا ما حدث مع النبي ﷺ، فلم يُمكن له في الأرض حتى كسب قلوب أصحابه، حتى صاروا مستعدين لبذل أرواحهم في سبيل دعوته. وعندها جاء النصر في بدر، وأُحد، والأحزاب.

لكنَّ التمكين يحتاج إلى الصبر، والعمل بالحكمة، والتدرج في إقناع الناس، فلا يمكن فرض الواقع فجأةً بالقوة، وإلّا كان المصير الفشل والعودة إلى الصفر، كما رأينا في محاولاتٍ كثيرةٍ عبر التاريخ لتغيير الواقع دون بناء قلوبٍ تؤمن بالفكرة أولًا.

"وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

تدبير الله عجيب! أُلقي يوسف في الجُب، فالتقطه المارّة، وباعوه بثمنٍ بخس، فأدخله الله بيت العزيز. ثم جاءت مكيدة امرأة العزيز، فأدخله الله السجن، ليُلاقي فيه صاحب الرؤيا، الذي سيذكره يومًا عند الملك. ثم رأى الملك رؤيا، فجاء يوسف ليُفسّرها، فأُعجب به وجعله وزيرًا على خزائن الأرض.

ثم دبّر الله أمر المجاعة، فجاء إخوته يطلبون الطعام، فعرفهم وهم له منكرون. ثم تجددت اللقاءات حتى جمع الله شمله بأبيه وأهله، وأعاد إلى يعقوب بصره، وأنعم على يوسف بالملك والتمكين.

الله يدبر الأمور من حيث لا نعلم، لذا لا تيأس إن وجدت نفسك في ظلمة الجُب، فربما كان ذلك طريقك إلى القصر!

اطلب المستحيل من الله! لا تستصعب شيئًا، ولا تحسب الأمور بحساباتك الضيّقة، بل بحسابات الله، فهو القادر على أن يبدّل الحال في لحظة. كم من شخصٍ كان يظن أمرًا ما مستحيلًا، ثم وجده يتحقق أمامه بفضل الله؟ كم من فقيرٍ أغناه الله، وكم من مريضٍ شفاه، وكم من تائهٍ هداه؟

"وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ".

فاسعَ، وابذل ما تستطيع، ولو كان غرس فسيلة، فإن الله يتمّ لك الطريق. قل: "يا رب، أنت غالبٌ على أمرك، فأعنّي، وافتح لي الأبواب، وبارك لي في سعيي"، واستمر في العمل، ولو بدا لك الطريق مستحيلًا.

فالناس قد تسيء الظن بالله، وتقول: "هذا لا يمكن أن يحدث"، "كيف؟"، "أمرٌ مستبعد!"، لكن قصة يوسف عليه السلام تعلمنا درسًا خالدًا: ما تظنه مستحيلًا، قد يكون في تدبير الله أقرب مما تتخيل.

قصة يوسف.. تتكرر مرات ومرات!

لقد استغرق الأمر أربعين عامًا حتى يصل يوسف إلى لحظة التمكين، فلماذا نستعجل الأمور؟ "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ"، وهذه الحقيقة لا تنطبق فقط على الأفراد، بل على الأمة بأكملها.

🔸 لقد وعد الله بتمكين الأمة، فقال: "وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ". 🔁 هذا الوعد سيتحقق بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، فأمر الله نافذ، ولا يمنعه شيء.

قد يبدو الواقع مظلمًا، وقد يسيطر اليأس حين نرى تكالب الأعداء، لكن الحقيقة تبقى: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ". فما عليك إلا أن تقوم بدورك، ولو كان بسيطًا، فالله لا يعطي فقط بقدر الجهد، بل أيضًا بقدر النية، وقد يخرج من هذه الأمة جيلٌ يبارك الله فيه، فيكون الفتح والنصر على يديه.

لا تخدعك الكثرة

🔴 الحق لا يُقاس بعدد أتباعه، فكم من أكثريةٍ كانت على ضلال؟

قال تعالى: "وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" (الأنعام: ١١٦). فلا تجعل حجتك في فعل شيءٍ خاطئ أن "الناس جميعًا يفعلونه"، ولا تخضع لضغط العادة والتقليد، بل ابحث عن الحق، واتّبعه ولو كنت وحدك.

🔸 يُقال: "أنت الجماعة ولو كنت وحدك"، وكذلك: "اتبع سبلَ الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وسبل الضلال، ولا تغتر بكثرة الهالكين".

🔁 وبهذا تختم هذه الفوائد العظيمة، التي تؤكد لنا أن التمكين لا يأتي إلا بالصبر، والعمل، والثقة في وعد الله.

يوسف عليه السلام.. نموذجٌ للاقتداء قبل النبوة

🔸 نشأ يوسف -عليه السلام- في بيت العزيز، وكان كلما كبر ازداد جمالًا وقوة حتى بلغ أشده، وهي مرحلة الرجولة والنضج، وقد اختلف العلماء في تحديدها، فقال بعضهم ١٨ سنة، وآخرون ٢٥ سنة، ومنهم من رجّح ٤٠ سنة، والله أعلم.

عند بلوغه هذه المرحلة، قال الله تعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ". وهنا اختلف العلماء في تفسير "الحكم والعلم"؛ فقيل إنهما النبوة، وقيل إن الحكم هو الفهم السليم، والعلم هو المعرفة، إذ لا يكفي أن يمتلك الإنسان المعلومات، بل لا بد أن يكون قادرًا على تطبيقها واستنباط العبر منها.

لكن النبوة ليست شيئًا يُكتسب بالاجتهاد، بل هي اصطفاء إلهي، كما قال تعالى: "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ" (الحج: ٧٥). لذا، رأى بعض العلماء أن "الحكم والعلم" هنا يقصد بهما الفهم والحكمة وليس النبوة، وأن هذه النعمة يجازي الله بها المحسنين الذين أخلصوا في عبادتهم.

🔶 يوسف.. لم يُذكر في القصة كنبي

رغم أن يوسف -عليه السلام- صار نبيًّا في مرحلة لاحقة، إلا أن القصة لم تصفه بلفظ "النبي". لماذا؟ لأن كل ما فعله في حياته لم يكن بصفته نبيًّا، بل كان رجلاً صالحًا، تقياً، محسنًا، مؤمنًا، وهذه صفات يمكن لأي شخص أن يتحلى بها.

- عندما قال لامرأة العزيز: "مَعَاذَ اللَّهِ"، لم يقلها لأنه نبي، بل لأنه تقي.
- عندما دعا إلى الله في السجن، لم يكن ذلك لأنه نبي، بل لأنه مؤمن صالح.
- عندما حكم بالعدل وأحسن في القضاء، لم يكن ذلك لأنه نبي، بل لأنه رجل نزيه.
- عندما عفا عن إخوته وأكرمهم، لم يكن ذلك لأنه نبي، بل لأنه كريم القلب.

وهذا يكشف لنا حقيقة جوهرية: لا ينبغي أن نسمع قصص الأنبياء على أنها مجرد أحداث تاريخية بعيدة عنا، بل علينا أن نراها كدروس قابلة للتطبيق في حياتنا. فالأنبياء، رغم مقامهم العظيم، قاموا بأعمال صالحة ليس فقط لأنهم أنبياء، بل لأنهم قدواتٌ بشريةٌ يمكننا أن نقتدي بها.

لذلك، لا تقل: "لكنهم أنبياء، كيف نكون مثلهم؟"، بل تأمل في أفعالهم التي كانت نابعة من الإيمان والإحسان، واسأل نفسك: لماذا لا أكون مثل يوسف في إخلاصي؟ مثل أيوب في صبري؟ مثل موسى في ثباتي؟ فهذا هو جوهر الاقتداء الحقيقي.

يوسف عليه السلام.. نموذج يمكن الاقتداء به

يؤكد الله تعالى في قوله: "أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ" [الأنعام: ٩٠] أن الهداية التي خصَّ بها أنبياءه مفتوحة أمام المؤمنين للاقتداء، فلا يُشترط أن يبلغ الإنسان مقام النبوة ليكون على طريق الهُدى والصلاح.

🔶 حين نرى أن يوسف -عليه السلام- قد أوتي الحكم والعلم بسبب إحسانه، فإن هذا يفتح لنا باب الأمل، فكما أن الإحسان كان مفتاح الفهم والحكمة ليوسف، فإنه

يمكن أن يكون كذلك لكل إنسان يسعى في طريق التقوى. ربما لا نبلغ مرتبة الأنبياء، لكن يمكننا الاقتراب من درجاتهم، سواء في العلم، والفهم، والصبر، والتقوى، والإحسان، فهذه ليست صفات محجوزة للأنبياء فقط، بل متاحة لكل من يسعى إليها.

الله تعالى وصف الأنبياء بصفات يمكن لأي مؤمن أن يتحلى بها، فقال عنهم: "وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ" [الأنبياء: ٧٣]، وكذلك قال عن زكريا -عليه السلام-: "إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ" [الأنبياء: ٩٠]. هذه الصفات ليست بعيدة المنال، بل هي أبواب مفتوحة لكل من أراد السير في طريق الإحسان.

🔶 الأمر الأكثر لفتًا للانتباه في قصة يوسف أنه لم يُذكر فيها بصفة "النبي"، وإنما وُصف بالصلاح والتقوى والإحسان، وهذا يمنحنا دلالة واضحة: ما قام به يوسف من ثبات أمام الفتنة، وصبرٍ على البلاء، وعفوٍ عند المقدرة، لم يكن لأنه نبي، بل لأنه رجل تقي يخشى الله.

حين واجه يوسف فتنة امرأة العزيز، لم يقل "لا" لأنه نبي، بل لأنه رجل تقي محسن، يخاف الله ويستعين به، وهذا ما يجعلنا ندرك أن كل إنسان قادر على الثبات أمام الفتن إذا امتلك التقوى والإحسان. فحين يتذرع البعض بأنهم "بشر" لا يستطيعون مجاهدة الفتن كما فعل يوسف، فإنهم ينسون أن يوسف نفسه لم يكن قد أُوتي النبوة بعد في ذلك الموقف، وإنما قاوم بشريته بالتقوى والخوف من الله.

🔁 النتيجة واضحة: الله لا يضيع أجر المحسنين، فقد قال في أكثر من موضع من سورة يوسف: "إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٩٠]، و"وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ... وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٥٦].

🔁 إذن، كل الصفات التي تميّز بها يوسف في القصة يمكن لكل مؤمن أن يتحلى بها. ليس المطلوب أن نكون أنبياء لنصل إلى الإحسان، لكن يمكننا أن نكون من المحسنين الذين يقتدون بهم ويسيرون على نهجهم، فالباب مفتوح، والطريق واضح، والإرادة تصنع الفارق.

الإحسان.. حيث لا يراك أحد

يقول الله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٢٢]، وهنا نجد قاعدة إلهية عظيمة، وهي أن الإحسان لا يضيع أجره أبدًا، بل هو سبب التمكين والرفعة في الدنيا، والجزاء الأوفى في الآخرة. لكن، أي إحسان هو المقصود؟ إنه الإحسان النابع من القلب، الذي يُبذل خالصًا لله، سواء رآه الناس أو لم يروه.

🔶 في قصة يوسف -عليه السلام- نجد نماذج رائعة للإحسان، فقد كان محسنًا مع الجميع، رغم قسوة ما مر به:

■ إحسانه إلى إخوته: رغم ما فعلوه به، لم يعاملهم بالمثل، بل غفر لهم وعفا عنهم في النهاية.

■ إحسانه إلى صاحب السجن: عندما نسيه وترَكه بضع سنين، ثم عاد يطلب منه تفسير رؤيا الملك، لم يعاتبه ولم يؤنّبه، بل أجابه بكل رحابة صدر، بل وأعطاه فوق ما سأل، حيث لم يفسر الحلم فقط، بل قدّم له الحلول أيضًا.

■ إحسانه في كل موقف: سواء كان في السجن، أو في بيت العزيز، أو في قصر الملك، كان دائم الإحسان، لا ينتظر مقابلًا من أحد، بل كان دافعه الأساسي هو التقوى والإخلاص لله.

🔴 دروس من الإحسان الحقيقي 🔴

١- الإحسان يُعرف في الخلوات، لا في الأضواء

الإحسان ليس مجرد مشاهد مصورة تُبث على الشاشات، حيث نرى أشخاصًا يوزّعون الأموال والهدايا أمام الكاميرات، فهذا ليس مقياسًا حقيقيًا للإحسان. أي شخص يملك المال يمكنه أن يفعل ذلك، بل وربما يحصل على مكاسب أكثر مما ينفقه بسبب الشهرة والدعاية.

لكن الإحسان الحق هو الذي يكون حين لا يراك أحد، حين يكون بينك وبين الله فقط، عندما تُقدّم الخير خالصًا دون أن يعلم به أحد سواك.

٢- لا تحكم على أحد حتى تعرف حاله في السر

المجتمع أصبح متأثرًا بالمظاهر لدرجة أننا نحكم على الناس من خلال ما نراه فقط. فإن لم نرَ أعمالهم، ظننا أنهم لا يفعلون شيئًا! وهذا خطأ كبير.

■ هناك أناس لا يُظهرون أعمالهم الصالحة، لكنهم يفعلون من الخير أضعاف ما نراه.

■ كم من أشخاص يَظهرون كأناس عاديين، لكنهم يحملون في الخفاء قلوبًا مليئة بالإحسان، يساندون الناس سرًا، ويساعدون المحتاجين دون أن يعلم أحد.

■ لا ينبغي أن نحكم على أحد بأنه غير محسن لمجرد أنه لا يُظهر إحسانه، فالله وحده يعلم السرائر.

٣- الناس لا ترضى أبدًا.. فاعمل لله

إذا أظهر الإنسان إحسانه، قيل عنه: "يبحث عن الشهرة والرياء".

وإذا أخفاه، قيل: "لم نرَ منه أي خير، هو لا يفعل شيئًا!".

هذا يذكرنا بقصة جحا وابنه والحمار، حيث لم ترضَ الناس عن أي تصرف قام به. وهكذا هو حال البشر، لن يرضوا عنك مهما فعلت، لذا اجعل عملك لله، ولا تلتفت إلى كلام الناس.

٤- الإحسان ليس فقط في المال

كثير من الناس يظن أن الإحسان يقتصر على التبرعات والمساعدات المادية فقط، لكنه في الحقيقة أوسع من ذلك بكثير. الإحسان يكون في كل جانب من حياتك:

■ الإحسان في ضبط النفس: عندما تواجه الفتن وتقول "لا"، كما فعل يوسف -عليه السلام- مع امرأة العزيز.

■ الإحسان في أداء العمل: أن تؤدي وظيفتك أو مسؤولياتك بأمانة وإتقان، حتى لو لم يكن هناك من يراقبك.

■ الإحسان في الأخلاق: أن تلتزم الصدق، أن تحفظ الأمانة، أن تعفو عن من أساء إليك.

■ الإحسان في العبادة: أن تصلي، وتصوم، وتعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

■ الإحسان في العلاقات: أن تكون حسن المعاملة مع أهلك وأصدقائك والناس من حولك، حتى وإن لم يكونوا مثاليين معك.

🔴 الإحسان.. رسالة عملية للجميع

الإحسان ليس شيئًا خارقًا لا يقدر عليه إلا الأنبياء والصالحون، بل هو متاح للجميع. الله سبحانه وتعالى ربط الإحسان بالجزاء العظيم في الدنيا والآخرة، ولم يجعله مقتصرًا على أحد.

🔶 يوسف -عليه السلام- لم يكن نبيًا حين واجه فتنة امرأة العزيز، بل كان رجلًا تقيًا يخاف الله، فرفض المعصية. وهذا يعني أن أي شخص يمكنه أن يفعل مثله إذا تحلى بالتقوى والصبر.

🔁 بل إن معظم الصفات التي وصف الله بها الأنبياء في القرآن، مثل الصبر، والإخلاص، والمسارعة في الخيرات، كلها صفات يمكن لأي شخص أن يتحلى بها، وليس الأنبياء وحدهم.

🔴 الإحسان الحقيقي هو ذاك الذي يكون بينك وبين الله، بعيدًا عن أعين الناس، لا تسعى به إلى مدح، ولا تنتظر به جزاءً دنيويًا.

هو أن تكون تقيًا في الخفاء كما أنت في العلن، أن تحسن دون أن تسجّل ذلك في فيديو، أن تعبد الله كأنك تراه، أن يكون لديك ضمير حتى في أصغر التفاصيل.

🔶 وفي النهاية، الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين، بل يجعل لهم جزاءً في الدنيا، ونعيمًا خالدًا في الآخرة.

"وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ"

🔴 الإحسان.. أبواب لا تُفتح إلا للمحسنين

الإحسان ليس مجرد أفعال ظاهرة، بل هو حالة قلبية يعيشها الإنسان في كل لحظة، بعيدًا عن الأضواء، حيث لا يراه أحد سوى الله. كثير من الناس لا نعرف عنهم شيئًا،

حتى يأتي يوم نكتشف فيه أنهم كانوا محسنين في الخفاء، يفعلون من الخير أضعاف ما يظهره غيرهم.

■ الإحسان ليس فقط أن تعطي المال أو تساعد المحتاجين علنًا، بل هو أن تمتنع عن الخطأ حين تكون وحيدًا.

■ الإحسان هو أن تتاح لك فرصة المعصية، ثم تختار الطاعة.

■ الإحسان أن تعمل بضمير وإتقان في كل ما تؤديه، ولو لم يكن هناك من يراقبك.

العلم لا يُؤتى بالمعلومات فقط، بل يُؤتى بالإحسان

هناك مساحة من الفهم لا تُكتسب بمجرد القراءة أو حضور الدروس، بل يمنحها الله لمن كان بينه وبينه علاقة خاصة من الإحسان والتقوى.

■ لا يكفي أن تجتهد في طلب العلم فقط، بل اجتهد في العبادة، في تهذيب قلبك، في الإحسان إلى الناس، وفي علاقتك بالله.

■ هناك أبواب من العلم والفهم لا تُفتح إلا للمحسنين، ولا تُدرك إلا لمن سلك طريق التقوى والإخلاص.

◆ لا تتعجل قطف الثمار

في قوله تعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ" نجد درسًا عظيمًا:

■ لكل شيء وقته، فلا تتعجل النتائج قبل أن تكتمل أسبابها.

■ لا تتصدر قبل أن تكتمل خبرتك وتنضج تجربتك، فالتعجل في الظهور يقترن بكثرة الأخطاء.

■ في أي مشروع أو هدف تسعى إليه، لا تستعجل الثمرة قبل أن يكتمل نضجك الفكري والعملي.

◆ خذ العلم من الأكابر

من حكم الحياة أن الخبرة لا تُشترى، بل تُكتسب مع الزمن. ولهذا، من أراد العلم النافع، فليأخذه عن من بلغوا أشدهم، ممن تجاوزوا الأربعين، حيث اجتمع لديهم العلم مع التجربة والرؤية العميقة.

🔶 جمال يوسف عليه السلام.. ليس أعظم ما مُدح به

رغم أن يوسف -عليه السلام- كان آية في الجمال، إلا أن الله تعالى لم يثنِ عليه بسبب ذلك، بل مدحه بإيمانه وإحسانه وصبره وتقواه. وكأن الرسالة هنا:

"الجمال الحقيقي ليس في الملامح، بل في القلب، في الإحسان، في العمل الصالح، في العلاقة بالله."

🔶 وأخيرًا: الإحسان طريق إلى القرب من الله، إلى الفهم العميق، إلى النجاح الحقيقي. فكن محسنًا، ليس أمام الناس، بل حيث لا يراك إلا الله.

لا مبرر للوقوع في الفتنة.. القرار بيدك

كثيرًا ما نسمع من يبرر وقوعه في المعصية بحجة الفتن المنتشرة، فيقول:

"الظروف صعبة!"

"الدنيا مليئة بالمغريات!"

"وسائل التواصل تُحيط بنا بالفتن!"

🔁 لكن هذه ليست أعذارًا، لأن يوسف -عليه السلام- اجتمعت عليه كل الفتن الممكنة، ورغم ذلك قال: "مَعَاذَ ٱللَّهِ". وهذا هو الاختبار الحقيقي: ليس في كثرة الفتن، بل في مدى صمودك أمامها.

🔴 لماذا كانت فتنة امرأة العزيز شديدة؟

🔁 لم يكن الأمر مجرد إغراء عابر، بل كانت كل الظروف مهيأة ليسقط يوسف -عليه السلام- في المعصية، ومنها:

١- جماله الفائق: كان شديد الجمال، وهذا سبب كافٍ لافتتان امرأة العزيز به.

٢- عزوبيته: لم يكن متزوجًا، وبالتالي لديه شهوة، فالأنبياء بشرٌ لهم رغبات.

٣- وضعه الضعيف: كان في بيتها، تحت سلطانها، لا يملك رفض أوامرها بسهولة.

٤- الخلوة التامة: أغلقت الأبواب، مما جعله في درجة كبيرة من الأمان الظاهري لارتكاب المعصية.

٥- غربته عن أهله: بعيد عن وطنه، مما قد يُشعره أن لا أحد يراقبه.

٦- سلطتها القوية: كانت امرأة متنفذة، تملك فرض ما تريد.

٧- ضعف زوجها: لم يكن حازمًا، بل كان متساهلًا إلى حد الدياثة.

٨- جمالها الفائق: لم تكن امرأة عادية، بل كانت على قدر كبير من الجمال.

٩- هي من طلبت العلاقة: فالإغراء جاء منها، وليس منه.

١٠ - المجتمع يُؤيد الفاحشة: فالنساء في القصر كنّ يشجعنها، وشاركنها لاحقًا في محاولة إغوائه.

↩ كل هذه العوامل اجتمعت، ومع ذلك قال يوسف -عليه السلام-: "مَعَاذَ اللَّهِ"، ونجا منها بطهارته وإيمانه.

↩ إذن، لا يوجد مبرر للوقوع في الفتنة!

بعد أن استعرضنا هذه العشرة أسباب، يتضح أنه لا أحد يمكنه تبرير معصيته بالظروف. لا يوجد شخص اجتمعت عليه كل هذه المغريات كما اجتمعت على يوسف -عليه السلام-، ومع ذلك صمد وثبت.

من الذي يفتتن بمن؟

من المفترض أن يفتتن الرجل بالمرأة أو العكس، لكن هناك قاعدة ذهبية تقول:

"من يفتح الباب هو من يقع في الفتنة، ومن يغلقه هو من ينجو."

هناك نوعان من الشباب:

١- شاب يُغلق الأبواب:

- وسيم، أنيق، من عائلة كريمة، لكنه تقي، لا يُعطي الفتيات اهتمامًا.
- لا يُراقبهن، لا يتابع حساباتهن، لا يُشاهد محتوى غير لائق.

■ لا يُسهل الحديث معهن.

⇦ في هذه الحالة، الفتيات هنّ من يفتتن به، وليس العكس!

٢- شاب يفتح الأبواب:

■ يُراقب الفتيات، يُتابع حساباتهن، يشاهد الأفلام والمسلسلات المثيرة.

■ يتأثر بالمحتوى غير الأخلاقي، يُسقط ما يراه في الإعلام على واقعه.

■ يبحث عن أي علاقة ليملأ الفراغ الذي يشعر به.

⇦ في هذه الحالة، حتى لو لم تسعَ إليه الفتيات، سيشعر أن "الدنيا بايظة"، وأن "كل البنات سيئات"، فقط لأنه فتح الباب بنفسه!

● القاعدة واضحة:

■ إن فتحت الباب، ستقع في الفتنة.

■ إن أغلقته، ستنجو مهما كانت المغريات.

● في قصة يوسف -عليه السلام-، من الذي فتح الباب؟

لم يكن يوسف -عليه السلام- هو من بدأ الفتنة، بل امرأة العزيز:

■ كانت تراقبه باستمرار.

■ تحاول التحدث إليه.

■ تفكر فيه كثيرًا.

■ تأثرت بصديقات غير صالحات (النسوة اللاتي كنّ يُبررن الفاحشة).

■ كانت مجالسها تدور حول الرجال والعلاقات والخيانات.

أما يوسف -عليه السلام-، فكان العكس تمامًا:

■ لم يكن يُراقب النساء.

- لم يجلس مع من يتحدثون عن الفواحش.
- لم يكن يُتابع أخبار النساء في القصر.
- لم يكن يُعطي امرأة العزيز أي اهتمام زائد.
- لم يكن يتساهل في الحديث معها.

لذلك، لم يكن متأثرًا بها، ولم يكن لديه ميل نحوها، لأنه أغلق الباب تمامًا!

كيف نقلت امرأة العزيز الفتنة لغيرها؟

عندما استغربت النساء كيف تحب فتاها، لم تجادل بالكلام، بل قالت: "ادْخُلْ عَلَيْهِنَّ".

فلما رأينه، تغير كل شيء!

- وقعن في الفتنة كما وقعت هي.
- أحببنه كما أحبته هي.
- بدأن يراودنه كما راودته هي.
- نسيْنَ اعتراضاتهن السابقة على الفروقات الاجتماعية والمكانة.

الفتنة لا تبدأ بالكلام عنها، بل عندما يُفتح الباب لرؤيتها أو التفاعل معها.

لا تفتح الباب على نفسك!

قال النبي ﷺ: "لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه."

أي إن بدأت السير في طريق الفتنة، ستجد نفسك غارقًا فيها.

- لا تفتح باب النظر: تجنب مشاهدة ما يُثير الشهوة.
- لا تفتح باب متابعة المحتوى غير الأخلاقي: لا تُتابع ما يزرع الفتنة في قلبك.
- لا تفتح باب العلاقات المحرمة: لا تُبرر لنفسك التجربة باسم الصداقة.

■ لا تفتح باب التواجد مع أصدقاء يُثيرون الفتن في قلبك: الصحبة تؤثر على القلب والعقل.

● كيف تؤثر البيئة عليك؟

■ إن كنت تجلس مع أصدقاء يتحدثون عن العلاقات، أو يشاهدون محتوى غير لائق، أو يُشجعون على الحرام، ستشعر أنك ناقص، وستبحث عن أي علاقة تُشبع هذا النقص.

■ أما إن كنت تجلس مع شباب يحفظون القرآن، يعملون في الدعوة، يُركزون على أهدافهم في الحياة، فستشعر أنك بحاجة إلى أن تصبح مثلهم، وسترى أنك أنت المقصر.

القرار بيدك: أغلق الباب، تنجو... افتحه، تسقط.

● الدرس العظيم من قصة يوسف عليه السلام: لا تفتح الباب للفتنة!

يخبرنا الله في كتابه العزيز:

"وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ" [يوسف: ٢٣].

↩ امرأة العزيز فتحت الباب للفتنة، فراودت يوسف عليه السلام، أما يوسف، فكان موقفه مختلفًا تمامًا؛ أغلق الباب في وجهها، فلم ينجذب، ولم يسقط.

● وهنا يظهر لنا درس عظيم: المشكلة ليست في كثرة الفتن، بل فيمن يختار أن يفتح الأبواب ومن يختار أن يُغلقها.

الفتنة ليست مجرد كلام، بل فتح أبواب!

المسلسلات والأفلام اليوم تُرسّخ مفاهيم مغلوطة عن الحياة، تضع العلاقات المحرمة في قلب المشاهد، وتُزين الخيانة والزنا والجنس والإيحاءات الفاضحة، ثم يتساءلون: لماذا المجتمع فاسد؟

هم أنفسهم الذين يفسدونه بهذه الأفكار، ثم يلقون اللوم على غيرهم!

يقولون لنا: أنتم لا تتحدثون إلا عن النساء!

ونحن نقول لهم: أنتم من صنع هذه الفتنة بأيديكم، ثم تتهمون غيركم!

لكن الحق واضح: من أغلق الباب، نجا. ومن فتحه، وقع في الفتنة.

🔴 كيف نجا يوسف عليه السلام من الفتنة؟

🔁 يوسف عليه السلام لم يكن مجرد شاب صادق العفة فحسب، بل اتبع خمس خطوات أنقذته من هذا الابتلاء العظيم، وهذه الخطوات هي مفتاح النجاة لكل من يريد أن يحفظ نفسه:

١- اللجوء إلى الله والاستعانة به

أول ما فعله يوسف حين تعرض للفتنة هو أنه قال: "مَعَاذَ اللَّهِ"، أي أنه استجار بالله، استعاذ به، ولجأ إليه ليحميه من السقوط.

🔁 وهنا نتعلم أن البداية الصحيحة لأي إنسان يريد النجاة من الفتن هي أن يلجأ إلى الله أولًا، فبدون التوفيق الإلهي، لا يمكن للإنسان أن ينجو.

٢- تذكر حقوق المخلوقين

لم ينظر يوسف إلى هذه الفتنة فقط من زاوية الحلال والحرام، بل تذكر حقوق الناس، فقال: "إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ".

أي أن سيده العزيز أكرمه وربّاه، فكيف يخونه في عرضه؟!

🔴 وهنا درس آخر:

كل معصية فيها تعدٍ على حق أحد، فالشاب الذي ينظر إلى الحرام يعتدي على عرض أخيه، ومن يخون، يخون أمانة، ومن يظلم، يُضيّع حقوق الناس.

٣- تذكر عاقبة الذنب

قال يوسف عليه السلام: "إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ"، أي أن الذين يسيرون في طريق المعصية لن يصلوا إلى خير أبدا، بل إلى الندم والخسارة في الدنيا والآخرة.

الشيطان يُزيّن الحرام، ويُظهره كلذة مؤقتة، لكنه لا يُريك الجانب الآخر من القصة: الندم، الخوف، الفضيحة، العقوبة، والابتعاد عن الله.

٤- العمل الصالح السابق (سوابق الإحسان)

يقول الله عن يوسف:

"كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ" [يوسف: ٢٤].

وهذا هو السر العظيم: الإحسان السابق هو الذي أنقذ يوسف من هذه الفتنة!

لقد كان قريبًا من الله منذ صغره، فحفظه الله في هذا الموقف العصيب.

قال النبي ﷺ: "تعرّف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة."

فمن كان قريبًا من الله في أوقاته العادية، سيحفظه الله عندما تأتي الفتن.

٥- الفرار من المعصية والأخذ بالأسباب

لم يكتفِ يوسف بكل ما سبق، بل فرّ هاربًا من مكان الفتنة!

قال الله تعالى:

"وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ" [يوسف: ٢٥].

↩️ وهذا يعني أن الإنسان يجب أن يهرب من المعصية بأسرع ما يمكن، فلا يُجرب نفسه، ولا يُراوغ، بل يبتعد تمامًا عن بيئة الفتنة.

🔴 الدرس الأعظم: لا تفتح الباب، وستبقى نقيًا!

- ■ لا تفتح باب النظر الحرام.
- ■ لا تفتح باب متابعة المحتوى الفاسد.
- ■ لا تفتح باب العلاقات غير الشرعية.
- ■ لا تفتح باب الجلوس مع أصدقاء السوء.

القرار بيدك:

- ■ إن أغلقت الباب، لن تؤثر عليك الفتنة مهما كانت منتشرة.
- ■ وإن فتحته، فلن تنجو حتى لو كنت تعتقد أنك قوي.

يوسف عليه السلام واجه أقوى فتنة ممكنة، لكنه كان ذكيًا: أغلق الباب في وجهها، فنجا.

وهذا هو الحل الوحيد اليوم: لا تفتح الباب.

النجاة من الفتنة تبدأ بكلمة واحدة: "معاذ الله"!

🔴 يأتي البعض شاكيًا:

"يا شيخ، الفتن تحاصرني، البنات في كل مكان، المواقع الإباحية بضغطة زر، العادة السرية، العلاقات المحرمة، لا أستطيع التوقف!"

فيرد عليه الشيخ:

"أول خطوة: استعن بالله، ادعُ، صلِّ، واطلب من الله العون."

فيرد مستعجلًا:

"يا شيخ، وبعد ذلك؟ أعطني شيئًا عمليًا!"

هذا الشخص لن يخرج من المعصية، لأنه لم يبدأ من البداية الصحيحة: اللجوء إلى الله.

"والله المستعان" ليست مجرد عبارة، بل سلاح يغير العالم!

لماذا تريد القفز إلى الحلول قبل أن تقول: "يا رب، أعني"؟!

🔁 حتى امرأة العزيز، التي كانت مصدر الفتنة، اعترفت بسر قوة يوسف عليه السلام:

"وَلَقَدْ رَٰوَدْتُهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ" [يوسف: ٣٢]

هي نفسها أدركت أنه استعصم بالله فلم تستطع التأثير عليه!

وعندما اجتمعت عليه نسوة المدينة، لم يبحث عن حلول بشرية، بل لجأ إلى الله مجددًا:

"وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ" [يوسف: ٣٣].

أي: "يا رب، إن لم تحمني، سأقع، فأنا بشر ضعيف، لكن بك وحدك أنجو!"

اللجوء إلى الله منهج حياة

■ **إن كنت في جامعة تحيط بك الفتن، فقولي: "يا رب، اصرف عني كيدهم، فأنا ضعيفة بدونك."**

■ **إن كنتَ أمام شاشة وموقع إباحي أمامك، فقل: "يا رب، اصرف عني كيد هذه المواقع والشهوات."**

اللجوء إلى الله ليس فكرة نظرية، بل هو أول وأهم خطوة في طريق النجاة.

مشكلتنا الأساسية أننا لا نحسن أن نستعصم!

■ **نحن ماديون، نبحث عن الحلول الملموسة، لكننا ننسى أن القوة الحقيقية بيد الله.**

■ **نريد خطة عملية، لكننا نهمل أهم نقطة: "يا رب، أعني!"**

درس النبي ﷺ للشاب الذي أراد الزنا

جاء شاب إلى النبي ﷺ وقال: "ائذن لي في الزنا!"

لم يكن الشاب جاحدًا، لكنه كان يرى أن الأمر خارج عن إرادته، كما تصوّر لنا الأفلام والمسلسلات أن الخطيئة حتمية:

■ **الفتاة التي أصبحت راقصة لأنها "لم تجد خيارًا آخر"!**

■ **الشاب الذي انحرف لأن "المجتمع أجبره"!**

■ **البلطجي الذي أصبح كذلك لأنه "مظلوم"!**

لكن النبي ﷺ رفض هذا التبرير تمامًا!

لم يمنحه استثناءً، بل قال له:

"أترضاه لأمك؟"

قال: "لا!"

"لأختك؟ لعمتك؟ لخالتك؟"

قال: "لا!"

فقال النبي ﷺ:

"وكذلك الناس، لا يرضونه لأمهاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لعماتهم، ولا لخالاتهم."

لا تكن متناقضًا!

- لماذا تحمي أختك من الذئاب، ثم تصبح أنت ذئبًا لبنات الناس؟!
- لماذا تحرم العلاقات على قريباتك، ثم تبيحها لنفسك مع أخوات الآخرين؟!
- الرجل الذي يمنع أخته من الحرام لكنه يلهو مع البنات ليس رجلًا!

ثم فعل النبي ﷺ شيئًا عظيمًا، وضع يده على صدر الشاب وقال:

"اللهم كفّر ذنبه، وحصّن فرجه، وطهّر قلبه."

فقال الصحابة: "فما عاد هذا الفتى يلتفت إلى شيء!"

دعوة واحدة فقط، غيرت حياته!

تمامًا كما فعل يوسف عليه السلام عندما قال:

"مَعَاذَ اللَّهِ"

- هل تستطيع حل مشكلتك بدعوة صادقة؟

قد تقول: "أنا أدعو، لكن لا أشعر أن الله يستجيب لي!"

الإجابة؟ اصبر، فالإجابة تأتي بأحد ثلاثة أسباب:

١- وجود مانع من موانع الإجابة (مثل أكل الحرام).

٢- أن الله يريد أن يسمع دعاءك أكثر، فيجعلك تستمر بالدعاء ليقوي علاقتك به.

٣- لكي تشعر بقيمة النعمة عندما تُعطى لك.

لو استُجيبت لك من أول مرة، لما عرفت قيمتها!

لذلك: ادعُ، وكن صادقًا، ولا تستعجل.

الطريق الصعب يجعلك تتمسك بالنتيجة أكثر.

ربما يؤخر الله إجابة دعائك، لأنه يريد أن يمنحك شيئًا أعظم مما طلبت.

اللجوء إلى الله.. طريق النجاة من الفتن

حينما يجد الإنسان نفسه غارقًا في الذنوب، مستسلِمًا لشهواته، تراه يبحث عن حلول عملية للخلاص، متجاهلًا أول وأهم خطوة: اللجوء إلى الله. يظن البعض أن الدعاء والاستعانة بالله مجرد كلمات، لكن الحقيقة أن "والله المستعان" ليست مجرد عبارة، بل سلاحٌ يغيّر حياة الإنسان.

يوسف عليه السلام لم ينجُ من فتنة امرأة العزيز بقوته أو حكمته فقط، بل لأنه استعصم بالله. وعندما اشتدت عليه الفتنة أكثر، لم يعتمد على نفسه، بل قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي أنه أدرك أن النجاة بيد الله وحده.

🔴 لماذا نبحث عن الحلول قبل أن نقول "يا رب"؟

🔁 البعض عند وقوعه في المعصية يسأل: "ما الحل العملي؟"، لكنه لا يملك صدق الالتجاء إلى الله. فلو قالها بصدق، لفتح الله له أبواب النجاة. لا يكفي أن تقول "يا رب" بلسانك، بل يجب أن يكون قلبك حاضرًا، ممتلئًا بالإخلاص.

تأخير الإجابة.. حكمة ورحمة

قد يدعو الإنسان كثيرًا، لكنه لا يرى إجابة فورية، فيظن أن الله لا يستجيب له. لكنه لا يعلم أن الله يقوده إلى شيء أعظم. ربما تبدأ بالدعاء، فتكتشف أن مشكلتك أنك لا تصلي الفجر، فتبدأ في الصلاة. ثم تشعر أنك بحاجة إلى الصيام، فتبدأ في صيام النوافل. ثم تتصدق، ثم تحسن من حجابك أو عبادتك، وفجأة تجد نفسك إنسانًا آخر! عندها تفهم لماذا تأخرت الإجابة.. لأنها كانت تُهذّبك، وتعيدك إلى الله بأفضل حال.

<u>دروس مستفادة من قصة يوسف عليه السلام:</u>

١- الأبواب المغلقة لا تمنع الدعاء

حينما أُغلقت الأبواب على يوسف عليه السلام، لم تُغلق أبواب السماء، بل لجأ إلى الله فنجاه. فلا تيأس، مهما ضاقت بك الأمور.

٢- كن حاسمًا أمام الفتنة

حينما دعته امرأة العزيز، لم يتردد أو يتهاون، بل قال "معاذ الله" فورًا. بعض الناس يترك الباب مواربًا للمعصية، يظن أنه قادر على التراجع متى شاء، لكنه لا يعلم أن التسويف طريق الهلاك.

٣- تذكَّر حقوق الخلق

يوسف عليه السلام رفض المعصية ليس فقط خوفًا من الله، بل وفاءً لمن أحسن إليه، فقال: "إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ". المعصية ليست شأنًا فرديًا، فهي اعتداء على حقوق الآخرين. الفتاة التي يعبث بها الشاب لها أب وأخ وأهل، فهل يرضى ذلك لأخته؟!

٤- المعصية تُفقِدك البركة والتوفيق

الذنوب ليست مجرد لحظات متعة، بل لها عواقب مدمرة. كم من شخص شعر بندم قاتل بعد المعصية؟ كم من إنسان فقد لذة الطاعة بسبب ذنب صغير؟ المعصية تسرق منك الخشوع، تقسي قلبك، تجعلك تشعر بالضياع والتعاسة.

٥- الستر ليس دائمًا.. لا تأمن الفضيحة

امرأة العزيز لم تتوقع أن يُفضح أمرها، لكنه انكشف بعد لحظات. والستر قد ينتهي في أي لحظة. قد يكون الله يسترك الآن، لكن هل تضمن أن يسترك غدًا؟ وإن لم تُفضح في الدنيا، فماذا عن يوم القيامة، حينما يُكشف المستور أمام الخلق جميعًا؟

🚨 الخلاصة:

لا تبحث عن الحلول العملية قبل أن تبدأ بالحل الحقيقي: اللجوء إلى الله بصدق. لا تستهن بالدعاء، فهو الذي أنقذ يوسف، وهو الذي غيّر حال الشاب الذي أراد الزنا عندما دعا له النبي ﷺ. لا تستهين بالمعصية، فهي تقودك إلى غيرها، وتسرق منك الخير شيئًا فشيئًا. وإن كنت في طريق المعصية، فاعلم أن العودة إلى الله ممكنة، لكنه ينتظر منك خطوة صادقة.

قل: "يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا".. وسترى كيف يفتح الله لك أبواب النجاة.

خُماسية النجاة من الفتنة في قصة يوسف عليه السلام

حين تبتلى النفس بمحنة الشهوات، فإن النجاة لا تكون إلا بالاستعانة بالله، والحسم، وإدراك عواقب الذنب، واليقين في عدل الله ورحمته. وتظهر لنا قصة يوسف عليه السلام نموذجًا متكاملًا في التعامل مع الفتنة، من خلال خمس مراحل متتابعة تُجسد طريق النجاة.

١- الالتجاء إلى الله: "مَعَاذَ اللَّهِ"

عندما واجه يوسف عليه السلام إغراء امرأة العزيز، لم يساوم أو يترك بابًا مواربًا، بل لجأ مباشرة إلى الله: "مَعَاذَ اللَّهِ". إن اللجوء إلى الله هو الحصن الأول ضد الفتن، فلا مجاهدة للنفس إلا بإعانة الله.

٢- التذكير بالإحسان وحقوق الآخرين: "إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ"

يوسف لم ينسَ فضل سيده، فاستشعر الخيانة في أن يمد يده إلى ما حرّمه الله، إدراكًا لحقوق الناس. وهذا درس لكل من يفكر في معصية، أن يتذكر حق الله وحق الخلق عليه.

٣- استحضار العاقبة: "إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"

الذنب ليس مجرد لذة عابرة، بل يتبعها ندم، وضيق في القلب، وفقدان للخشوع في العبادة، وانعدام التوفيق في الحياة. المعاصي تسحب بعضها، فمن وقع في علاقة محرمة اليوم، قد يجد نفسه في الزنا غدًا، ومن أدمن النظر إلى الحرام قد يفقد القدرة على الاستمتاع بالحلال. فكيف يُفلح الظالم لنفسه ولغيره؟

٤- الإخلاص: "إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ"

الإخلاص هو مفتاح النجاة، فحين يرى الله صدق العبد في طلب العفاف، ييسر له سبيل الطهر، كما فعل مع يوسف.

٥- الفرار من مواضع الفتنة: "وَاسْتَبَقَا الْبَابَ"

لم يكتفِ يوسف عليه السلام بالرفض القلبي أو اللفظي، بل بادر بالهروب من مصدر الفتنة، لأن البقاء في مواضع الشبهات يؤدي إلى السقوط في الحرام.

الفرق بين "همّ" يوسف وهمّ امرأة العزيز

"همُّ" يوسف كان خاطرة طبيعية خطرت له، لكنه دفعها بالإيمان، فكان مأجورًا عليها، أما "همُّها" فكان مع العزم والتخطيط والإرادة، فكانت آثمة. وهذا يوضّح أن الخواطر العارضة لا يحاسب عليها الإنسان، لكن ما إن تتحول إلى عزم وإرادة، فإنه يُؤاخذ عليها.

برهان يوسف عليه السلام

رأى يوسف عليه السلام برهانًا من الله ثبّته على الطاعة، ولم يُذكر تحديدًا في القرآن أو السنة، لكنه كان كافيًا لصرفه عن الفتنة، وهكذا من صدق مع الله، أراه الله من آياته ما يعينه على الثبات.

أى أن

إن معركة العفاف ليست سهلة، لكنها طريق إلى السعادة الحقيقية، فكم من شخص استباح الحرام، فلم يزده إلا ضيقًا ونقصًا! وكم من عفيفٍ صبر، فرفع الله قدره وأعانه! فلنحذر أن نقارن حياتنا بما تعرضه الشاشات، فالوهم لن يغني عن الواقع، والسعادة الحقيقية في الطهر والرضا بقدر الله.

🔴 نسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين، وأن يصرف عنّا الفتن ما ظهر منها وما بطن

المحاضرة الخامسة
كيد النساء

المقدمة

" لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۚ " من سورة يوسف، والتي تتحدث عن البرهان الذي رآه النبي يوسف عليه السلام، والذي حال بينه وبين الوقوع في المعصية. وأُشير إلى أنه لا يوجد نص صريح في القرآن أو السنة يحدد ماهية هذا البرهان، وكل ما ورد في ذلك إنما هو من الإسرائيليات، التي أباح لنا النبي ﷺ أن نرويها دون تصديق أو تكذيب، طالما أنها ليست مخالفة لنصوص الوحي.

الآراء حول البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام:

ذُكرت بعض الروايات الإسرائيلية التي تحاول تفسير ماهية البرهان، ومنها:

١- أنه رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام على الجدار وهو يعض أنامله من الندم، ففهم أنه سيندم إن أقدم على المعصية.

٢- أنه رأى جبريل عليه السلام متجسدًا في صورة والده يعقوب.

٣- أنه رأى آيات مكتوبة على الجدار تنهى عن الفحشاء.

٤- أن البرهان كان نورًا من الله ألقاه في قلبه فثبّته.

لكن في النهاية، يظل الأمر في علم الله، ولا نملك دليلاً قاطعًا على أي من هذه الروايات، إلا أن الثابت هو أن يوسف عليه السلام تلقى برهانًا من الله صرفه عن المعصية وساعده على الثبات على الطاعة.

المعنى الحقيقي لصرف السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام:

- قال الله تعالى: "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين"، أي أن الله بهذه الطريقة صرف عنه مقدمات المعصية والمعصية ذاتها.
- السوء: هو كل ما يسوء الإنسان، ويفسر في هذا الموضع بأنه مقدمات الزنا، أي أي خطوة أو فعل يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة.

■ الفحشاء: هي المعصية الكبرى، أي الزنا نفسه.

وهذا يدل على أن الله تعالى حفظ يوسف عليه السلام بالكامل من المعصية، فلا وقع في الفاحشة ولا حتى في مقدماتها.

◆ ردًّا على بعض الروايات الإسرائيلية المحرفة

التي تزعم أن يوسف عليه السلام قام ببعض الأفعال ثم امتنع في اللحظة الأخيرة، فهذه روايات مرفوضة تمامًا لأن القرآن الكريم نصَّ على أن الله صرف عنه السوء والفحشاء تمامًا.

◆ العبرة من موقف يوسف عليه السلام: خماسية النجاة من الفتن

من خلال دراسة موقف يوسف عليه السلام، تم استخلاص خمسة أسباب رئيسية ساعدته على النجاة من هذه الفتنة، والتي يمكن أن تكون منهجًا عمليًا لكل إنسان يريد الثبات على الطاعة:

١ـ اللجوء إلى الله تعالى فورًا:

■ أول رد فعل ليوسف عليه السلام عند تعرضه للفتنة كان الاستعاذة بالله، حيث قال: "معاذ الله"، أي أنه طلب الحماية من الله على الفور.

■ وهذا يعلّمنا أنه عند مواجهة أي فتنة، يجب أن يكون أول رد فعل هو التوجه إلى الله، لا التفكير في المقاومة بجهد شخصي فقط.

٢ـ استحضار حقوق المخلوقين:

■ قال يوسف عليه السلام:

"ﷺإِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﷺ"، والمقصود هنا إمّا الله سبحانه وتعالى أو سيده العزيز الذي ربّاه وأكرمه.

■ أي أنه رفض المعصية لأنه استشعر حق الآخرين عليه، وخيانة الأمانة التي أعطاها له سيده، مما يعلّمنا أن استشعار الظلم الذي قد يصيب الآخرين بسبب ذنوبنا يساعدنا على تجنب المعاصي.

٣ـ تذكر عاقبة الذنب:

■ قال: "إنه لا يفلح الظالمون"، مما يدل على أن الذنوب عواقبها وخيمة دائمًا، وتجلب الفشل والخسارة.

■ ومن أعظم وسائل النجاة من المعصية أن يتذكر الإنسان العواقب السيئة للذنب، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

٤- سوابق الخير والاستعداد المسبق للفتن:

■ الله تعالى وصف يوسف عليه السلام بأنه "من عبادنا المخلصين"، وهذا يدل على أن إخلاصه السابق وأعماله الصالحة كانت سببًا في نجاته عند الشدة.

■ وهذا يؤكد مبدأ مهمًا: التقوى والاستقامة في أوقات الرخاء، تُعين الإنسان على مواجهة الفتن عند وقوعها، مصداقًا لقول النبي ﷺ: "تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة".

■ كما أن الإكثار من النوافل والعبادات يجعل الإنسان قريبًا من الله، مما يُنزل عليه معونة خاصة عند وقوعه في اختبار.

٥- الفرار من بيئة المعصية:

■ في نهاية الموقف، لجأ يوسف عليه السلام إلى الفرار والهروب من مكان الفتنة.

■ وهذا يعلّمنا أن أحد أفضل طرق مقاومة المعصية هو تجنب أماكنها والابتعاد عن كل ما يقود إليها.

■ "ونفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل"، لذا يجب أن يكون للإنسان بدائل صالحة تشغله عن الفتن.

◆ دروس وعبر من القصة:

١- من صدق مع الله في ترك المعصية، أعانه الله ببرهان أو وسيلة تصرفه عنها.

٢- المعصية ليست فقط الفعل نفسه، بل أيضًا مقدماتها، وعلى المؤمن الحذر من الوقوع فيها.

٣- الإكثار من الأعمال الصالحة في أوقات الرخاء يحمي الإنسان وقت الفتن.

٤- التذكر المستمر لعواقب الذنوب يجعل الإنسان أكثر ثباتًا عند التعرض للإغراءات.

٥- الهروب من الفتنة وعدم التواجد في بيئة المعصية هو جزء أساسي من النجاة منها.

وأخيراً قصة يوسف عليه السلام درس عملي في كيف ينجو الإنسان من الفتن، خاصة فتنة الشهوات. الله سبحانه وتعالى وعد بأن من يسعى إليه ويخلص في عبادته، سيعينه ويحفظه من الانحراف، كما فعل مع يوسف عليه السلام. "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين".

فوائد من قصة يوسف عليه السلام وبرهان النجاة من الفتن

١- الإخلاص سبيل النجاة من الفتن:

- قال تعالى: "۞إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ"، وهذه الآية لها قراءتان:
- المُخلَصين: أي الذين أخلصهم الله وطهرهم من الفتن.
- المُخلِصين: أي الذين أخلصوا نياتهم لله.
- القراءتان متلازمتان؛ فمن أخلص لله، أخلصه الله. ولهذا قال السلف: "يا نفس أخلصي تتخلصي".
- كيف يحمي الإخلاص من المعصية؟
- القلب المملوء بإرادة وجه الله لا يجد الشيطان مدخلًا إليه.
- المعاصي مدخلها الرغبات الدنيوية (المال، الشهرة، الشهوات)، فإذا زالت هذه الإرادات، لا يجد الشيطان طريقًا إلى القلب.
- عندما يعزم الإنسان على معصية، فإن الإخلاص يردعه؛ لأن المعصية تعارض إرادته لله وخوفه من خسارة الآخرة.

٢- عبادة الخلوات تحصّن من ذنوب الخلوات:

- قال تعالى: "۞كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ".

■ من أراد النجاة من الذنوب الخفية، فليكثر من العبادات الخفية؛ لأن من تعوّد طاعة الله في السر، سهل عليه ترك المعصية في السر.

٣- الفرار من الفتنة ضرورة وليس ضعفًا:

■ " وَاسْتَبَقَا الْبَابَ " دليل على أن الفرار من الفتنة مطلوب حتى بعد اتخاذ الاحتياطات السابقة (الاستعاذة بالله، استحضار العواقب، الإخلاص...).

■ بعض الناس يستهين بوجوده في بيئات الفتنة بحجة أنه قوي الإيمان، لكن الفتن خطافة، ومن يعرض نفسه لها قد يسقط.

■ النبي يوسف عليه السلام فرَّ من الموقف رغم كل التدابير السابقة، مما يعلّمنا أن الاحتياط حتى النهاية واجب.

٤- لا تستهِن بأخذ الأسباب، حتى لو بدت ضعيفة:

■ يوسف عليه السلام جري نحو الباب رغم أنه كان مغلقًا، لكنه أخذ بالسبب، ففتح الله له باب النجاة.

■ العجيب أن العزيز عاد في اللحظة التي هرب فيها يوسف، ومن الباب ذاته الذي اتجه إليه، مما يوضح أن الله يُبارك في الأسباب الضعيفة إذا صَدَق العبد في طلب النجاة.

■ هذا يعلمنا أن على الإنسان أن يفعل كل ما في وسعه للهروب من المعصية، حتى لو لم يكن متأكدًا من النتيجة، فالله يدبر له الخير.

■ الإخلاص يحمي من الفتن؛ لأن الشيطان لا يجد منفذًا للقلب الممتلئ بإرادة وجه الله.

■ عبادة الخلوات تقي من معاصي الخلوات، فالسر بين العبد وربه يصونه عند الاختبار.

■ الفرار من بيئة المعصية واجب، ولا ينبغي للإنسان تعريض نفسه للفتن.

■ الأخذ بالأسباب ولو بدت ضعيفة هو مفتاح النجاة، والله يُدبر لعبده إذا صدق في طلب الهروب من الحرام.

الهروب من الفتن: دروس من قصة يوسف عليه السلام

إن الإنسان يتأثر بمن يجالسهم، فحتى لو كان مستقيمًا، فإن وجوده وسط من يتحدثون عن الفواحش يجعله يشعر بالنقص وقد يدفعه إلى التقليد. فالفتاة المؤدبة التي تجلس مع صديقات يتحدثن عن العلاقات المحرمة، أو الشاب الذي يجالس أصدقاء غارقين في المعاصي، سيتأثرون بهم دون أن يشعروا. لذا، فإن أول خطوة لحماية النفس هي الفرار من هذه الأجواء الملوثة.

الهروب من الإباحية والمعاصي

يجب على الإنسان أن يتخذ خطوات فعلية للابتعاد عن المحرمات، كحذف أي محتوى غير لائق من الهاتف، وحجب المواقع الإباحية، وتجنب الأماكن التي تكثر فيها الفتن كالاختلاط غير المنضبط، والمناسبات التي تشجع على المعاصي. فالفتن ستظل تلاحق الإنسان، لذا يجب أن يسبقها هو بالفرار منها، كما فعل يوسف عليه السلام حين "استبقا الباب".

تعريف جديد للرجولة

الرجولة ليست في كثرة العلاقات أو معرفة العديد من الفتيات، بل في القدرة على ضبط النفس والابتعاد عن المعصية. للأسف، بعض الفتيات يعجبن بالرجل الذي له علاقات كثيرة، ويعتبرنه جذابًا، بينما يعدون الشاب المستقيم ضعيفًا أو خجولًا. لكن الحقيقة أن الرجل الصادق هو الذي لم يدخل في علاقات غير مشروعة، لأنه بذلك يكون قادرًا على الإخلاص لزوجته، ولا يقارنها بأحد. فالعلاقات السابقة ليست مصدر خبرة، بل قد تكون سببًا في فساد العلاقة الزوجية.

فتنة امرأة العزيز وعاقبة العشق المحرم

قصة يوسف عليه السلام تكشف عن مدى خطورة العشق المحرم، فامرأة العزيز لم تكتفِ بمحاولة إغوائه، بل لاحقته بجنون حتى مزقت قميصه. وهذا يوضح أن الفتنة قد تطارد الإنسان حتى لو حاول الابتعاد. المعصية تعمي البصيرة، وتجعل الشخص يتخذ قرارات غير منطقية، تمامًا كما حدث مع بعض الشباب والفتيات الذين يتورطون في حب محرم، ثم يتصرفون باندفاع ضد مصلحتهم، كأن تعاند الفتاة أهلها وتهرب، أو يصر الشاب على علاقة محكوم عليها بالفشل.

ضوابط الحب المشروع

🔶 **الحب في الإسلام له حدود واضحة:**

- ■ إذا كان ناشئًا عن إعجاب بصفات حميدة، ولم يترتب عليه محرمات، وانتهى بالزواج، فهو حب مشروع.
- ■ إذا نشأ من طريق محرم، كالمكالمات والعلاقات غير الشرعية، فهو حب محرم.
- ■ حتى الحب المشروع لا يجب أن يطغى على حب الله ورسوله، لأن ذلك يؤدي إلى تقديم أمر المحبوب على أمر الله، مما يعرض الإنسان للضياع.

العبرة والختام

🔴 من قصة يوسف عليه السلام نتعلم أن السبيل للنجاة من الفتن هو الهروب منها، وليس مواجهتها أو التساهل معها. المعاصي تسلب الإنسان عقله، وتدفعه لاتخاذ قرارات قد تدمر حياته. لذلك، على الإنسان أن يحفظ قلبه وعلاقاته في إطار ما يرضي الله، ليحقق السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

العفة طريق النجاة

الحب شعور فطري زرعه الله في قلوب البشر ، لكن هناك حدًا خطيرًا لا ينبغي تجاوزه، وهو العشق. العشق إفراط في التعلق يجعل الإنسان منقادًا تمامًا للمحبوب، لا يرى سوى رغبته في الوصول إليه، ولو كان ذلك على حساب دينه وقيمه. هذا ما وقعت فيه امرأة العزيز، حيث blindedها العشق عن الصواب، فسعت خلف يوسف عليه السلام بلا وعي، دون أن تبالي بالحلال والحرام. لكن المسلم متزن، لا هو جاف المشاعر فينكر الحب تمامًا، ولا هو غارق فيه حتى يعبده كما تصور لنا المسلسلات والأغاني. بل يحب باعتدال، حبًا محكومًا بعقله وإيمانه، فلا يطغى على حب الله ورسوله.

خطورة العشق المحرم

العشق إذا تجاوز حدوده، أعمى البصيرة ودفع الإنسان لفعل ما لا يُعقل، كما حدث مع امرأة العزيز التي لم تكتفِ بإغواء يوسف، بل لاحقته ومزقت قميصه، وكادت تدفعه إلى الخطيئة. وهذا التحذير لكل من ينجرف خلف مشاعر غير منضبطة، فيخضع

للحبيب في كل شيء، حتى لو كان على حساب دينه وأخلاقه. الحب الذي يقود الإنسان لمعصية الله ليس حبًا، بل فتنة يجب الهروب منها، تمامًا كما فرَّ يوسف من امرأة العزيز.

العفة جمال لا يدركه الجميع

يوسف عليه السلام لم يكن جميل الخِلقة فحسب، بل كان الأجمل خلقًا وعفةً، وهذا هو الجمال الحقيقي. العفة تضفي على الإنسان هيبة وجمالًا معنويًا لا يفهمه إلا أهل الإيمان. فالمرأة المستترة الحيية جميلة، حتى لو لم يرَ الناس وجهها، لأن عفتها تمنحها نورًا واحترامًا، عكس المرأة المتبرجة التي قد تكون جميلة ظاهريًا، لكن قلة الحياء تُذهب هذا الجمال. فالجمال ليس في الشكل فقط، بل في الأخلاق والحياء والطهر.

أدب القرآن في عرض الفتن

القرآن عند سرده لقصة يوسف عليه السلام، حافظ على العفة والحياء حتى في عرض المواقف الحساسة، فلم يستخدم ألفاظًا خادشة أو تفاصيل محرجة. على العكس، نجد في زماننا برامج وأفلامًا تتحدث بلا خجل عن أمور يجب أن تُقال في نطاق خاص، مما ينشر الفساد ويهدم القيم. الإسلام يُعلّمنا أن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون بقدر، وبأدب، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين استحى أن يشرح للمرأة تفاصيل الطهارة، فوضحت لها السيدة عائشة ذلك على انفراد.

العفة تنقذ الآخرين

يوسف عليه السلام لم يكن العفيف الوحيد في القصة، بل عفته أنقذت امرأة العزيز من ارتكاب الفاحشة، لأنه لو استجاب لها، لانجرفت إلى ما هو أسوأ. وهذا درس مهم لكل شاب وفتاة في علاقة غير شرعية: قطع العلاقة ليس ظلمًا للطرف الآخر، بل إنقاذًا له وللنفس من التمادي في الخطأ. قد يكون الشخص الذي تحبه لم يقع في علاقات سابقة، لكنه تعلّق بك وحدك، فإن انسحبت من حياته، عاد إلى عفته ونقاء قلبه. أما التمادي في الحرام، فهو الظلم الحقيقي لكلا الطرفين.

الحب في الإسلام محكوم بضوابط تحفظ للإنسان دينه وكرامته، والعفة ليست مجرد فضيلة فردية، بل هي مصدر جمال وهيبة وحماية من الفتن. فلا تغترّ بالمظاهر

الزائفة، فالجمال الحقيقي في الطهر والنقاء، وكما أن العشق المحرم يُهلك صاحبه، فإن العفة تنجيه، وتحفظ له سعادته وكرامته في الدنيا والآخرة.

العلاقة السوية بين الرجل والمرأة في ضوء قصة يوسف عليه السلام

في قوله تعالى: "وألفيا سيدها لدى الباب"، نجد أن القرآن وصف الزوج بالسيد، إشارةً إلى عِظَم حقه على زوجته. فالزواج القائم على الاحترام المتبادل والتقدير هو أساس البيت السوي، حيث يُحسن الرجل لزوجته ويكرمها، وتنظر إليه بعين التوقير والامتنان. لكن حين يختل هذا الميزان، تحدث الفوضى داخل الأسرة.

حينما كُشف أمر امرأة العزيز، سارعت بإنكار فعلتها وألقت التهمة على يوسف عليه السلام قائلةً: ," مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، في دلالة واضحة على أن حبها لم يكن إلا حبًّا أنانيًّا لنفسها، إذ لم تتردد في التضحية به لحماية صورتها الاجتماعية. غير أن يوسف عليه السلام واجه الموقف بعفة وحياء، ولم يذكر تفاصيل تُحرج أو تجرح، فقال: " قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۚ"، وهو ما يعكس الفرق بين الطهر والانحراف، حيث لم يلجأ يوسف إلى فضحها أو التشهير بها، بل اكتفى بالإشارة إلى الحقيقة بأسلوب مهذب.

عندما شهد شاهد من أهل امرأة العزيز، اعتمد على القرائن المنطقية، فقال: " إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ". وبالفعل، حين رأى العزيز القميص ممزقًا من الخلف، تيقن من خيانة زوجته، وقال: " قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ". ومن المهم الإشارة إلى أن هذه العبارة ليست قاعدة عامة عن كل النساء، وإنما جاءت في سياق مجتمع كانت فيه النساء متسلطات، بينما الرجال ضعفاء ومتساهلون، كما كان حال العزيز الذي لم يتخذ موقفًا صارمًا رغم انكشاف الحقيقة.

فالمرأة، بطبيعتها، تمتلك ذكاءً ومهارة في التدبير، قد يتحول إلى كيد سلبي إذا غلب عليه الهوى، لكنه قد يكون وسيلة لحماية بيتها وزوجها إذا وُجِّه للخير. الفرق إذًا يكمن في التقوى والنية، فالمرأة الصالحة تُحسن توظيف هذه المهارات لصون أسرتها، بينما المرأة الفاسدة قد تستغلها لتحقيق مآربها الخاصة.

وهكذا، فإن التوازن في العلاقات، حيث يقوم الرجل بدوره كراعٍ ومسؤول، والمرأة بدورها كحافظة للبيت، هو ما يصنع المجتمع السوي، بعيدًا عن الانحرافات التي تنشأ حين يختل هذا النظام الطبيعي.

التأمل في قصة يوسف: القيم والعبر

في قصة يوسف عليه السلام، تكشف الآيات تفاصيل دقيقة حول العلاقة بين الرجل والمرأة، وتأثير البيئة والمجتمع على تصرفاتهما. يقول الله تعالى: " وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ "، وهنا يوصف الزوج بالسيد، إشارة إلى مسؤوليته الكبيرة وحقه على زوجته. لكن هذه المكانة تستلزم منه أن يكون أهلًا لها، فيحسن إلى زوجته، وينفق عليها، ويعاملها بالرحمة، وهي بدورها تحترمه وتقدّره، مما يخلق أسرة متماسكة ومتوازنة.

لكن حين تفسد هذه المنظومة، كما حدث مع امرأة العزيز، فإن التوازن يختل. حبها ليوسف لم يكن حبًا نقيًا، بل حب أناني متعلق برغبتها الشخصية، بدليل أنها تخلت عنه فورًا واتهمته ظلمًا عندما انكشفت القصة: " قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ". ولم يدافع يوسف عن نفسه بكلمات جارحة، بل اكتفى بالقول: " قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي "، في أدبٍ عظيم رغم الظلم الذي تعرض له.

الشاهد: هل كان طفلًا أم رجلًا؟

اختلفت الروايات حول هوية الشاهد، فهناك قول بأن الشاهد كان طفلًا نطق في المهد، لكن الحديث الوارد في هذا ضعيف، والراجح أن الشاهد كان رجلًا من أقارب امرأة العزيز. وذلك لأن حكمه كان منطقيًا، اعتمد على القرائن، ولم يكن معجزة لافتة لأن أهل المدينة لم يتوقفوا عنده، بل استمر الحديث عن الواقعة بشكل طبيعي.

كيد المرأة: هل هو عظيم دائمًا؟

عندما قال العزيز: " قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ"، كان ذلك توصيفًا لحالة خاصة، وليس قاعدة عامة لكل النساء. في مجتمع كان الرجال فيه ضعفاء والنساء متسلطات، أصبح الكيد وسيلة للهيمنة. لكن في المجتمعات السوية، لا يكون الكيد بهذا الشكل المدمر، بل قد يكون وسيلة ذكية تستخدمها المرأة في الخير، كما فعلت أم سلمة عندما أشارت على النبي ﷺ بحل المشكلة التي واجهها في صلح الحديبية.

ضعف العزيز وغياب الغيرة

رغم وضوح الحقيقة، كان رد فعل العزيز ضعيفًا، فقال ليوسف: " أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا"، وكأنه يريد طي الصفحة فقط لتجنب الفضيحة، ثم قال لامرأته: " وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ "، دون اتخاذ أي موقف حاسم ضد خيانتها. وهذا يعكس بيئة اجتماعية كانت الفضيحة فيها أهم من الأخلاق نفسها.

- تأثير دعوة يوسف عليه السلام

رغم كونه عبدًا في قصر العزيز، إلا أن يوسف لم يتوقف عن الدعوة إلى الله. وهذا واضح في المفاهيم التي انتشرت في المجتمع، مثل الاستغفار والحديث عن الملائكة. حتى امرأة العزيز نفسها، بعد مرور الأحداث، استخدمت مفردات دينية لم تكن مألوفة في بيئتها، مما يدل على تأثير يوسف الدعوي العميق.

- نفاق الطبقات الاجتماعية

عندما انتشر الخبر، لم يكن اعتراض نسوة المدينة على فكرة الخيانة نفسها، بل على أن امرأة العزيز وقعت في حب عبد، وليس رجلًا من مستواها: "قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ". وهذا يشبه نفاق بعض المجتمعات الحديثة، حيث تُقبل التصرفات الخاطئة في فئات معينة، بينما تُدان بشدة عند غيرهم.

- تكشف قصة يوسف عليه السلام عن حقائق إنسانية واجتماعية تتكرر في كل زمان ومكان. فهي تبرز قيمة العفة، وخطورة الشهوة غير المنضبطة، وتأثير البيئة على الأفراد، فضلًا عن أهمية الثبات على المبادئ مهما كانت الإغراءات.

- دروس وعبر من قصة امرأة العزيز وفتنة يوسف عليه السلام

تروي لنا قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز تفاصيل مليئة بالحكمة والعبر، تحمل في طياتها رسائل خالدة تتجلى في المواقف والأحداث التي وقعت. ومن بين الدروس المستفادة ما يلي:

١- رفع الستر وانكشاف الحقيقة

- ظنت امرأة العزيز أنها قادرة على إخفاء فعلتها بإحكام الأبواب، لكن إرادة الله شاءت أن يفضح الأمر حتى وصل إلى كل المدينة. وهذا درس مهم في أن الستر

نعمة، ولكن إذا استمر الإنسان في المعاصي فقد يُرفع عنه هذا الستر، ويصبح حديث الناس.

٢- الستر نعمة قد تزول

لو كشف الله ستره عن أي إنسان لصار حديث المجالس، فكل منا لديه ذنوبه وأخطاؤه التي لا يعلمها إلا الله. لذا، ينبغي أن يشكر الإنسان ربه على ستره، وألا يغتر بكونه بعيدًا عن أعين الناس.

٣- التأثير الإعلامي وربط القضايا بالمشاهير

القرآن لم يذكر اسم المرأة، بل أشار إليها بصفة "امرأة العزيز"، مما جعل القصة تأخذ انتشارًا أوسع. فالناس تميل إلى الاهتمام بأخبار الشخصيات المعروفة أكثر من الأشخاص العاديين، وهذا شبيه بعصرنا اليوم حيث تزداد شهرة الأحداث عندما ترتبط بالمشاهير.

٤- الابتعاد عن مواضع الشبهات

من وضع نفسه في موضع شبهة، فليتحمل سوء الظن. حتى لو كانت النية سليمة، فإن الناس تحكم بالمظاهر، ولهذا كان النبي ﷺ حريصًا على توضيح موقفه حين رآه الصحابة مع زوجته صفية فقال: "إنها صفية". وهذا درس لكل شخص أن يبتعد عن أي موقف قد يثير الشك أو التأويل الخاطئ.

٥- التلاعب بالألفاظ لإخفاء المقاصد الحقيقية

عندما تحدثت نسوة المدينة عن امرأة العزيز، بدا في الظاهر أنهن ينكرن عليها، لكن في الحقيقة كنَّ يرغبن في رؤية يوسف عليه السلام بأنفسهن. وهذا يُشبه موقف السيدة عائشة عندما حاولت إقناع النبي ﷺ بأن لا يجعل أبا بكر يصلي بالناس بحجة أنه رجل أسيف، لكن النبي ﷺ فهم مقصدها الحقيقي، وقال لها: "إنكن صواحب يوسف".

٦- المكر النسائي وكيف واجهته امرأة العزيز

■ عندما سمعت امرأة العزيز بكلام النسوة، لم تتجه إلى الدفاع عن نفسها بالكلام، بل أعدت لهن مجلسًا وأعطت كل واحدة منهن سكينًا، ثم أظهرت لهن يوسف عليه

السلام، مما جعلهن يندهشن إلى درجة أنهن قطعن أيديهن دون أن يشعرن. وهذا يدل على قوة التأثير البصري، وكيف يمكن للمكر أن يُستخدم لتحقيق الأهداف الخفية.

🔶 قصة يوسف عليه السلام تحمل في طياتها حكمًا عميقة، من أهمية الستر، وخطورة الشبهات، والتلاعب بالكلام، إلى تأثير الإعلام وانتشار الفضائح. وهي تذكير لنا بأن الله هو الحافظ، وأن الإنسان يجب أن يسير في حياته بحذر، متجنبًا مواضع الريبة، ومحافظًا على سمعته ودينه.

🔶 فوائد مستخلصة من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة

١- الفضيحة بيد الله

■ امرأة العزيز حاولت إخفاء خطيئتها، لكن الله أخرج الأمر للعلن ليكون عبرة، مما يدل على أن الستر قد يُرفع عن الإنسان في أي لحظة.

٢- من رفع الله ستره صار حديث المجالس

■ مهما حاول الإنسان إخفاء أفعاله، فقد يكشفها الله للناس، فالعاقل يتجنب الوقوع في مواضع الشبهات.

٣- الشُهرة ترفع الترينـد

عندما تحدث النسوة عن امرأة العزيز لم يذكروا اسمها، بل ربطوها باسم زوجها "العزيز" ليُشهروا القصة أكثر، كما يحدث اليوم مع فضائح المشاهير.

٤- "من وضع نفسه في مواضع الشبهات فليتحمل سوء الظن"

وضع النفس في مواضع الريبة يُعرِّض صاحبه للقيل والقال، ولهذا حتى النبي ﷺ حرص على رفع الشبهة عندما رأته الصحابة مع زوجته صفية، فوضح لهم الأمر قبل أن يسيئوا الظن.

٥- الناس قد يُظهرون العتاب لكن دوافعهم الحقيقية مختلفة

■ النسوة عاتبن امرأة العزيز، لكن في الحقيقة كنّ يردن رؤية يوسف عليه السلام، وهذا يوضح أن بعض الانتقادات ظاهرها النصح وباطنها غرض آخر.

٦- إغواء الآخرين لتبرير الخطأ

■ الزاني يحب أن يزني الجميع ليخفف من وطأة ذنبه، ومن يفعل معصية يسعى لنشرها، كما أن المدخن يعرض السجائر على غيره، والمخطئة تُشجع صديقاتها على الخطأ.

٧- بداية الشر تكون بالنظر

النساء لم يُفتنَّ بيوسف إلا بعد ■ أن رأينه، مما يدل على أن الخطوة الأولى في كثير من الفتن هي إطلاق البصر، ومن حفظ بصره حمى قلبه.

٨- الاستقامة تورث الهيبة وتحمي صاحبها

■ عندما رأين يوسف أكبرنه، أي عظمنه وهابوه بسبب النور الظاهر عليه، مما يوضح أن الإنسان المستقيم يحظى باحترام الناس وهيبتهم.

٩- السمعة تحمي صاحبها

سلوك الإنسان وسمعته تسبقه، فالفتاة المحتشمة لا يتجرأ أحد على مضايقتها، والشاب صاحب الأخلاق العالية يحترمه الجميع.

١٠- ليس كل ثبات دليل قوة إيمان، فقد تكون الفتنة لم تأتِ بعد

■ النسوة كنّ ثابتات حتى رأين يوسف، فانهارت مقاومتهن. وبالتالي، لا ينبغي للإنسان أن يغتر بثباته الحالي، فقد تكون الفتنة التي ستختبره لم تأتِ بعد.

١١- عشق الحرام يأتي بعد مقدمات خاطئة

■ النظر المتكرر، التحدث المطول، والتواصل الدائم قد يجر الإنسان إلى العشق المحرم الذي يُفقده السيطرة على أفعاله.

١٢- أسوأ من الذنب تبريره، وأسوأ من التبرير التمادي فيه

امرأة العزيز لم تكتفِ بالخطأ، ■ بل بررته قائلة: "فذلكن الذي لمتنني فيه." والأسوأ أنها لم تتوقف، بل استمرت في غواية يوسف.

١٣- نزع الحياء يقود إلى الجرأة على الفحش

■ امرأة العزيز لم تخجل من الاعتراف أمام الجميع بأنها راودت يوسف عن نفسه، مما يوضح كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى درجة من الجرأة عندما يفقد الحياء.

القصة مليئة بالعبر حول الفضيحة، سوء الظن، أثر النظر، قوة الاستقامة، دور السمعة، خطر تبرير المعصية، وتأثير الفتن على القلوب. كل هذه الدروس تجعلنا أكثر حرصًا على تجنب الخطأ، والاستمرار في إصلاح أنفسنا.

🔶 تلخيص مستفاد من قصة يوسف عليه السلام

في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى لنا العديد من العبر والدروس العميقة التي تعكس طبيعة النفس البشرية، وكيف يمكن للإنسان أن يكون ثابتًا على الحق مهما اشتدت الفتن.

١ـ خطورة إشاعة المعصية:

عندما يقع الإنسان في ذنب، فإنه يتمنى أن يقع فيه غيره حتى لا يشعر بوحدته أو بالذنب. وهذا ما نراه في تصرفات كثير من الناس الذين يسعون إلى ترويج الخطأ حتى لا يكونوا وحدهم المخطئين. لكن من الحكمة أن يعترف الإنسان بخطئه بدلاً من نشره بين الناس.

٢ـ بداية الفتنة بالنظر:

إطلاق البصر هو أول أبواب الفتنة، كما حدث مع نسوة المدينة عندما رأين يوسف عليه السلام، فانقلبت أحوالهن ووقعن في الإعجاب الشديد به. وهكذا، فإن الإنسان طالما لم يرَ المحرمات ولم يقترب منها، فإنه يظل في مأمن من الانجراف نحوها.

٣ـ أثر الاستقامة على المظهر والهيبة:

نور الاستقامة والصدق يظهر على وجه صاحبه، فيبعث في قلوب الناس هيبة واحترامًا. فمن أراد أن يحمي نفسه من الفتن، فليحرص على سمعته، وسلوكه، ومظهره الذي يعكس التزامه القيمي والديني.

٤ـ تبرير الذنب أخطر من الذنب نفسه:

امرأة العزيز لم تكتفِ بالوقوع في الخطيئة، بل بررت فعلتها أمام النساء، وهذا من أخطر الأمور، لأن التبرير يجعل الإنسان يتمادى في الخطأ بدلاً من التوبة والرجوع عنه.

٥- العزة الحقيقية بيد الله:

عندما هددت امرأة العزيز يوسف عليه السلام بالسجن والإذلال، لم يكن ذلك إلا طريقًا إلى عزته ورفعته، لأن العزة الحقيقية لا تأتي من الناس، بل من الله وحده.

٦- اختيار الدين على الدنيا:

يوسف عليه السلام اختار السجن على الوقوع في الخطيئة، لأن الحرية التي تأتي على حساب الدين ليست حرية حقيقية، بل عبودية للشهوات. وهذا يرسخ قاعدة عظيمة: "إذا خيرت بين دينك ودنياك، فاختر دينك، لأن الدنيا زائلة، أما الدين فهو عصمة الأمر".

٧- الفتنة قد تأتي متأخرة:

ثبات الإنسان أمام الفتن لا يعني أنه قوي الإيمان بالضرورة، فقد يكون السبب في ذلك أن الفتنة لم تأته بعد. لذلك يجب ألا يغتر الإنسان بثباته الحالي، بل عليه أن يحصن نفسه دائمًا بالإيمان والاستعانة بالله.

٨- اللجوء إلى الله هو الحماية الحقيقية:

عندما تعرض يوسف عليه السلام للابتلاء، لم يعتمد على نفسه، بل استعصم بالله، فأعانه الله وصرف عنه كيد النساء. وهذا يعلمنا أن النجاة من الفتن تحتاج إلى قوة داخلية لا تأتي إلا بالالتجاء الصادق إلى الله.

٩- الصبر على الأذى سبيل إلى الرفعة:

رغم أن يوسف عليه السلام ظُلم وسُجن بغير حق، إلا أن هذا الابتلاء كان طريقًا إلى عزته، حيث صار في النهاية عزيز مصر. وهذا يؤكد أن الصبر على الابتلاءات قد يكون بابًا واسعًا للخير والتمكين.

🔶 ختامًا، هذه القصة العظيمة ترسخ فينا أهمية الثبات على المبادئ، والاستعانة بالله، واليقين بأن العاقبة لأهل التقوى، مهما واجهوا من صعوبات وابتلاءات.

المحاضرة السادسة
داعية السجن

المقدمة

في قصة يوسف عليه السلام، نجد نموذجًا خالدًا للعفة والصبر، حين وقف أمام إغراء امرأة العزيز، مفضلًا السجن على معصية الله. لم يكن الأمر مجرد رفض للذنب، بل كان اختيارًا واعيًا لطريق العزة، مؤمنًا بأن الحرية الحقيقية تكمن في طاعة الله، وأن الأسر الحقيقي هو أسر القلب بالشهوات. فالسجن في سبيل الله رحمة، أما الحرية في معصيته فهي ذل ومهانة.

رغم أن امرأة العزيز كانت تملك السلطة، فإنها بدت ضعيفة أمام استقامة يوسف، الذي استعصم بالله، فأصبحت هي الذليلة، عاجزة عن إجباره على المعصية. وكما هي سُنّة الطغاة حين يفشلون في مواجهة الحجة، انتقلت إلى التهديد بالسجن، كما فعل فرعون حين عجز عن الرد على موسى عليه السلام، فلجأ إلى التهديد قائلاً: "لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ". هكذا يفعل الضعيف حين لا يجد سبيلًا للحوار بالحكمة.

وتتجلى هذه العزة في موقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذي تعرض للسجن مرارًا بسبب وشايات أعدائه، لكنه رغم ضيق العيش والحرمان، عاش أطيب الناس عيشًا، وأقواهم قلبًا، وأشرحهم صدرًا. وصفه تلميذه ابن القيم قائلًا: "كنا إذا اشتد بنا الخوف وضاقت بنا الأرض، أتينا إليه في محبسه، فما هي إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة". وحين سُجن، قال كلمته الشهيرة: "ما يفعل أعدائي بي؟! أنا جنتي في صدري، وبستاني في قلبي، أينما ذهبت فهو معي. إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن نفوني فنفي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة". لقد كان سجين الجسد، لكن قلبه كان حرًا، كما كان حال يوسف في سجنه، الذي كان في الحقيقة نعيمًا، لأنه كان في سبيل الله.

ومن هذا الدرس العظيم تبرز رسالة لكل إنسان: لا مساومة على الشرف والكرامة مهما كانت المغريات، فالأموال والوظائف والمناصب لا تساوي شيئًا إذا كانت على حساب المبادئ. لا يجوز التنازل عن الدين من أجل مكاسب دنيوية زائلة.

وكما قال يوسف عليه السلام: "رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ". قارن ذلك بما نراه اليوم من شباب يلهثون خلف الشهوات، مستعدين للتنازل عن دينهم وأخلاقهم في سبيل متع زائلة، فيقول أحدهم: "أنا مستعد أن أفقد حياتي من أجل مقابلة فنانة أو فتاة"، بينما يوسف كان مستعدًا لفقد حريته حفاظًا على دينه وشرفه.

إن الفرق شاسع بين من يسعى لمرضاة الله ولو كلفه ذلك السجن، ومن يتهافت على الشهوات ولو قادته إلى الضياع. فالعبرة ليست بالمكان الذي يكون فيه الإنسان، بل بالحالة التي يكون عليها قلبه. فمن كان مع الله، فهو في جنة حتى لو كان في السجن، ومن ابتعد عنه، فهو في شقاء حتى لو كان في قصر.

عفة اللسان وعظمة الاستعانة بالله: دروس من ثبات يوسف عليه السلام

🔶 في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى أسمى معاني العفة والطهارة، ليس فقط في أفعاله، بل حتى في ألفاظه. حين قال: "رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ", تجنب حتى ذكر لفظ الزنا، كراهيةً له وتنزهًا عن مجرد التلفظ به. وهكذا يكون الشرفاء، تحرص ألسنتهم على الطهر كما تحرص جوارحهم، فيلجؤون إلى التورية تجنبًا للخوض في ألفاظ الفساد، حتى لو كانوا في أشد الاحتياج.

🔁 وفي موضع آخر، تتجلى حقيقة العبودية الصادقة والافتقار إلى الله، حين قال يوسف: "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ". إنه اعتراف صريح بأن الثبات على الطاعة ليس بجهد الإنسان وحده، بل هو محض توفيق من الله. فإذا لم يثبتنا الله، فلن نثبت أبدًا. وكما قال الشاعر:

"إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجني عليه اجتهادُه"

🔶 فكل أسباب التحصين والمجاهدة بلا توكل صادق على الله قد تنقلب على صاحبها، لأن الإنسان ضعيف بنفسه، قوي بربه. حتى الأنبياء لا يستغنون عن عون الله طرفة عين، فكيف بغيرهم ممن تحاصرهم الفتن وتراودهم الشهوات؟ من صدق في الالتجاء إلى الله نجّاه، ومن اعتمد على نفسه هلك.

ويأتي وصف الجهل هنا بمعناه الأعمق، فليس الجاهل فقط من لا يعلم الحكم، بل هو من يجهل عظمة الله، وحقارة المعصية، وهول العقاب. الجاهل هو من لم يدرك قدر الله، ولم يستوعب ضعف نفسه وحاجته الدائمة إلى ربه. ولهذا قال النبي ﷺ: "أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية". فكلما ازداد العبد علمًا بالله، ازداد خوفًا منه وحرصًا

على طاعته، لأن العلم بالله يملأ القلب مهابة، والعلم بحقائق الآخرة يجعله أكثر حرصًا على النجاة.

🔁 وهكذا، نجد أن كل من عصى الله إنما عصاه بجهل، ليس جهل الأحكام فقط، بل جهل بحقيقة الدنيا والآخرة. كما قال تعالى: "مَنْ عَمِلَ سُوءًا بِجَهَالَةٍ". فالعلم بالله هو الحصن الأعظم من المعاصي، وقد يكون طريقًا غير مباشر للتوبة دون حتى أن ندرك. فكثيرون لم يتركوا معاصيهم عن تخطيط، بل لأن قلوبهم امتلأت بمعرفة الله، فعافوا ما يسخطه من تلقاء أنفسهم.

لذا، من أراد أن يحارب معصية، فليتعرف على ربه أكثر، وليتعلم عن نبيه، وليقترب من حقيقة الدار الآخرة، فيجد نفسه وقد انصرفت عن الذنب دون جهد يُذكر. إنها المواجهة غير المباشرة للمعاصي، حين يكون العلم نورًا يمحو الظلمة قبل أن تدرك كيف انقشعت.

سرعة الاستجابة وعظمة الحفظ الإلهي

🔶 حينما دعا يوسف عليه السلام ربه، جاء الرد سريعًا، فقال تعالى: "فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ". هذه الفاء في "فاستجاب" تدل على السرعة، فالاستجابة جاءت عاجلة لقوة الاضطرار، فكلما كان الدعاء ممزوجًا بالخضوع والافتقار، كلما كان الجواب أسرع وأعظم. فليس تأخر الإجابة إلا لضعف الطلب.

كان كيد النسوة عظيمًا، لم يعد الأمر مقصورًا على امرأة العزيز، بل تحول إلى تآمر جماعي، حيث تكالبت عليه سيدات القصر والطبقة الراقية، يملكن الجمال والسلطة والجاه، ويحاولن استمالته من كل جانب. لكنه كان في كنف الله، ومن كان الله معه، فمن عليه؟ مهما كانت الفتنة عظيمة، فالله أكبر وأقدر على دفعها.

🔁 وهذا ما نجده أيضًا في قصة مؤمن آل فرعون، الذي واجه جبروت فرعون وجنوده، لكنه أفوض أمره إلى الله، فكانت النتيجة: "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا". وهذه قاعدة ذهبية تكتب بماء الذهب: المسألة ليست في حجم الفتنة، بل في قدر العون الذي يصلك من الله. فقد تكون الفتنة عظيمة، لكن الله يحفظك منها، وقد تكون ضعيفة، ولكن إن تخلى الله عنك، سقطت بأهون الأسباب.

انظر إلى الواقع، شاب قد تفتنه نظرة عابرة أو إعجاب على منشور، وفتاة قد يلهب قلبها مجاملة بسيطة، فتظل تفكر وتضطرب، فما بالك بمن تحيط به فتنة كيوسف عليه السلام؟ الفرق في التوفيق الإلهي، فمن اختاره الله لحفظه، فلا قوة في الأرض تستطيع أن تفتنه.

🔁 وهنا تتجلى أعظم معاني سورة يوسف، فهي لا تعرفنا فقط على قصة نبي، بل تعرفنا على الله بأسمائه وصفاته في كل موقف: اللطيف، العليم، الحكيم، السميع، القهار... وكل اسم يأتي في موضعه المناسب. تأمل قوله تعالى: "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ". يكفي أن تهمس لله، أن تبوح له بحاجتك دون أن ترفع صوتك، فالله يسمعك في كل وقت، ويعلم ما في قلبك، ولا يرد من يلجأ إليه بصدق.

🔶 سجن يوسف: امتحان العزة ومفتاح التمكين

رغم الأدلة القاطعة على براءة يوسف عليه السلام وعفته، إلا أن القوم قرروا سجنه، لا لشيء إلا لإخفاء الحقيقة وإخماد الفضيحة. لم يكن القرار عادلاً، لكنه كان استجابة لرغبة امرأة العزيز وحفاظًا على مصالح السلطة. وهكذا، ظنوا أن السجن سيكون إذلالًا ليوسف، لكنه في الحقيقة كان بداية تمكينه.

كانت المرأة تريد إذلاله، فجعل الله السجن طريقًا إلى عزه، بل صار يومًا ما في مكان العزيز نفسه. وهذا درس لكل من يطلب العزة، فهي عند الله وحده، لا عند البشر، ولا تُنال إلا بصدق اللجوء إليه. كما قال سبحانه: "إِنَّهُ لا يُعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ وَلا يُذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ".

🔴 قاعدة ذهبية: "من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه". يوسف ترك الحرام، فرفع الله قدره. ضحى بحريته من أجل الله، فخرج من السجن عزيزًا، حرًا، وزيرًا مقربًا من الملك. فمن أراد الخير، فليترك الحرام ويثق بوعد الله: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا".

أما السجن، فقد كان امتحانًا لصبره ودرسًا لكل مظلوم. يوسف عليه السلام، الكريم ابن الكريم، دخل السجن ظلمًا، فكيف نستغرب أن يصيبنا الابتلاء؟ إذا كان الله قدّر هذا على أحب عباده إليه، فكيف لا يصيبنا نحن؟! الابتلاء ليس دليلًا على الخذلان، بل قد يكون علامة على الاصطفاء. فالله يختبر عباده على قدر إيمانهم، ومن زادت صلابته، زاد بلاؤه.

وكم من مظلوم في السجون اليوم؟! وكم من بريء يعاني القهر؟! لكن العزاء في سورة يوسف، فهي بلسم لكل مكروب، تذكرنا أن الظلم لا يدوم، وأن الفرج قادم مهما طال البلاء. فالذي أخرج يوسف عليه السلام قادر على إخراج كل مظلوم، وقادر على أن يجعل المحنة سببًا للتمكين والعزة.

دعاء لكل مظلوم:

"يا لطيف، يا من أخرجت يوسف من السجن، أخرج المظلومين وفرّج كربهم، وارفع عنهم الظلم كما رفعت الظلم عن عبدك يوسف عليه السلام."

🔶 حكمة الشريعة في العقوبات بين السجن والحدود

حين يُعاقب الإنسان، فإن العدالة الحقيقية تقتضي ألا يستمر المجتمع في معاقبته بعد انتهاء محكوميته. فقد نال جزاءه، ويجب أن يُعامل بكرامة دون تذكيره بجريمته، بل يُمنح فرصة جديدة للحياة. لكن في المقابل، نجد أن السجن عقوبة قاسية لها آثار تتجاوز الفرد إلى أسرته ومجتمعه.

🔁 السجن ليس مجرد عقوبة للفرد، بل ابتلاء يمتد إلى أسرته بأكملها.

فالزوجة تُحرم من معيلها، والأبناء يُحرمون من تربية أبيهم، والوالدان يذوقان ألم الفراق. والأسوأ من ذلك أن السجين قد يخرج من محبسه أكثر فسادًا مما دخل، بعدما عاش سنوات وسط بيئة مليئة بالمجرمين.

ثم هناك العبء الاقتصادي الذي يتحمله المجتمع بأسره.

فالدولة تنفق على السجون من أموال الناس، وتخصص لها ميزانيات ضخمة من طعام وشراب وحراسة، فيُصبح الجميع شركاء في دفع ثمن الجريمة. فأي عدل في أن يُعاقَب المجتمع كله بسبب جريمة فرد؟

🔁 وهنا تتجلى حكمة الشريعة الإسلامية.

فالحدود والتعزيرات عقوبات عادلة وحاسمة، تحقق الردع دون أن تمتد آثارها إلى الأبرياء. فهي رحمة بالجاني والمجتمع معًا، إذ تمنع الجريمة من جذورها بدلًا من إطالة معاناة الجميع. وما أعظم عدل الله حين قال:

" أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ".

فمن ظن أن السجن أرحم من الحدود، فليراجع نظره، فالشريعة جاءت بالرحمة الحقيقية، لا بما يراه الناس رحمة ظاهريًا، لكنه في حقيقته ظلم ممتد.

🔶 دخول اليسر مع العسر: تأملات في قصة يوسف عليه السلام

يخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ" (يوسف: ٣٦). تأمل هذا المشهد العظيم، حيث يبيّن لنا القرآن الكريم أن اليسر يأتي مع العسر، حتى وإن لم ندركه في حينه. في اللحظة نفسها التي دخل فيها يوسف عليه السلام السجن، دخل معه فتيان، لم يكن يعلم أن أحدهما سيكون مفتاح خروجه لاحقًا، لكن الله سبحانه وتعالى كان يدبر له بلطفه الخفي.

🔶 إنها رسالة عظيمة: مهما اشتد البلاء، فإن الفرج قريب، فقد يكون بجانبك دون أن تشعر، كما كان جبريل وميكائيل وإسرافيل في بيت لوط عليه السلام وهو لا يعلم. هكذا لطف الله بعباده، يدبر لهم الخير وسط المحن، وإن لم يبصروه على الفور.

🔁 أما هذان الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف عليه السلام، فكان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه. وكانا متهمين بمحاولة دسّ السم للملك، فانتظرا في السجن حتى يُحكم في أمرهما. وبعد فترة، رأى كل منهما رؤيا غامضة، فجاءا إلى يوسف عليه السلام يطلبان تأويلها.

قال الأول: "إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا"، أي أنه رأى نفسه يعصر العنب ليُصنع منه الخمر. وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، أي أنه رأى خبزًا على رأسه والطيور تأكله. ثم قالا له: "نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٣٦).

وهنا يبرز تساؤل مهم: لماذا لجأ هذان السجينان تحديدًا إلى يوسف عليه السلام دون غيره؟ ولماذا وصفاه بأنه من المحسنين؟ لا شك أن أخلاقه وسيرته داخل السجن كانت تشهد له بالحكمة والصلاح، مما جعله موضع ثقة بين من حوله، حتى في أحلك الظروف.

هكذا يعلمنا القرآن أن الصبر على البلاء، مع الإحسان في كل حال، قد يكون سببًا في رفع البلاء ذاته، كما كان الحال مع يوسف عليه السلام، حيث كان الطريق إلى حريته قد بدأ مع دخوله السجن.

🔶 يوسف عليه السلام: دروس في الصبر والتكيف مع القدر

منذ أن دخل يوسف عليه السلام السجن، لم يستسلم للحزن أو اليأس، بل فتح صفحة جديدة في حياته، متقبلاً واقعه الجديد بإيمان وعزيمة. أدرك أن الحياة لا تتوقف عند الابتلاءات، بل هي سلسلة من الاختبارات، وكل موقف يفرض عليه عبودية جديدة لله.

🔁 تعامل يوسف عليه السلام مع السجن كمرحلة قدرية لا يمكن تغييرها، لكنه استطاع أن يحسن استثمارها. لم يكن سجيناً مستسلماً للواقع، بل سجيناً إيجابياً، يرى في سجنه فرصة جديدة للطاعة والصبر. لم يشكُ حاله لأحد، ولم يُخبر السجناء بقصته، لأنه كان يؤمن أن الشكوى لا تغير القدر، بل التوكل على الله هو السبيل للخروج من المحن.

ظل يوسف عليه السلام ثابتاً في إيمانه، متقبلاً لأمر الله، مستثمراً وقته في الصبر والتعبد، حتى جاء الفرج في الوقت الذي قدره الله له، ليخرج من السجن بعزة وكرامة، بعدما أثبت أن الرضا بالقضاء هو مفتاح الفرج والنصر.

فن التعامل مع الأقدار والإحسان في كل حال

نحن لا نختار الأسئلة التي يضعها لنا القدر، لكننا نستطيع أن نجيب عليها بالطريقة الصحيحة. فالله يخلق ما يشاء ويختار، ولا يد للإنسان في كثير من الأمور التي تحدد واقعه، كأصله وبيئته وظروفه. لكن العبرة ليست في ما لا نستطيع تغييره، بل في كيفية تعاملنا معه. فمن أحسن الإجابة على امتحانات الحياة، ربح مع الله في كل حال، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له."

🔶 يوسف عليه السلام مثال رائع في هذا الجانب، فقد واجه السجن لا باليأس أو الاستسلام، بل بالصبر والعمل والإحسان. لم يكن سجيناً عادياً، بل كان نموذجاً للإيجابية، فداوم على العبادة، وأحسن إلى من حوله، يعود المرضى، يساعد المحتاجين، يستمع إلى شكاوى المساجين، ويطعم الجائع. لم يكن هدفه مجرد البقاء، بل استثمر وجوده في السجن كفرصة دعوية، فبدأ بكسب القلوب عبر حسن المعاملة قبل أن يدعوهم إلى الله.

وهذه حكمة لكل من يسعى للتأثير في الآخرين: لا تبدأ بالنصح المباشر، بل اكسب الثقة أولاً، وأحسن إليهم، وحينها يكون لكلامك وقع أعمق وتأثير أقوى. وهذا ما جعل المساجين يرون في يوسف عليه السلام الرجل الصالح، صاحب الفراسة والعلم، فقالوا له: "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٣٦).

🔁 هكذا يُربح الإنسان مع الله، بالإحسان في عبادته، والإحسان في معاملته للناس، مهما كانت الظروف.

🔶 الإحسان سر النجاح في الدعوة

الداعية الحقيقي هو الذي يجمع بين أمرين عظيمين: الإحسان في علاقته مع الله، والإحسان في علاقته مع الناس. فالدعوة ليست مجرد كلمات منمقة، أو خطب رنانة، بل هي نور يضعه الله في القلوب بسبب الصدق في العبادة والإخلاص في المعاملة. هذا النور لا يُشترى بالمال، ولا يُنال بالإعلانات، بل هو منحة إلهية يمنحها الله لمن صدقت سريرته، وصفا قلبه، وأخلص عمله.

🔁 على قدر إحسان العبد في علاقته مع الله، يكون له القبول في قلوب الناس، فالكلمة البسيطة من صاحب القلب الصادق قد تلامس القلوب أكثر من أبلغ الخطباء. ثم يأتي الإحسان إلى الناس، وهو أن يكون الداعية متفاعلاً مع آلامهم، قريباً من أزماتهم، معيناً لضعيفهم، ناصحاً لمحتاجهم. فليس الداعية من يقتصر دوره على المنبر، بل هو من يعيش مع الناس، يشاركهم مشاعرهم، ويكون قدوة في أفعاله قبل أقواله.

🔁 وهنا تكمن الحقيقة: الدعوة ليست محصورة في المنابر أو القنوات، بل في كل لقاء، وكل موقف، وكل تصرف. فقد تهتدي فتاة ليس بسبب موعظة سمعتها، بل لأنها رأت إحساناً وتأثرت به. قد تحب أخرى الحجاب ليس لأن أحدهم أمرها به، بل لأنها رأت في محجبة خلقاً كريماً فاقتدت بها. فالدعوة ليست مجرد كلمات، بل أفعال وردود أفعال وسلوك يومي يعكس العلاقة الصادقة بالله.

ومن أجمل الدروس في قصة يوسف عليه السلام أن الإحسان كان سِمَته في كل حال، سواء في قاع السجن مظلوماً، أو على عرش الملك قوياً. قيلت له نفس العبارة في موضعين متناقضين: "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٣٦) حين كان سجيناً، ثم

تكررت على لسان إخوته وهم لا يعرفونه عندما كان ملكاً (يوسف: ٧٨). لم تغيره الظروف، ولم تتبدل أخلاقه، بل ظل ثابتاً على مبادئه.

🔁 وهذا هو التعريف الحقيقي للالتزام: أن يكون العبد ثابتاً على الخير في كل الأحوال، سواء في المسجد أو البيت، مع الأصدقاء أو الغرباء، في الرخاء أو الشدة. أما المتلون الذي يتغير بحسب المكان والأشخاص، فليس من أهل الإحسان.

الطريق إلى النجاح في الدعوة يبدأ بالإحسان: إحسان في العبادة، وإحسان في المعاملة. فمن جمعهما، فتح الله له القلوب، وجعل في قوله وقعه، وفي أفعاله بركته.

الإحسان... جوهر الالتزام الحقيقي وشهادة الصدق

الإنسان الحق لا يكون بوجهين، ولا يتلون حسب المواقف. فمن كان محسناً حقاً، يجب أن يشهد له الجميع، في بيته كما في عمله، في المسجد كما في الشارع. لا يخدعك مدح الناس لك في مكان واحد إذا كان في مكان آخر يُقال عنك عكس ذلك تماماً. الالتزام لا يقتصر على المظهر العام أو الكلمات الرنانة، بل هو سلوك ثابت يظهر في كل بيئة، وكل علاقة.

🔶 الاختبار الحقيقي للالتزام هو أن تتفق جميع الشهادات عليك، سواء في المسجد، أو بين أهلك، أو في عملك. لا تغتر بمديح الناس لك في مكان، بينما في أماكن أخرى يُقال عنك العكس. فالمؤمن الصادق هو من يثبت على أخلاقه ومبادئه في كل الأحوال، سواء كان في موضع قوة أو ضعف.

"إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"

هذه الجملة لم تُقل ليوسف عليه السلام مرة واحدة فقط، بل قيلت له في حالتين متناقضتين تماماً: مرة وهو مظلوم في السجن، وأخرى وهو في أوج ملكه وسلطانه. وهذا يدل على أن المحسن لا يتغير بتغير الظروف، بل يبقى ثابتاً على قيمه ومبادئه، سواء كان في قمة الضعف أو في قمة القوة.

🔁 وهذا هو الفرق بين الملتزم الحقيقي والمنافق. فالمنافق قد يظهر التدين في المسجد، لكنه في البيت سيئ المعاملة، أو في العمل غير أمين، أو في الشارع متكبر.

أما الملتزم الحقيقي، فهو الذي يحافظ على نفس الأخلاق والسلوكيات في كل مكان، ومع الجميع، سواء كانوا أهله، أو أصدقاءه، أو حتى أعداءه.

المحسنون لا يخفون ولو حاولوا ذلك

كل إنسان يحمل في داخله سريرة، وهذه السريرة لا تلبث أن تظهر على ملامحه، وعلى فلتات لسانه. فإن كانت خبيئة الإنسان خيراً، أنار الله وجهه وجعل له القبول في الأرض، كما قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا" (مريم: ٩٦). فالقبول عند الناس ليس شيئاً يُشترى بالمال أو الشهرة أو التصنع، بل هو هبة من الله تُعطى للمخلصين الذين يعبدونه بصدق.

🔶 لا حاجة لكثرة الكلام عن نفسك، دع أفعالك تتحدث عنك. الناس لا يتأثرون بالكلمات بقدر ما يتأثرون بالأفعال. قد تتحدث كثيراً عن الأخلاق والقيم، لكن ما يرسخ في أذهان الناس هو سلوكك وتصرفاتك. فالإحسان الحقيقي يشع من الإنسان دون أن يحتاج إلى ترويج أو دعاية.

🔶 يوسف عليه السلام... نموذج الإحسان في كل الظروف

في ظلمة السجن، كان يوسف عليه السلام مثالاً للإحسان. لم يكن غارقاً في حزنه وظروفه الصعبة، بل كان مثالاً للعبادة والصبر، وكان يخدم المساجين، ويساعد المحتاج، ويعود المرضى، ويحسن إلى الجميع. هذا ما جعله يكسب قلوب من حوله، حتى قالوا له: "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٣٦).

وهذه قاعدة عظيمة في الدعوة: "اكسب القلوب بالإحسان قبل أن تدعوها بالكلام." الناس لا يستجيبون لمن يعظهم فقط، بل يتأثرون بمن يعاملهم بحب ورحمة. لذلك، إن كنت تريد أن تؤثر في الآخرين، فابدأ بالإحسان إليهم، وكن لهم عوناً وسنداً، قبل أن تطلب منهم أن يسيروا على طريقك.

المحسن يُعرف حتى في الظلم والابتلاء

هناك فائدة عظيمة أخرى في قصة يوسف: الرؤى والأحلام تكثر عند المظلومين والمبتلين. فقد كانت الرؤى أنساً للمساجين الذين عانوا من الظلم. وهذه سُنّة إلهية، حيث يكون للأحلام دور في التخفيف عن القلوب المحزونة، وتكون بشارات لهم في وسط الألم.

وهنا تأتي نصيحة نبوية ثمينة: "انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أحرى ألا تزدروا نعمة الله عليكم." فلا تنظر إلى من هو في حال أفضل منك، بل انظر إلى من يعاني أكثر منك، فهذا يخفف عنك بلاءك، ويجعلك تدرك نعم الله عليك.

كن محسناً في كل حال

- لا تكن بوجهين، بل اجعل التزامك وأخلاقك ثابتة في كل مكان ومع الجميع.
- المحسن الحقيقي لا يتغير بتغير الظروف، فهو نفسه في السجن وفي الملك.
- القبول عند الناس ليس بالكلام، بل بالإحسان الحقيقي والعلاقة القوية مع الله.
- الإحسان هو مفتاح التأثير في الآخرين، وهو أقوى وسيلة للدعوة.
- في البلاء، تذكر أن هناك من يعاني أكثر منك، واستمد القوة من الصبر والرضا.

"إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"... فهل أنت منهم؟

حكمة يوسف عليه السلام في الدعوة إلى الله

في قصة يوسف عليه السلام، نجد نموذجًا رائعًا لحسن الدعوة وربط القلوب بالله بأسلوب حكيم ومؤثر. عندما جاءه صاحبا السجن يسألانه عن تفسير رؤياهما، لم يبادر مباشرة بالإجابة، بل استغل الفرصة ليهيئ قلوبهما للإيمان والتوحيد.

قال تعالى: "قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي" [يوسف: ٣٧]. هنا يوسف عليه السلام لم يقل مباشرة: "سأفسر رؤياكما"، بل ربط الأمر بالرزق الإلهي، وكأنما يمهد لما هو أعظم، وهو التوحيد.

التدرج في الدعوة وربط القلوب بالله

لاحظوا كيف كان يوسف عليه السلام دقيقًا في كلماته، فقال "ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي"، فنسب العلم إلى الله، مغرسًا في قلوبهما أن كل الخير والعلم من عنده سبحانه. بل تأملوا في أدبه الجم مع الله! لم يقل أبدًا أن الله أدخله السجن، بل قال: ﷺ"وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ " [يوسف: ١٠٠]، مع أن دخوله السجن كان بتقدير الله أيضًا، لكنه لم ينسب إلا الإحسان إلى ربه.

هذا الأسلوب كان متأثرًا بتربية أبيه يعقوب عليه السلام، الذي قال له منذ صغره: "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث" [يوسف: ٦]. فها هو يوسف، بعد سنوات طويلة، يعبر عن هذا التعليم بنفس الكلمات: "ذلكما مما علمني ربي".

استغلال الفرص لخدمة الدعوة

🔶 بعد أن مهد لهما بهذا الأسلوب العميق، بدأ مباشرة بالدعوة إلى التوحيد، قائلاً: "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" [يوسف: ٣٧].

رغم أن السؤال كان عن تفسير الرؤيا، إلا أنه لم يتعجل الإجابة، لأنه أدرك أن هذه فرصة ذهبية للدعوة، حيث كانا بحاجة إليه وسينصتان باهتمام.

استثمار الحاجة الدنيوية لمصلحة الدين

🔶 ما فعله يوسف عليه السلام يبين أنه لا بأس بأن يستغل الداعية حاجة الناس إليه في أمور الدنيا، ليقربهم إلى الله، بشرط أن يكون ذلك بصدق وإخلاص.

مثال على ذلك:

■ الطبيب: عندما تأتيه فتاة مريضة لكنها غير محجبة، يمكنه أن ينصحها بالحجاب بأسلوب الأب الحنون.

■ المدرس: عندما يجلس الطلاب أمامه محتاجين إلى شرحه، يمكنه أن يوجههم بلطف عن الصلاة، التدخين، أو الأخلاق الحسنة.

🔁 هذا ليس إجبارًا، بل هو استغلال ذكي للحظات يكون فيها القلب متقبلًا للنصح، تمامًا كما فعل يوسف عليه السلام في السجن، حين تحدث عن الإحسان والتوحيد قبل أن يفسر الرؤيا، مما جعلهم يستمعون إليه بانتباه واهتمام.

■ الداعية الناجح هو من يعرف كيف يمهد للدعوة بأسلوب مؤثر.

■ التأثير الحقيقي يكون حين نربط القلوب بالله في كل شيء، حتى في أمور الدنيا.

■ لا بأس باستغلال حاجة الناس للدعوة، لكن دون منٍّ أو أذى، بل بإخلاص ومحبة.

■ الأدب مع الله سمة الصالحين، فننسب إليه الفضل والإحسان، ولا نتهمه بالبلاء.

هكذا كان يوسف عليه السلام... داعيةً حكيمًا، قبل أن يكون مفسرًا للرؤى!

يوسف عليه السلام كان حكيمًا في دعوته، فلم يكتفِ بتفسير الرؤى لمن طلبها، بل استغل الفرصة ليُمهِّد للحديث عن التوحيد. عندما جاءه الفتيان يسألانه عن رؤياهما، بدأ بلفت انتباههما إلى أن تفسيره للرؤى ليس مجرد مهارة ذاتية، بل هو علم علَّمه الله له، فربط القلوب بالله منذ البداية. ثم استغل حاجتهما لتفسير الرؤيا ليطرح قضية التوحيد بأسلوب غير مباشر، دون أن يشترط عليهما الإيمان قبل الإجابة.

هذا يختلف عن موقف الغلام في قصة الساحر، حيث كان يشترط على من يطلب منه الشفاء أن يؤمن أولًا، لأن حاجتهم كانت أشدّ، مما جعله يستثمر الموقف ليحقق أعظم فائدة للدعوة. أما يوسف عليه السلام، فقد وعى أن تفسير الرؤيا ليس حاجة ملحّة قد تدفع صاحبيها للإيمان فورًا، لذا اكتفى بتمهيد الحديث دون فرض شروط.

وفي موقفه مع الملك، أدرك أن اشتراط أي شيء على الملوك قد يكون سببًا لنفورهم، لذا فسّر الرؤيا مباشرة دون أي مقدّمات. هذا الإحسان غير المشروط كان له أثر كبير في نفس الملك، فطلب أن يستخلصه لنفسه، مما مكّن يوسف لاحقًا من نشر الخير والإصلاح في أرض مصر.

وهكذا، تعلّمنا هذه المواقف أن الدعوة تحتاج إلى حكمة، وفهم طبيعة الناس، واستغلال الفرص بأسلوب يناسب كل موقف. فليس كل موقف يتطلب أسلوبًا مباشرًا، كما أن ليس كل موقف يحتمل التلطف الزائد. المهم هو تحقيق الهدف الأسمى، وهو إيصال رسالة التوحيد بأسلوب يجذب القلوب ولا ينفّرها.

الحكمة في أساليب الدعوة

ثلاثة مواقف: للحكمه فى الدعوه

١- الغلام في قصة أصحاب الأخدود: كان يشترط الإيمان أولًا قبل أن يدعو الله بالشفاء، مستغلًا الحاجة الشديدة للناس ليكسب إيمانهم، لكن دون إجبار، بل بإقناع.

٢- يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن: عرض عليهم قضية التوحيد قبل أن يفسر رؤياهما، دون اشتراط، مستغلًا فرصة الحديث لكنه لم يضغط، حتى لا يعرض دعوته للرفض.

٣- يوسف عليه السلام مع الملك: قدّم تفسير الرؤيا مباشرة بلا شروط، لأن الملوك لا يقبلون الاشتراطات، لكنهم يقدرون الإحسان.

🔸 الأسلوب اللطيف في الدعوة

كما فعل مؤمن آل ياسين، استخدم يوسف عليه السلام تلطفًا في خطابه، فلم يواجه قومه مباشرة بأنهم كافرون، بل قال: "﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾". وهكذا يمكن للداعي أن يخاطب الناس بتلميح بدلاً من التصريح الجارح، كما في قول شخص: "نفسي أقوم أصلي، ما تيجي معي؟" بدلًا من "لماذا لا تصلي؟".

🔸 إبطال حجة اتباع الآباء

واجه يوسف عليه السلام حجة المشركين الذين يتمسكون باتباع آبائهم، فقال إنه اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، مما يسقط حجة أن الآباء دائمًا على صواب، ويوجه الحوار إلى إقامة الدليل بدلًا من التقليد الأعمى.

🔴 أعظم النعم: التوحيد

التوحيد هو النعمة الكبرى التي يجب شكرها، فكل شيء دونها قد يغفره الله، أما الشرك فلا مغفرة له. ومن أعظم الكلمات التي قيلت في ذلك قول ربعي بن عامر: "إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة."

🔸 الدعوة تحتاج إلى حكمة، وفهم نفسيات الناس، وتوظيف الأساليب المناسبة في الوقت المناسب. فمن الناس من يحتاج إلى شرط إيمان قبل النفع، ومنهم من يحتاج إلى تلميح، ومنهم من يكفيه الإحسان ليؤثر فيه.

🔸 فن الدعوة إلى الله بالحكمة واللين

الدعوة إلى الله تحتاج إلى أساليب حكيمة تناسب المخاطَبين، كما فعل يوسف عليه السلام في السجن، حيث لم يبدأ حديثه بالشكوى من الظلم، بل ركّز على أعظم نعمة، فقال: "﴿ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾"

🔸 وهنا درس عظيم: حين نذكر النعم تهون الابتلاءات. فبدل أن نغرق في الأحزان، فلنتأمل نعم الله الكثيرة، وسنجد أنها تفوق الابتلاءات.

أسلوب التلطف في الدعوة

عندما خاطب يوسف صاحبي السجن، لم يقل "يا مجرمين", بل قال: "يا صاحبي السجن". استخدم ألفاظًا تُشعرهم بالقرب دون أن يزكيهم، فاختار كلمات لطيفة دون أن يكذب، وهذه مهارة الداعية الناجح، كما نقول اليوم "شركاؤنا في الوطن" لتلطيف الحوار عند الدعوة.

إبطال حجة التقليد الأعمى للآباء

لما كان المشركون يتمسكون بحجة اتباع آبائهم، سبقهم يوسف بالحجة وقال: "يوسف (٣٨) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ". هنا يُسقط حجتهم قبل أن يطرحوها، فكأنه يقول: "إذا كان اتباع الآباء هو الدليل، فآبائي كانوا على التوحيد، فمن الأحق بالاتباع؟" وهكذا ينقل النقاش من التقليد إلى إقامة الدليل العقلي.

الحجة العقلية على التوحيد

سألهم يوسف بمنطق بسيط:

"أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ"

فإن كانت الآلهة متعددة، فلا بد أن تختلف، وإن اختلفت، فستتنازع، وحينها لن تستقيم الحياة. ولكن الكون مستقر، مما يدل على أن الإله واحد، كما قال تعالى: "الأنبياء (٢٢) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ".

ثلاث ركائز في الدعوة الناجحة

من دعوة يوسف عليه السلام نستخلص ثلاث أدوات أساسية للداعية:

١- الإحسان: تقديم النموذج الحي في التعامل والسلوك.

٢- الأدلة العقلية: مخاطبة العقول بالحجج الواضحة.

٣- التأثير العاطفي: مخاطبة القلوب بالكلام المؤثر.

الداعية الناجح هو من يجمع بين هذه الثلاثة، فيكسب قلوب الناس وعقولهم، ويكون قدوة بأفعاله قبل كلماته.

فن الدعوة بالحكمة والتأثير النفسي

🔶 يوسف عليه السلام قدّم نموذجًا بديعًا للدعوة إلى الله، حيث جمع بين الإحسان في التعامل، والمنطق العقلي، والتأثير العاطفي، مما جعله يخاطب العقول والقلوب معًا.

١- التلطف في الخطاب

عندما خاطب رفاقه في السجن، لم ينفرهم أو يواجههم بقسوة، بل قال: "يا صاحبي السجن". لم يكونوا أصحابه المقربين، بل كانوا مشركين ومتَّهمين بجرائم، لكنه استخدم عبارة تجمع بين التودد والصدق، تمامًا كما نقول اليوم: "شركاؤنا في الوطن" لتهدئة الحوار عند الدعوة.

٢- التأثير النفسي العميق: اختيار الأسماء الإلهية بعناية

لم يكن اختيار يوسف لاسمي "الواحد القهار" اعتباطيًا، بل كان يحمل رسالة نفسية قوية تتناسب مع حالة المسجونين:

■ "الواحد": لأن المسجون في شدته لا يلجأ إلا إلى الله، فقد تلاشت أمامه كل الأرباب التي كان يعبدها خارج السجن، ولم يبقَ له إلا الإله الحق.

■ "القهار": لأن كل سجين يشعر بالقهر والظلم، ولا يجد من ينصره، فيحتاج إلى من يقهر ظالمه ويمتلك أمره. فالله هو القهار فوق كل ظالم، وهو الملجأ الوحيد لمن لا حول له ولا قوة.

٣- الحجة العقلية: تفكيك أساس الشرك

بعد التأثير النفسي، عاد يوسف إلى المنطق ليهدم فكرة تعدد الآلهة، فقال: "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ". وهنا فضح زيف الآلهة، حيث أوضح أنها مجرد أسماء اخترعها البشر، وليس لها أي سلطان حقيقي.

ثم أشار إلى مغالطة التقليد الأعمى، فكما أنهم يبررون عبادتهم للآلهة باتباع الآباء، فقد سبقهم يوسف بنفس المنطق، لكنه قال: "يوسف (٣٨) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ ". وهكذا أسقط حجتهم قبل أن يطرحوها، وأثبت أن الأجدر بالاتباع هم الصالحون الموحدون.

🔶 **يوسف عليه السلام جمع بين ثلاثة أركان أساسية في الدعوة الناجحة:**

١- الإحسان: أن يكون الداعية قدوة بأفعاله قبل كلماته.

٢- التأثير النفسي: اختيار الكلمات التي تمس القلوب وتخاطب مشاعر المستمعين.

٣- الأدلة العقلية: تقديم الحجج المنطقية التي تهدم الباطل وتقيم الحجة.

بهذه الطريقة، يصبح الداعية مؤثرًا وناجحًا، يجمع بين العقل والقلب، ويقدم الإسلام في أجمل صورة.

🔴 **فن الحوار في دعوة يوسف عليه السلام**

يوسف عليه السلام استخدم أسلوبًا متكاملًا في الدعوة، حيث ردّ على ثلاث شبهات رئيسية بطرق عقلية مقنعة، مع توظيف التأثير النفسي والتلطف في الخطاب.

الشبهات الثلاث والرد عليها:

١- اتباع الآباء:

- الرد: "سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان".

- أي أنكم تتبعون آباءكم بلا دليل، وأنا آبائي كانوا على التوحيد، فليس الآباء حجة، بل الحق يُعرف بالدليل.

٢- اتباع أوامر الملوك:

- الرد: "إن الحكم إلا لله".

- الحكم الحقيقي لله، وليس للملوك الذين يأمرونكم بالشرك. والله، الملك الحق، أمر بعبادته وحده.

٣- اتباع الأكثرية:

- الرد: "ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

- الحق لا يُقاس بالكثرة، بل بالدليل، ولو كان الحق مع القلة، فالواجب اتباعه.

🔶 **منهج يوسف في الدعوة:**

✓ **السلوك الإيجابي: جذب الناس بأفعاله قبل أقواله.**

✓ **التأثير النفسي: اختيار الأسماء الإلهية بدقة (الواحد القهار).**

✓ **المنطق العقلي: تفنيد حجج الشرك بالدليل.**

🔶 **بهذا الأسلوب، قدّم يوسف عليه السلام نموذجًا في الحكمة والإقناع، مهددًا قلوب السامعين لقبول الحق. ثم انتقل إلى تفسير الرؤيا، بعد أن هيأ عقولهم لتقبل رسالته.**

المحاضرة السابعة
الرؤيا العجيبة

○ المقدمة ○

🔶 **تتناول هذه الآيات الكريمة من سورة يوسف تأكيد يوسف عليه السلام على أن الحكم لله وحده، حيث يربط بين الحكم والعبادة، ويبرز أن التحاكم إلى شرع الله جزء من توحيده، كما يوضح الفارق بين الحكم الكوني والحكم الشرعي، ويوضح أهمية الامتثال لأحكام الله في حياة المؤمن.**

⬅️ **أولًا: تقسيم الحكم الإلهي**

١- الحكم الكوني: هو تدبير الله المطلق للكون، فلا يقع شيء إلا بمشيئته، كخلق الكائنات، وقدره في الأرزاق والأحداث. وهو أمر متفق عليه بين المؤمنين، حيث قال تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (يس: ٨٢).

٢- الحكم الشرعي: هو الأوامر والنواهي التي أنزلها الله لتكون منهاجًا للناس في عباداتهم ومعاملاتهم. وهو ليس كونيًا، إذ قد يأمر الله بشيء ولا يفعله الناس، كالأمر بالصلاة والزكاة، ومع ذلك هناك من يعصي هذه الأوامر.

🔹 ثانيًا: النزاع في الحكم الشرعي

🔸 المشركون في كل العصور لم يعارضوا الحكم الكوني، لكنهم أنكروا الحكم الشرعي، فشرّعوا لأنفسهم أحكامًا تخالف ما أنزل الله، كما قال تعالى عنهم: "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ" (الأنعام: ١٣٨)، ووصفهم بالافتراء والكذب.

🔹 ثالثًا: التحاكم إلى الله عبادة

يربط يوسف عليه السلام الحكم بالعبادة، فيقول: "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" (يوسف: ٤٠)، مما يدل على أن القبول بحكم الله جزء من التوحيد، كما قال تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ" (الأحزاب: ٣٦).

🔹 رابعًا: رفض التحاكم لغير الله

التحاكم إلى غير شريعة الله يُعد خضوعًا لغيره، وكأنما عبد غيره، فكما لا يجوز السجود لغير الله، لا يجوز قبول شرع غيره، قال تعالى: "وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ" (الشورى: ١٠).

⏪ إن الإيمان لا يكتمل إلا بالإقرار بحكم الله في الكون والشرع معًا، فلا يقتصر التوحيد على الاعتراف بأن الله هو الخالق المدبر، بل يجب الامتثال لأحكامه في كل نواحي الحياة، فالإسلام استسلام كامل لله، قولًا وعملًا وتحاكمًا.

يؤكد الله تعالى في كتابه أن الإيمان الحق لا يكتمل إلا بالاحتكام إلى شرعه والتسليم المطلق لحكمه دون تردد أو حرج. فمن يشرّع مع الله، أو يستبدل حكمه بحكم البشر، فقد وقع في الشرك، كما جاء في قوله تعالى: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ" (الشورى: ٢١).

ويحذر الله من المنافقين الذين يدّعون الإيمان لكنهم يرفضون التحاكم إلى شرعه، مفضلين القوانين الوضعية على ما أنزله الله، وهؤلاء قد وصفهم الله في قوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا" (النساء: ٦١).

وبذلك، يصبح الاعتقاد بأن شرع الله هو الحق المطلق من صميم العقيدة والتوحيد، حتى لو لم يكن الفرد متورطًا في التشريعات أو القضاء. فالواجب على كل مسلم أن يعتقد يقينًا أن الحكم لله وحده، ولا يجوز تبديله أو تغييره وفق الأهواء أو التطورات الزمنية، لأن "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" (يوسف: ٤٠).

وفي قصة يوسف عليه السلام، يتجلى بُعدٌ إنساني رائع، حين فسّر رؤيا صاحبيه في السجن دون تحديد من منهما سينجو ومن سيُصلب، رغم وضوح الأمر. فقد اختار التلميح بدل التصريح، رحمةً بصاحب المصير المؤلم، ليبقى لديه بصيص أمل، إذ إن "انتظار البلاء بلاء قبل البلاء"، وتوقع المصائب قد يكون أشد وطأة من وقوعها.

وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام أن الرفق بالمشاعر أحيانًا أولى من الصراحة المطلقة، وأن الحكمة في الكلام قد تخفف من وقع الأقدار المحتومة.

رحمة الإنسان وإخفاء البلاء عن الضعفاء: دروس من قصة يوسف عليه السلام

🔶 الرحمة والشفقة من أسمى القيم الإنسانية، وتتجلى في مواقف كثيرة، منها عدم مواجهة الشخص الضعيف بما ينتظره من بلاء إذا لم يكن هناك فائدة من إخباره. فالطبيب، حين يخبر أبناء المريض بخطورة حالته، فإنهم بدافع الرحمة لا يُشعرونه بحقيقة مرضه، بل يطمئنونه ويحثونه على العلاج. هذه ليست خداعًا، بل شفقة ورحمة تخفف عن المريض وطأة المرض. وكذلك كان يوسف عليه السلام في موقفه مع صاحبي السجن.

🔁 تعبير الرؤى عند الأنبياء: يقين لا يحتمل الخطأ

عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا صاحبي السجن، حسم الأمر قائلاً: "قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ". وتفسير الأنبياء يختلف عن تفسير غيرهم، فهو وحي من الله، لا مجال فيه للخطأ، بعكس البشر العاديين الذين قد يصيبون أو يخطئون في تأويل الأحلام.

وقد أكد النبي ﷺ هذا المفهوم بقوله: "الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ". أي أن الرؤيا تظل معلقة حتى تُفسر، فإذا فُسرت تفسيرًا صحيحًا، كان ذلك سببًا في وقوعها. لذا يُنصح من يرى رؤيا سيئة ألا يخبر بها أحدًا، بل يستعيذ بالله منها، في حين أن الرؤيا الحسنة يمكن أن تُعرض على شخص يُؤتمن على تفسيرها.

🔸 بلاغة يوسف عليه السلام في التعامل مع صاحبي السجن

عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا الرجلين، لم يُخبر الذي سيُعدم بذلك علنًا، بل أبلغ الآخر الذي سينجو سرًا حتى لا يزيد من معاناة المحكوم عليه. ثم أوصى الساقي الذي سينجو بأن يذكره عند الملك لعله يُنصف ويخرج من السجن.

معنى "الظن" في القرآن الكريم

في قوله تعالى: "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا"، جاءت كلمة "ظن" بمعنى اليقين، وليس بمعنى التوقع أو الشك. فالقرآن يستخدم كلمة "الظن" بعدة معانٍ، فقد تعني العلم اليقيني كما في: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ". وقد تعني الظن الراجح، أي الاحتمال القوي، كما قد تعني الظن المرجوح أو الوهم كما في: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ" أي التوهم الذي لا أساس له.

نسيان الساقي وتأخير الفرج

بعد أن نجا الساقي من السجن، نسي وصية يوسف عليه السلام ولم يذكره عند الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين، قيل إنها خمس أو سبع سنوات. لكن هذا التأخير لم يكن عبثًا، بل كان جزءًا من تدبير الله لحكمة بالغة، حتى يأتي الوقت المناسب لخروجه بكرامة وسلطان، لا بوساطة بشرية زائلة.

🔴 دروس مستفادة

- ■ الرحمة تقتضي ألا يُواجه الضعيف ببلائه إذا لم يكن في ذلك فائدة.
- ■ تفسير الأنبياء للرؤى يقين لا يحتمل الخطأ، بعكس غيرهم.
- ■ الرؤيا السيئة يجب كتمانها، أما الحسنة فيُطلب تفسيرها ممن يُؤتمن.
- ■ البلاغة في الحديث ومراعاة مشاعر الآخرين من صفات الأنبياء.
- ■ تأخر الفرج قد يكون لحكمة إلهية أعظم مما نظن.

بهذه الدروس العظيمة، يتضح لنا أن قصة يوسف عليه السلام ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي كنز من العبر والحكم التي تهدي النفوس إلى الحكمة والصبر والثقة بتدبير الله.

↩ براءة يوسف عليه السلام من اللوم في طلب العون

تُثار أحيانًا تساؤلات حول ما إذا كان يوسف عليه السلام قد أخطأ حين طلب من الساقي الناجي أن يذكره عند الملك، وهل كان ذلك دليلًا على ضعف في التوكل على الله؟ يستدل بعض المفسرين بقوله تعالى: "فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" [يوسف: ٤٢]، ليقولوا إن "فأنساه" تعود على يوسف، بمعنى أن الشيطان أنساه ذكر ربه، فعاتبه الله على ذلك، مما أدى إلى بقائه في السجن فترة أطول.

🔶 لكن عند التأمل في الآية وسياق القصة، نجد أن هذا التفسير ليس هو الأصح، بل هناك رأي آخر أكثر اتساقًا مع المنطق وأصول العقيدة، وهو ما سنوضحه بتفصيل مستند إلى قواعد شرعية واضحة.

↩ أولًا: هل كان طلب يوسف عليه السلام مخالفًا للتوكل؟

التوكل على الله لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، بل هو الجمع بين العمل والسعي وبين الاعتماد القلبي الكامل على الله. وقد عرّف العلماء التوكل بأنه: "الأخذ بالأسباب المشروعة مع عدم الاعتماد عليها، بل على الله وحده".

↩ تطبيق ذلك في حياة يوسف عليه السلام:

- كان يوسف في السجن ظلمًا، ووجد فرصة سانحة لعرض قضيته أمام من بيده الحل، فطلب من الساقي الناجي أن يذكره عند الملك.
- هذا الفعل لا يُعد تقليلًا من التوكل، بل هو أخذ بالأسباب المشروعة لدفع الضرر عنه، كما أن طلب الشفاعة أمر مشروع، بل ورد عن النبي ﷺ قوله: "اشفعوا تؤجروا".
- لمّا خرج الساقي ونسي أمر يوسف، لم يضطرب يوسف، ولم يُظهر سخطًا أو جزعًا، بل استمر في تسليم أمره لله، مما يدل على كمال توكله.

مقارنة مع النبي محمد ﷺ:

■ في الهجرة، أخذ النبي ﷺ بكل الأسباب الممكنة، من التخطيط الدقيق، واتخاذ مسارات غير متوقعة، والاختباء في غار ثور، ثم التوكل على الله، فقال لأبي بكر: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

■ لمّا اقترب المشركون من الغار، لم يضطرب النبي ﷺ، وهذا هو التوكل الحقيقي: الأخذ بالأسباب دون تعلّق بها.

⬅ ثانيًا: مراتب أقدار الله وموقف الإنسان منها

لفهم موقف يوسف عليه السلام، لا بد من معرفة كيفية تعامل الإنسان مع أقدار الله، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- قدر لا يمكن تغييره:

- مثل: الجنس، الطول، العرق، وبعض الأمراض المزمنة.

- الموقف: التسليم والرضا والاحتساب.

٢- قدر يمكن تغييره بالأخذ بالأسباب:

- مثل: المرض (بالعلاج)، الفقر (بالسعي والعمل)، السجن ظلمًا (بالدفاع عن النفس أو طلب العون).

- الموقف: السعي في تغييره وفق السنن الكونية، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام عندما طلب من الساقي أن يذكره عند الملك.

٣- قدر يجب تغييره:

- وهو المعصية.

- الموقف: التوبة الفورية وعدم الاستسلام للذنب بدعوى أنه قدر محتوم.

يوسف عليه السلام كان في موقف يندرج تحت النوع الثاني، أي قدر يمكن تغييره، وقد سعى في ذلك بطريقة مشروعة، فلا وجه للعتاب عليه.

⬅️ ثالثًا: لماذا بقي يوسف في السجن بضع سنين؟

إذا لم يكن في طلب العون أي خطأ، فلماذا ذكر الله أن يوسف عليه السلام "لبث في السجن بضع سنين"؟

التفسير الأرجح أن الضمير في "فأنساه الشيطان ذكر ربه" يعود على الساقي وليس على يوسف، أي أن الشيطان أنسى الساقي أن يذكر يوسف عند الملك، وليس أن يوسف نسي ذكر الله.

■ هذا المعنى هو الأشهر في التفاسير، وهو الموافق للمنطق، إذ كيف يُتصور أن يوسف عليه السلام، الذي كان نموذجًا في الصبر والإيمان، ينسى ذكر الله؟

■ لو كان السبب هو خطأ من يوسف، فلماذا لم يُعاقب مباشرة بعد طلبه، بل كان التأخير بسبب نسيان الساقي؟

إذن، بقاؤه في السجن لم يكن عقابًا له، بل كان جزءًا من تدبير الله له، ليخرج في الوقت المناسب ويصبح عزيز مصر.

حكمة القصة وعبرة التوكل الحقيقي

■ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل هو جزء منه، كما ظهر في موقف يوسف عليه السلام.

■ ليس كل تأخير هو عقوبة، بل قد يكون لحكمة إلهية، كما حدث مع يوسف حين تأخر خروجه ليكون ذلك في الوقت الذي سيؤدي إلى رفعته وتمكينه.

■ عند مواجهة الأقدار، يجب علينا معرفة نوعها والتعامل معها وفق الشرع: الصبر والتسليم فيما لا يمكن تغييره، السعي في تغيير ما يمكن تغييره، والتوبة مما يجب تغييره.

🔶 بهذا يتضح أن يوسف عليه السلام لم يُعاقب على طلب العون، بل كان هذا الطلب مشروعًا، ونتيجة تأخر استجابة الساقي كانت جزءًا من تدبير الله لحكمة أعظم.

النسيان.. سلاح الشيطان في معركته مع الإنسان

الشيطان لا يحتاج إلى أسلحة كثيرة، فخطته الكبرى تُختصر في كلمة واحدة: النسيان. أن يُنسيك ذكر الله، يُنسيك آخرتك، بل حتى مصالحك الدنيوية. إنها حيلة قديمة، استخدمها مع آدم عليه السلام عندما أنساه العهد، واستمر في استخدامها مع بني آدم حتى يومنا هذا.

تأمل قوله تعالى: "فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ" [يوسف:٤٢]، من الذي نسي؟ ليس يوسف عليه السلام، بل الساقي، لأن الشيطان لا يتسلط على قلوب الأنبياء، وإنما يغوي من كانت نفسه مستعدة للنسيان والضعف.

🔁 النسيان هو أداة الشيطان لإبعادك عن الطاعات، عن القرآن، عن الصلاة، عن الخير. قد تُفوت صلاةً لأنك انشغلت، أو تتجاهل ذكر الله لأن هموم الدنيا ألهتك. لكن الحل واضح: الذكرى. قال تعالى: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ" [الذاريات:٥٥].

القرآن وحي متكرر، والآيات تُعاد لنظل متيقظين. الدروس والمواعظ ليست ترفًا، بل هي سلاحك ضد الغفلة. استمع، اقرأ، تدبر، وابقَ في دائرة التذكر حتى لا تقع فريسة للنسيان الذي يريد الشيطان أن يسجنك فيه.

السجن.. محنة أم منحة؟

حين نقرأ قول الله تعالى: "فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" [يوسف:٤٢]، ندرك أن يوسف عليه السلام قضى سنوات طويلة في السجن، قيل إنها خمس أو سبع أو ربما تسع سنوات. لكنها لم تكن سنوات من الذل والانكسار، بل كانت خلوة إيمانية، كانت عزلة عن الفتن، كانت محطة إعداد لقادم أعظم.

🔶 لو تأملنا حياة يوسف عليه السلام، لوجدنا أن الله كان يحميه في كل مرحلة. عندما بدأت المكائد تُحاك له في بيت أبيه، نقله الله إلى بيت العزيز، فلما اشتدت عليه الفتنة هناك، نقله الله إلى السجن. لم يكن السجن عقوبة، بل كان قشرة تحيط به ليكتمل، ليخرج أقوى وأطهر، ليصبح عزيز مصر.

في السجن، تحرر يوسف عليه السلام من كل شيء، من قيود العادات، من التقاليد، من الشهوات، بل من الدنيا كلها. كأنه كان في اعتكاف طويل، والاعتكاف يعلّمك أنك كنت أسيرًا لما ظننته ضروريًا، لكنه في الحقيقة زائل. في البداية، يشعر المعتكف

بالضيق، لكنه في النهاية يدرك أنه تحرر، كذلك كان حال يوسف في السجن، حتى استوت عنده القصور والزنزانة، وأصبح الملك عنده لا يساوي شيئًا.

وحين جاءه الداعي يقول له إن الملك يطلبه، لم يهرع للخروج، بل قال: "ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ". لم يكن يوسف مستعجلًا، لأنه أدرك أن اختيار الله له أفضل من اختياره لنفسه. لو ذُكر يوسف مبكرًا، لربما عاد إلى خدمة الملك، لكن الله أراد له أن يخرج عزيزًا، لا منة لأحد عليه، بل هو صاحب المنة على الجميع.

الدروس المستفادة:

- السجن ليس مذلة للمؤمن، بل قد يكون حماية وإعدادًا لمكانة أعظم.
- اختيار الله لعبده خيرٌ من اختياره لنفسه، فارضَ بقدره.
- لا تحزن إن طال البلاء، فربما يكون طريقك إلى العز والتمكين، كما خرج يوسف من السجن ليُقال له: "يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ".

تدبير الله العجيب في قصة يوسف عليه السلام

كانت رحلة يوسف عليه السلام مليئة بالابتلاءات والتقلبات العجيبة، لكنه كان دائمًا في رعاية الله، ينتقل من محنة إلى أخرى، لكن لكل محنة حكمة وغاية. دخل السجن ظلمًا، لكنه لم يكن مجرد سجن، بل كان مدرسة إيمانية وميدانًا للعبادة والتدبر، وخلوة مع الله أعدته لمهمته الكبرى.

الرؤيا التي غيّرت مسار الأحداث

في هذه المرحلة، شاءت إرادة الله أن يرى الملك رؤيا أرقته، حيث رأى سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنابل خضر وأخرى يابسات. لم تكن هذه مجرد رؤيا عادية، بل كانت مفتاحًا لخروج يوسف من السجن وإعلائه في مقام الحكم. حاول مستشارو الملك تفسيرها، لكنهم فشلوا، فأجابوا بأن الرؤيا مجرد "أضغاث أحلام"، مما زاد من إصرار الملك على معرفة تفسيرها، وهو أمر غير مألوف، إذ أن كثيرًا من الناس يرون أحلامًا ولا يهتمون بتفسيرها. لكن إلحاح الملك كان جزءًا من تدبير الله لرفع شأن يوسف عليه السلام.

التدبير الإلهي في تذكر الساقي ليوسف

من أعجب مشاهد هذه القصة أن ساقي الملك، الذي كان مسجونًا مع يوسف عليه السلام، سمع حديث الملك عن الرؤيا، فخطر له على الفور يوسف. لكن العجيب أنه لم يتذكره طيلة السنوات التي قضاها خارج السجن، وكأنه كان منتظرًا اللحظة المناسبة، حتى جاء هذا الموقف فتذكره فجأة. قال للملك بثقة: "أنا أنبئكم بتأويله"، وطلب الإذن للذهاب إلى يوسف ليسأله عن التفسير.

حكمة يوسف وكرامته في السجن

عندما جاء الساقي إلى يوسف عليه السلام، لم يشترط الخروج مقابل تفسير الرؤيا، بل قدم التفسير كاملًا دون مقابل، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه لله، فلم يكن يسعى لمصلحة شخصية. فسّر يوسف الرؤيا بأنها تعني سبع سنوات من الخير يعقبها سبع سنوات من القحط، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه الغيث والرخاء. لكن الأهم من ذلك أنه قدم للملك خطة اقتصادية لمواجهة الأزمة، فأثبت أنه ليس مجرد مفسر أحلام، بل رجل دولة قادر على إدارة الأزمات.

إصرار يوسف على إثبات براءته قبل الخروج

بعد أن عاد الساقي إلى الملك وأخبره بالتفسير، أدرك الملك أن هذا التفسير لا يمكن أن يكون من عقل ساقي خمر، فطلب إحضار يوسف. لكن يوسف لم يخرج مباشرة، بل أصر على أن يُحقق في قضيته أولًا، ليُثبت براءته قبل أن يغادر السجن، فقال: "ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ". وهنا تجلّت كرامته وعزته، فلم يكن ليقبل الخروج بعفو ملكي دون رد اعتباره.

نهاية الابتلاء ورفعة يوسف

بعد التحقيق، اعترفت امرأة العزيز بالحق، وقالت: "الآن حصحص الحق"، فظهرت براءة يوسف عليه السلام، ليخرج ليس فقط من السجن، بل ليصبح عزيز مصر. كان السجن يبدو وكأنه نهاية مؤلمة، لكنه كان في الحقيقة طريقًا إلى التمكين.

دروس عظيمة من القصة

١- تدبير الله يفوق كل الأسباب: فمن كان يظن أن منام الملك سيكون مفتاح خروج يوسف من السجن؟

٢- قد يكون حرمان غيرك تدبيرًا لك: فقد حُرم مستشارو الملك من تفسير الرؤيا، ليكون ذلك سببًا في وصول يوسف عليه السلام.

٣- الصبر على البلاء يقود إلى العزة: فكما قال الله: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

٤- لا تتعجل الفرج، فالله يُمهّد لك الطريق: يوسف لم يسعَ للخروج بأي وسيلة، لكن الله أخرجه بطريقة فيها عزته وكرامته.

٥- الابتلاءات قد تكون أبوابًا للنعم: السجن، الذي ظنه الجميع محنة، كان في الحقيقة تمهيدًا ليوسف ليحكم مصر.

إنها قصة مليئة بالعبر، تُعلمنا أن الله يدبر الأمور بحكمة، وأن كل محنة قد تكون طريقًا إلى نعمة، فقط علينا الصبر والثقة في الله.

» الساقي بين الانتهازية وإحسان يوسف عليه السلام

بعد أن رأى الملك رؤياه المقلقة، وقف مستشاروه عاجزين عن تفسيرها، حتى تذكر ساقي الملك فجأة يوسف عليه السلام، ذلك الصديق الذي نسيه طيلة السنوات الماضية. قال للملك بثقة زائفة: "أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ"، وكأنه هو صاحب العلم، بينما لم يكن سوى وسيط انتهازي وجد في الموقف فرصة للظهور.

لم يطلب سوى مهلة قصيرة ليذهب إلى السجن ويعود بالإجابة، دون أن يبدي أي ندم أو اعتذار على نسيانه ليوسف كل تلك المدة. لم يقل: "سامحني، لقد نسيتك"، لم يحاول حتى تبرير موقفه. بل دخل على يوسف مباشرة، مستخدمًا لقبًا يعرف أنه سيفتح له باب الإحسان: "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا". لم يذكر الملك، ولم يقل إن الرؤيا تخصه، خشية أن يضع يوسف شرطًا للخروج أو أن يفقد هو فرصة التقرب من الملك.

🔶 ورغم ذلك، لم يعاتبه يوسف عليه السلام، لم يسأله لماذا نسيه، لم يؤنبه، بل أجابه مباشرة بحلم المصلحين: أن يُحسن حيثما وُضع، وأن ينفع الناس ولو خانه الأقربون. هذه عظمة يوسف، وهذه رحمة الله التي أراد أن تكون المنّة له وحده، فلا يُنسب الفضل في نجاته لأحد سوى تدبير الله العجيب.

🔴 حكمة يوسف عليه السلام

: دروس في الإيثار والإصلاح

حينما استعصى على أصحاب الملك تفسير رؤيا الملك، أنقذوا البلاد دون أن يدركوا، بكلمة بسيطة: "لا ندري". فحين يعترف الإنسان بجهله، فإنه يفتح الباب للوصول إلى العلم الصحيح. أما من يتكلم بغير علم، فإنه يضلل الناس ويوقف البحث عنده، مما يؤدي إلى قرارات خاطئة قد تجر الويلات. الاعتراف بعدم المعرفة هو في حد ذاته خدمة عظيمة، لأنه يدفع السائل للبحث عن الإجابة الصحيحة من أهل الاختصاص.

وحينما احتاج الساقي إلى يوسف عليه السلام، هرع إليه مستعجلًا، مناديًا: "يَا أَيُّهَا الصِّدِّيقُ". لم يعتذر عن نسيانه، ولم يبرر تقصيره، بل جاء مباشرة بطلبه، لأنه كان واثقًا من إحسان يوسف عليه السلام. وهنا نرى سلوكًا بشريًا متكررًا؛ فحينما يحتاج الناس إليك، يسرفون في الثناء والمديح، وقد ينسبون إليك ألقاب العظمة والمكانة. ولكن لا ينبغي للإنسان أن يغترّ بهذه الكلمات، فهي غالبًا لا تعبر عن حقيقة ثابتة، بل عن حاجة عابرة.

🔁 لكن لماذا أجاب يوسف عليه السلام بسرعة ولم يعاتب الساقي على نسيانه؟ كان بإمكانه أن يشترط خروجه من السجن قبل أن يفسر الرؤيا، لكنه لم يفعل. لماذا؟ لأن يوسف عليه السلام أدرك فور سماع الرؤيا أنها ليست حلمًا عاديًا، بل رؤيا مصيرية تتعلق بمستقبل البلاد. لقد فهم ببصيرته النبوية أن من رأى هذه الرؤيا شخص ذو مكانة عظيمة، غالبًا الملك، لأنها تتعلق بمجاعة تمتد لسنوات طويلة. كما أن ارتباك الساقي ولهفته على التفسير كانا دليلًا آخر على خطورة الأمر، مما جعل يوسف عليه السلام يضع مصلحة الأمة فوق مظلمته الشخصية.

لم يفكر في الانتقام، لم يطالب بخروجه من السجن أولًا، ولم يضيع الوقت في اللوم والعتاب، بل أسرع إلى الحل قائلاً: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ". لم يكتفِ بالتفسير، بل أضاف النصيحة والتوجيه العملي لإنقاذ البلاد من المجاعة، مما يدل على نظرته العميقة لمسؤولياته.

🔴وهنا نتعلم درسًا عظيمًا: المصلح الحقيقي هو الذي يقدم مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية. فلو كان يوسف عليه السلام قد فكر فقط في نفسه، لكان طالب بحريته أولًا، لكنه كان يرى الصورة الكبرى، ويضع الخير العام فوق مكاسبه الفردية. هذه هي عقلية الأنبياء، عقلية القادة العظماء، الذين لا يساومون على الحق ولا يجعلون قضاياهم الشخصية حاجزًا أمام خدمة الناس.

هذا المشهد يعكس فلسفة الإصلاح الحقيقية: أحيانًا يكون الإنسان مظلومًا، لكنه يضحي بحقوقه الشخصية من أجل مصلحة أعظم. يوسف عليه السلام كان بإمكانه أن يصر على خروجه قبل تقديم المساعدة، لكن هل كانت البلاد ستتحمل تأخير الحل؟ هل كان الملك سينتظر مساومة؟ ربما كان سيبحث عن مفسر آخر، وربما كان تفسير آخر خاطئ سيقود البلاد إلى كارثة.

⏪في النهاية، نجح يوسف عليه السلام في إنقاذ مصر من مجاعة محققة، ليس لأنه كان الأقوى أو الأكثر نفوذًا، ولكن لأنه كان الأكثر حكمةً وإيثارًا. فالإصلاح لا يعني فقط تحقيق العدل، بل يعني أيضًا تقديم المصلحة العامة ولو على حساب الظلم الشخصي، إذا كان ذلك سيؤدي إلى خير أعظم.

وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام أن القائد والمصلح ليس من يبحث عن مكاسبه الشخصية، بل من يرى أبعد من ذلك، ويعمل من أجل الصالح العام، حتى وإن كان الثمن مظلمة يتحملها بصبر الأنبياء.

حكمة يوسف عليه السلام

: دروس في التدبير والإصلاح

عندما فسر يوسف عليه السلام رؤيا الملك، لم يكتفِ بالتفسير فحسب، بل أضاف إليها توجيهات اقتصادية وخطة لمواجهة الأزمة القادمة. قال: "إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ" (يوسف: ٤٨)، أي احرصوا على تقليل الاستهلاك وعدم الاغترار بكثرة المحصول، لأن السنين العجاف قادمة. ثم أكد: "ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ" (يوسف: ٤٨)، مشيرًا إلى أهمية التخزين الجيد، حيث لن يبقى إلا القليل إذا أُحسن حفظه.

لكن المفاجأة الكبرى كانت في الآية التي لم تكن ضمن الرؤيا الأصلية: "ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ" (يوسف: ٤٩). هذه البشارة لم تأتِ في الرؤيا التي رواها الملك، بل جاءت بوحي من الله إلى يوسف عليه السلام، ليمنح الناس الأمل بعد الشدة. في هذا العام، سينزل الغيث، وستفيض الأنهار، وسينبت الزرع بوفرة، حتى يتمكن الناس من إنتاج العصير والزيت والحليب.

ما يلفت الانتباه هنا هو كرم يوسف عليه السلام وصبره. كان بإمكانه الاكتفاء بتفسير الرؤيا فقط، لكنه لم يفعل. قدم للملك:

1. تفسيرًا دقيقًا للرؤيا.
2. خطة اقتصادية لمواجهة الأزمة.
3. تحذيرات من سوء التدبير والإسراف.
4. إضافة بشرى لم ترد في الرؤيا الأصلية، لكنها ستثبت صحتها لاحقًا، مما يعزز مصداقيته.

لم يفكر يوسف عليه السلام في مصلحته الشخصية، لم يطلب الخروج من السجن أولًا، ولم يشترط أي شيء. كان همه الأول هو إنقاذ الأمة من كارثة محققة، ولو كان ذلك على حساب بقائه في السجن. وهذا ما عجب منه النبي محمد ﷺ حين قال: "لقد عجبتُ من يوسفَ عليه السلام، وصبرِه وكرمِه. والله يغفر له حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترط أن يخرجوني."

وهكذا، يعلمنا يوسف عليه السلام درسًا عظيمًا في الإيثار، إذ كان بإمكانه أن يشترط خروجه، لكنه لم يفعل. كان يفكر بعقلية المصلح، الذي يقدم مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية. كما أن إضافته للبشارة الإلهية كانت المفتاح الذي جعل الملك يشك في الساقي، ويدرك أن يوسف عليه السلام ليس مجرد مفسر أحلام، بل رجل ذو علم وحكمة.

دروس مستفادة:

١- لا تغتر بكثرة الدخل، فالأيام لا تدوم على حال، وكن حريصًا على الادخار.

٢- في الأزمات، الحل يكون بمضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، كما أوضح يوسف عليه السلام.

٣- المصاعب قد تحمل في طياتها الخير، كما أن السبع الشداد كانت سببًا في نجاة يوسف عليه السلام.

٤- الفرج يأتي بعد الشدة، وهذه سنة الله في الكون.

٥- إن كان الله يغيث من لا يعبده، فكيف بمن يتوكل عليه ويدعوه؟

وهكذا، نجد في قصة يوسف عليه السلام نموذجًا للمصلح الحقيقي، الذي يضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار، ويضحي براحة نفسه من أجل نجاة الآخرين، حتى وإن تحمل في سبيل ذلك الظلم والجحود.

المحاضرة الثامنة

وانتصر يوسف عليه السلام - من السجن إلى القصر

المقدمة

🔶 يوسف عليه السلام قدَّم درسًا عظيمًا في الإحسان والموازنة بين المصالح، حين لم يعاتب ساقي الملك على نسيانه له في السجن، بل بادر بتفسير رؤيا الملك بكل صدقٍ وأمانة، بل وأضاف عليها نصيحةً من وحي الله: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾

لقد أدرك يوسف عليه السلام أن الرؤيا ليست أمرًا يحتمل التأجيل، بل هي نذير كارثةٍ تهدد حياة الملايين، وكان يمكنه أن يشترط خروجه أولًا قبل الإفصاح عن تفسيرها، لكنه بميزان العقل والحكمة أيقن أن الأولوية لإنقاذ الناس، حتى وإن استمر الظلم الواقع عليه. فالمصلحون لا يسعون للانتقام، بل يعملون على درء المفاسد وتحقيق الخير للناس.

ولو كان مكانه شخص آخر، لربما قال: "ليجوعوا، وليهلكوا، فقد ظلموني!"، لكن هذه ليست نفسية الأنبياء. فالأنبياء لا يحملون ضغينةً ولا يردّون الظلم بظلم، بل يتجاوزون لأجل مصلحة الأمة. كما فعل النبي ﷺ حين عُرض عليه أن يُطبق على أهل الطائف الجبال، فرفض قائلًا: "لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يوحّد الله تعالى".

🔁 وهذا يذكرنا بآفةٍ منتشرة، حيث يتخذ البعض من الظلم الذي وقع عليهم مبررًا لإفساد مجتمعاتهم، فيتحولون إلى أدواتٍ للهدم بدلًا من البناء، فتجدهم يدعون لتعطيل العمل، أو الإضرار بالاقتصاد، متوهمين أنهم بذلك ينتقمون من الظالم، بينما المتضرر الحقيقي هم الناس الأبرياء، الذين قد يكونون مظلومين مثلهم.

🔶 إن يوسف عليه السلام لو فكر بهذه العقلية، لترك المجاعة تضرب البلاد، لكنه كان يعلم أن الملوك والحكام سيجدون لأنفسهم المخرج، بينما الضحايا الحقيقيون

سيكونون الفقراء والمحتاجين. وهكذا، فإن الانتقام الأعمى لا يصيب الظالم، بل يزيد من معاناة المظلومين.

🔁 والأسوأ من ذلك هم أصحاب "المعادلة الصفرية"، الذين يقولون: "إما أن نحيا برفاهية، أو نهلك جميعًا!". هؤلاء لا يفكرون في العواقب، بل يسعون للهدم حتى لو كان الثمن حياة الأبرياء.

🔶 أما المصلحون الحقيقيون، فهم الذين يوازنون بين الأمور، فيدركون أن التضحية بظلمٍ شخصي، أهون من السماح بمصيبةٍ تحلّ بالناس جميعًا، وهذا هو نهج الأنبياء، ونهج كل صاحب عقلٍ رشيد.

🔁 هناك من يحمل في داخله عقلية المعادلة الصفرية، عقلية خطيرة تتلخص في: "إما أن أعيش كما أريد، أو لا يعيش أحد!". هؤلاء لا يتورعون عن إيذاء الأبرياء، بل يرون في معاناة الآخرين نوعًا من التعويض عن آلامهم الشخصية، وكأن انتقامهم الأعمى سيعيد لهم حقوقهم المسلوبة. والأسوأ أن بعضهم يدرك تمامًا أن تصرفاته ستطال الظالم والبريء على حد سواء، لكنه لا يكترث، بل يصرّ على نشر الفوضى، ظنًا منه أنه إن لم يكن له نصيب من النجاة، فلا أحد يستحقها.

في أزمنة الفتن، نحن بحاجة إلى عقول متزنة، قادرة على وزن الأمور بعدل وحكمة، لا تنساق خلف العواطف، بل تحكم بمنطق المصالح والمفاسد. حتى لو وقع الإنسان في ظلم، فإن التفكير العادل يقتضي أن لا يظلم غيره، وأن يبحث عن حلول ترفع عنه الضرر دون أن تُلحق الأذى بالآخرين. وكثيرًا ما يكون الصبر هو الخيار الأجدى، مع السعي الحكيم لاستعادة الحقوق، دون الانجراف إلى ردود أفعال تزيد المشكلة تعقيدًا، وتجعل المظلوم يتحول – دون أن يدري – إلى ظالم لغيره.

وهذا ما جسّده يوسف عليه السلام بأخلاق الأنبياء، حين اختار مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية، فقدم تفسير رؤيا الملك مجانًا، دون شرط أو قيد، رغم أنه كان يدرك أن ذلك قد يُبقيه في السجن. لم يشترط الخروج أولًا، ولم يفاوض على حريته، بل آثر إنقاذ الناس من مجاعةٍ وشيكة، حتى لو استفاد من ذلك الظالمون. فالأنبياء يفكرون بعقليةٍ أوسع، لا يهمهم من سينسب الفضل، بقدر ما يهمهم تحقيق الخير ونشر النفع بين الناس.

🔶 لكن الملك لم يكن ساذجًا. حين سمع التفسير، أدرك أن ساقي الملك لا يمكن أن يكون صاحب هذا الكلام العميق، خصوصًا أن الأخير أضاف على الرؤيا جزءًا لم يكن فيها أصلًا: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾. فمن أين أتى به؟

الملك، بحكمته، ضغط على الساقي، وأمره أن يقول الحقيقة. وحين خاف الأخير من العواقب، اضطر للاعتراف بكل شيء، فسمع الملك عن يوسف عليه السلام، وسأل عن قصته، وأعجبه ما سمع. ولم يتردد لحظةً، بل أرسل من فوره ليحضره إليه، إدراكًا لقيمة هذا الرجل العظيم الذي كان مجهولًا في ظلمات السجن، لكنه امتلك الحكمة التي تحتاجها البلاد في هذا الوقت العصيب.

🔶 عندما قال الملك: ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ ﴾، لم يكن ذلك مجرد أمر باستدعاء يوسف عليه السلام، بل كان تحقيقًا لإرادة الله في أن يخرج يوسف بأفضل وأكرم صورة، لا بشفاعة أحد، بل بأمر مباشر من الملك نفسه، ليكون خروجه اعترافًا بمكانته، لا مجرد منحة من شخص أو وساطة من أحد. لكن الأعجب من ذلك، أن يوسف عليه السلام رفض هذا العرض!

🔶 لم يكن رفضه عنادًا، بل كان موقفًا يعكس كرامته وإيمانه العميق بالعدل. لم يشأ أن يخرج وكأنه مُدان نال العفو بسبب إحسانه في تفسير الرؤى، بل أراد أن يثبت براءته قبل أن يغادر السجن، حتى لا تظل نظرات الشك تلاحقه، وحتى لا يُنظر إليه كمتهم نال حريته بفضل الملك، بل كإنسان بريء يستحقها بجدارة. لقد كان يوسف عليه السلام يدرك أن العدل لا يتجزأ، وأن الحقيقة يجب أن تظهر، لذا أصر على التحقيق في قضيته أولًا قبل أن يخرج.

🔷 كانت فترة السجن بالنسبة له محطة إيمانية عظيمة، لم تكن عقوبة، بل كانت حمايةً له من فتن القصر، وفرصة للزهد والتقرب إلى الله. لقد تحول السجن إلى ملاذ، إلى مكان جعله قريبًا من الله أكثر من أي وقت مضى، حتى صار يرى الدنيا بحقيقتها الزائلة. القصر والكوخ، الحرية والسجن، كلها أصبحت عنده سواء، لأنه وجد كنزه الحقيقي: القرب من الله والطمأنينة في ذكره. لم يعد يشغله متى سيخرج، بل كيف سيخرج، وبأي صورة سيُعيد الله له حقه.

🔴 وحين رفض يوسف الخروج، أصاب الملك حالة من الانبهار الشديد. لم يكن معتادًا على هذه النوعية من الأشخاص، فالبلاط الملكي مليء بمن يسعون وراء المصالح، حيث الجميع يقدم خدمات مقابل ثمن، أما يوسف فقد كان مختلفًا تمامًا. رجل يعطي دون أن يطلب شيئًا، زاهد في الدنيا، غني بنفسه عن الناس، لا يخشى الملك ولا يتودد إليه طمعًا في مكافأة. هذا جعل الملك يرغب في رؤيته، ليس فقط لمعرفة سر تفسير الرؤى، بل لاكتشاف سر هذه الشخصية العجيبة.

🔁 وعندما التقى به، وجد أمامه رجلاً حكيمًا، قويًا، ثابتًا، لا يخاف، ولا يتملق، ولا يتغير موقفه طمعًا أو خوفًا. هنا أدرك الملك قيمته الحقيقية، فقال له بكل احترام وتقدير: "إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ"، أي أنك اليوم ذو مكانة عظيمة عندنا، وأنت رجل أمين، نستطيع أن نأتمنك على أمرٍ كبير. وهكذا، خرج يوسف عليه السلام من السجن ليس فقط بريئًا، بل عزيزًا مكرمًا، واستعد ليبدأ رحلته الجديدة في إدارة شؤون البلاد.

حكمة يوسف عليه السلام في إثبات براءته وتمكينه في الملك

عندما أمر الملك قائلاً: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ﴾، لم يكن يدرك أنه أمام شخصية استثنائية لن تخرج من السجن لمجرد أوامر ملكية، بل وفق شروط واضحة تنبع من إيمانها العميق بالحق والعدالة. فالملك، الذي لم يكن قد رأى يوسف عليه السلام بعد، أصيب بحالة من الانبهار التام لمجرد سماعه عنه من ساقي الخمر، الذي أخبره عن إحسان يوسف في السجن، وعن قدرته الفريدة في تأويل الرؤى. العجيب أن هذا الانبهار جاء دون أن يعرف الملك شيئًا عن شكل يوسف أو جماله أو عظمته الأخلاقية، فما بالك بشوق المؤمنين إلى رؤيته، وقد عرفوا قدره عند الله، واطلعوا على قصته وإحسانه وعفته!

🔶 لكن يوسف عليه السلام لم يقبل بالخروج من السجن إلا بعد إثبات براءته، فأرسل إلى الملك سؤالًا ذكيًا وحكيمًا: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾. تأمل في دقة الصياغة، لم يقل: "اسأل النسوة"، بل قال: "ما بال النسوة"، ليضع الملك أمام مفاجأة لم يكن يعلم عنها شيئًا! فجأة، يكتشف الملك أن حادثة غريبة حدثت في قصره، ولم تصل إليه من قبل: نساء قطعن أيديهن! فكيف لم يعرف عنها؟! وأي ملك يسمع عن أمر خطير كهذا في مملكته، ولم يكن لديه أدنى علم به، سيشعر بضرورة التحري والبحث فورًا.

🔶 يوسف لم يختر الحديث عن حادثة المراودة، بل ركز على مشهد تقطيع الأيدي، لأنه أمر نادر لا يتكرر، بينما قد يكون الملك على علم بسلوكيات بعض نساء القصر. إضافةً إلى ذلك، كان يوسف حريصًا على عدم الإضرار بسمعة العزيز مباشرةً، فلم يقل: "اسأل عن امرأة العزيز"، بل أشار إلى مشهد مستقل، حتى لا يتمكن العزيز من التدخل أو التغطية على الحقيقة.

🔁 الملك، بذكائه، أدرك خطورة الأمر، ولم يستغرق وقتًا طويلًا لجمع المعلومات. الملوك يملكون أجهزة استخباراتية قادرة على الوصول إلى أي سر، وقد تمكن من معرفة القصة كاملة بسرية تامة، دون أن تشعر بها النسوة أو حتى العزيز نفسه. ثم قام الملك بخطوة ذكية: جمع النسوة أمامه، وبينهن امرأة العزيز، وواجههن مباشرة بالسؤال:

﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾

لاحظ أنه لم يسألهن عن سبب تقطيع الأيدي، بل انتقل مباشرة إلى صلب القضية، لأنه لم يعد بحاجة إلى استفسار، فقد عرف الحقيقة مسبقًا، لكنه أراد اعترافًا رسميًا. لم يكن سؤاله بحثًا عن إجابة، بل كان إقرارًا للحقيقة أمام الجميع.

🔁 هنا وقع الجميع في مأزق، إذ لم يكونوا يعلمون مقدار ما وصل إليه الملك من معلومات، فخافوا من الكذب، واضطروا إلى الاعتراف الفوري، قائلين: ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ أي أن يوسف عليه السلام بريء من أي ذنب، بل لم يعرفوا عنه أي سوء قط.

هذا الاعتراف العلني لم يكن مجرد تبرئة، بل شهادة عظيمة لعصمة يوسف عليه السلام. فالنسوة، وهن شاهدات على ما جرى، لم يستطعن إلا أن يعترفن ببراءته، رغم مرور السنين، مما يدل على أن الأنبياء محفوظون بحكمة الله حتى قبل بعثتهم.

لقد خرج يوسف عليه السلام من السجن منتصرًا، لا بمنة من أحد، بل باعتراف الجميع ببراءته، وحين رآه الملك، وجد فيه شخصية لم يرَ مثلها من قبل، رجلًا ذا مكانة عظيمة، حكيمًا، زاهدًا، عزيز النفس، فكان قراره النهائي:

﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

أي أنك اليوم ذو مكانة رفيعة لدينا، ونحن نأتمنك على أعظم أمور المملكة. وهكذا، لم يخرج يوسف من السجن فقط، بل خرج ليكون صاحب السلطة والنفوذ، في رحلة قدرها الله له بحكمة عظيمة.

🔴 **الحق يظهر ولو بعد حين:** براءة يوسف عليه السلام وذلّ امرأة العزيز

وقف الملك مبهورًا باعتراف النسوة، إذ كان أقصى ما يتوقعه أن يبرئن يوسف عليه السلام من تهمة الفاحشة، لكنه تفاجأ باعتراف صريح بأن يوسف لم يقترف أي سوء في حياته قط! وهنا تتجلى رسالة عظيمة: الحرص على السمعة هو درع يحمي الإنسان يوم الحاجة.

فالسمعة الطيبة لا تُشترى، وإنما تُبنى بالأخلاق والاستقامة، لذا على الشخصيات العامة، والعلماء، والدعاة، وكل مؤثر في المجتمع، أن يكونوا أشد حرصًا في بابين خطيرين: العلاقة بالجنس الآخر والتعامل مع الأموال. فالشائعات في هذين الأمرين تنتشر بسرعة، وتكون سلاحًا لهدم أي شخصية مهما بلغت منزلتها، كما حدث مع النبي ﷺ في حادثة الإفك.

ذكاء الملك في كشف الحقيقة

لم يواجه الملك امرأة العزيز مباشرة، رغم أنها المتهمة الرئيسة، لأنه قائد سياسي بارع. فهي زوجة وزيره، وكان لا بد أن يكون حديثه دقيقًا. لكنه استطاع بحنكة أن يضعها أمام خيار صعب: الاعتراف أو مواجهة فضيحة أكبر.

وهنا، انقلب المشهد تمامًا. فبعدما كانت امرأة العزيز تتفاخر سابقًا بمراودتها ليوسف عليه السلام، وقفت اليوم مكسورة، ذليلة، تعترف أمام الجميع: "ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ" [يوسف: ٥١].

🔶 لقد أجبرها موقف الملك، وشهادة النسوة، على الاعتراف بالحقيقة التي حاولت طمسها لسنوات. وهكذا تحقق وعد الله: "إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ"، وانكشف كيدها، كما قال تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ".

العاقبة للمتقين

🔴 تحولت امرأة العزيز من قمة السلطة إلى قمة الذل، بينما كان يوسف عليه السلام في طريقه للعزة والتمكين. وهذا درس لكل إنسان: قد يتأخر ظهور الحق، لكنه لا يُهزم أبدًا. والخائن، مهما طال به الأمد، سينكشف أمره، وسيجد نفسه يردد—رغمًا عنه—حقيقة طالما كابر في إنكارها.

"من الخيانة إلى الهداية: مشهد تربوي من قصة يوسف عليه السلام"

🔶 في مشهد قرآني من أبلغ مشاهد التوبة والاعتراف، تقف امرأة العزيز بعد طول عنادٍ وكبرياء، تعلن الحقيقة بوضوح: "يوسف (٥١) أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ". هي التي كذبت، وهو الذي صدق، والزمان دار دورته، فصار يوسف العزيز بعد أن كان سجينًا، وصارت هي الذليلة بعد أن كانت سيدة القصر. لكنها وقفت ذات يوم، تردد كلماتٍ تهزّ القلوب: "سبحان من جعل العبيد ملوكًا بطاعته، وسبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيته".

🔁 هذا التحول الكبير يكشف لنا كيف يمكن لدعوة مخلصة أن تغيّر القلوب، وكيف أن يوسف عليه السلام، الداعي إلى الله في القصر والسجن، أثّر في نفوسٍ كثيرة حتى وإن لم تؤمن كلها، فبعضها تأثر، وبعضها آمن، وبعضها بقي في الشك. والقرآن يرينا هذا التأثير ببلاغة فريدة.

ثم نأتي إلى الآيات التي أثارت خلافًا بين المفسرين: من قال هذه الجمل العميقة؟

"يوسف (٥٢) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. يوسف (٥٣) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ".

الرأي الراجح، والمؤيد بقواعد التفسير، أن القائل هو امرأة العزيز نفسها، لا يوسف عليه السلام، وذلك لأسباب عدة:

⏪ أولًا: مبدأ "الاتصال مقدم على الانفصال"، فالآيات تأتي في سياق واحد، وتتابع الحديث من امرأة العزيز دون فاصل يدل على انتقال الكلام لشخص آخر.

⏪ ثانيًا: لو كان يوسف القائل، فكيف يقول "ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب"؟ ومن يقصد؟ العزيز؟ والعزيز أصلاً لم يشك في يوسف من البداية.

⏪ ثالثًا: لا يُتصور من نبي أن يقول: "إن النفس لأمارة بالسوء" على نفسه، وهو المعصوم.

↩️ ثم نصل إلى القواعد العظيمة التي نطقت بها امرأة العزيز، والتي تُمثل في حد ذاتها دروسًا تربوية وأخلاقية رفيعة:

١- " وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" – قاعدة تُرعب من خان، وتطمئن من وقع عليه الخيانة، سواء كانت خيانة لله أو للناس.

٢- "وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي"– اعتراف بالخطأ، وصدق في التوبة، ونزول عن كبرياء النفس.

٣- "إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي" – إقرار بأن النفس تحتاج رحمة الله كي تستقيم، لا تعصم نفسها بنفسها

٤- "إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" الأمل المفتوح لكل من رجع إلى الله.

ومن هنا نفهم كيف كان القرآن الكريم ربيعًا للقلوب، وسلوى للهموم، ومصدرًا للأمل والتغيير.

فالقرآن لا يركّز على مشاهد الابتلاء، بل يمر عليها بسرعة – " فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ" – ثم يستفيض في الخير والانتصار والتمكين، ليعلّمنا كيف ننسى الأحزان ونتمسك بالأمل، كيف نرى في كل محنة فرصة، وفي كل ظلم طريقًا إلى عزّة.

🔶 <u>ومن هذه القصة نتعلم:</u>

- ■ أن الإنسان إذا ظُلم، فالله سينصره.
- ■ وإذا خان، فكيده سيُردّ عليه.
- ■ وإذا تاب، فباب الله مفتوح.
- ■ وأن الكلمات الصادقة – مثل كلمات يوسف – قد تغيّر قلوبًا، وتنقذ نفوسًا.

فالقرآن حياة، وتدبّره نور، ومن عاش معه، وجد فيه كل الإجابات.

🔴 "قواعد في إصلاح النفس وهلاك الخائن: تأملات في قصة يوسف عليه السلام"

🔶 تتناول الايات وقفتين تربويتين عظيمتين من سورة يوسف، يمكن اعتبارهما قواعد حياتية خالدة في فهم النفس الإنسانية، وفي معرفة مصير الخيانة وسُبل النجاة منها.

⏪ .أولًا: قاعدة في مصير الخيانة

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ).

هذه الآية تُقرر حقيقة راسخة: أن الخيانة لا تُثمر، ولا يُبارك فيها، ولا يُعين الله صاحبها، بل يُضل سعيه ويُحبَط عمله.

إنها بشارة لكل مظلوم، ولكل من تعرض لخيانة، أن كيد الخائن لا يصيب، وأن الله لا يترك الخائنين دون حساب، بل يُجازيهم بمكرهم، كما قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ).

فلا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وهذه قاعدة مطمئنة لأهل الإيمان، أن أعداءهم مهما مكروا فلن يُفلحوا.

⏪ ثانيًا: قاعدة في إصلاح النفس

قالت امرأة العزيز بعد رحلة من الخطأ والاعتراف: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي).

في هذه اللحظة بدأت إرهاصات التوبة والصدق الداخلي، فحين تتوقف النفس عن التبرير، وتبدأ بالاعتراف، تكون هذه هي بداية الإصلاح الحقيقي.

🔶 في بداية القصة، لم تكن امرأة العزيز ترى في فعلها خطأ، كانت تبرر لنفسها: "راودته عن نفسه، الفتنة شديدة، والظروف أقوى"، لكنها في النهاية عرفت الحقيقة وقالت: (وما أبرئ نفسي).

وهنا تظهر خطورة تبرئة النفس؛ فإن أكبر خطر يهدد الإنسان هو أن يرى نفسه دائمًا ضحية، ويُبرر أخطاءه بالظروف أو المحيط، كما تصور ذلك كثير من الأعمال الفنية المعاصرة، حين تبرر الانحرافات بأنها "نتيجة قسوة الأب، أو ضيق الحال، أو الفراغ العاطفي".

🔶 لكن الحقيقة أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وأن الظروف مهما كانت قاسية، فإن النفس التي لا تُجاهد ولا تُراقب، تسقط في الخطأ، وليس العذر في البيئة وحدها.

يوسف عليه السلام، مثلًا، كان في نفس ظروف امرأة العزيز بل أشد: شاب، أعزب، جميل، بعيد عن أهله، لكن لم يبرر لنفسه، ولم يقع في الحرام.

ولهذا قيل:

"أقبح من الذنب تبرير الذنب".

🔴 وهنا تظهر ثلاث حالات للنفس البشرية كما ورد في القرآن الكريم:

١- النفس الأمارة بالسوء: وهي التي تدفع صاحبها للمعصية دومًا، ولا ترى خطأ في ذلك، وهذه حال من لا يُجاهد نفسه.

٢- النفس اللوامة: وهي نفس تُخطئ، لكنها تلوم صاحبها وتؤنبه، فيظل في صراع بين الحق والباطل.

٣- النفس المطمئنة: وهي التي زكاها صاحبها، فصارت مطيعة له، تسير معه بسهولة ويسر نحو الطاعة، كما قال الله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا).

🔴 السؤال: أين نفسي من هذه النفوس؟"

■ إذا كنتَ تجد الطاعات صعبة وتُكابر، فغالبًا نفسك أمارة بالسوء.

■ وإذا كنتَ تُجاهد نفسك وتُخطئ أحيانًا، لكنها تلومك، فهذه نفس لوامة.

■ أما إن كنتَ تجد الطاعات سهلة، وتُطيع دون صراع، فقد بلغت النفس المطمئنة.

الخلاصة التربوية المهمة:

■ لا تُبرئ نفسك، بل حاسبها باستمرار، راجع نواياك وأقوالك وأفعالك، اكتشف عيوبك، وابدأ في معالجتها.

■ النفس إن تُركت همجية، أكلت صاحبها، وإن زكاها وجاهدها، ربح دنياه وآخرته.

■ فلا تكن كإبليس الذي هلك بسبب الكِبر وعدم مراجعة النفس.

■ وابدأ بخطوة صادقة: (وما أبرئ نفسي)، فهي مفتاح كل خير.

🔶 ترويض النفس.. بين مجاهدة الأسد ونفحات الرحمة"

النفس البشرية كالسِّبْع المفترس، إن تُركت على طبيعتها، أكلت صاحبها، وإن رُبِّيَت وأُدِّبَت، طاوعت وانقادت، لكنها لا تطاوع من أول مرة، بل تحتاج إلى مجاهدة طويلة وشاقة، لا تتوقف حتى آخر لحظة في العمر.

🔴 النفس ثلاث مراتب:

١ـ أمارة بالسوء: إذا أُهملت، قويت، واستسلمت للشهوات والكسل.

٢ـ لوّامة: إذا بدأ الإنسان بمراقبتها ومحاسبتها.

٣ـ مطمئنة: إذا زكاها الإنسان بالمجاهدة المستمرة، وبقي عليها، لكن لا يصل إليها إلا من رحم ربي.

🔶 والنفس تمامًا كالأسد:

لو جلست بجوار أسد دون ترويض، سيفترسك.

لكن إن بدأت تدريبه بالخوف والرجاء، بالمكافأة والعقوبة، وبالمراقبة المستمرة، بدأ يلين ويتغير.

ومع الوقت، يصبح الأسد مطيعًا: "اجلس"، فيجلس. "قفز"، فيقفز.

لكن.. إن تركته دون مراقبة، عاد لطبعه الأول، وافتَرسك.

🔁 وهكذا النفس:

ـ كلما أهملتها، عادت للسوء.

ـ وكلما دفعتها للأعلى، تقدمت، لكن إن توقفت لحظة، تدحرجت إلى الأسفل.

ـ فلا بد من مجاهدة متواصلة، لا تعرف التوقف.

ومن أعظم ما قالته امرأة العزيز بعد صحوة ضميرها:

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)

🔴 كأنها تُقرُّ بحقيقتين:

١- النفس بطبيعتها تميل للسوء، ولا يخرج منها أحد إلا برحمة من الله.

٢- الوصول للنفس المطمئنة لا يكون بكثرة العبادات فقط، ولا بجهاد النفس وحده، بل بالرحمة الإلهية وحدها.

🔴 القاعدة الذهبية التي تُؤسِّس لطريق السير إلى الله:

» "إياك نعبد" ← اجتهادي، محاولتي، مجاهدتي لنفسي.

» "وإياك نستعين" ← افتقاري الكامل إليك يا رب، فلا حول لي ولا قوة إلا بك.

لهذا كان النبي ﷺ يدعو:

» "اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها."

» "ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين."

أى أن

◼ النفس خطر إن تُركت، وبركة إن زُكيت.

◼ لا تزكُ النفس إلا برحمة الله.

◼ الجهاد مستمر، والمراقبة دائمة، والدعاء لا ينقطع.

◼ كن مع نفسك كمن يروض أسدًا: بحزم، ورحمة، ودوام اتصال بالله.

فمن جمع بين المجاهدة والاستعانة، نجا.

ومن اعتمد على نفسه فقط، هلك.

ومن ترك النفس على هواها، افترسته.

"حين عرفت الله حقًا... وتكلم القلب قبل اللسان"

🔴 في نهاية القصة، نطقت امرأة العزيز بأجمل ما في السورة:

⬅️ "إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ".

كلمات تهز القلب، وتفتح أبواب الرجاء لكل مذنب، مهما بلغ ذنبه.

هي لم تقلها عن لسان فقط، بل نطقت بها بعد معرفة صادقة بالله، وبعد توبة حقيقية، توبة من قلبٍ ذاق مرارة الذنب، ثم تلمّس حلاوة القرب.

سنوات من المعصية، والظلم، والتعدي، طوتها لحظة صدق مع الله، لحظة عرفَت فيها أن الرب الذي أمهلها، لم يكن غافلًا عنها، بل كان ينتظر توبتها، لأنه غفورٌ رحيم.

⬅️ الفرق بين استغفار البداية، حين قال لها زوجها: "استغفري لذنبك"، واستغفار النهاية، هو الفرق بين من يعرف الله باللسان، ومن يعرفه بالقلب.

معرفة الله بأسمائه وصفاته ليست فقط علمًا، بل سلوكًا وتطبيقًا:

- من يقول "الله رزاق" ولا يسعى، لم يعرفه.
- ومن يقول "الله غفور" ويصرّ على المعصية، لم يذق رحمته.

الله يغفر لمن تاب، وآمن، وعمل صالحًا، ثم اهتدى.

وهذا ما فهمته امرأة العزيز

🔶 أخيرًا، فاستغفارها صار استغفارًا حقيقيًا:

ندمًا، وتوبة، وإقلاعًا، وعزمًا على ألا تعود.

ثم جاءت الآية العظيمة:

"وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي..."

وكأنها تقول: "أنا لست معصومة، لكنني تائبة."

وهذا هو ميزان الله: ليس في أن لا تُذنب، بل أن تتوب بعد الذنب.

وليس هذا خاصًا بالعصاة، بل هو حال حتى الصحابة والدعاة والعلماء.

فعندما حضر الموت عمرو بن العاص، قال بدموع الندم:

"اللهم إنك تعلم أني أحبك، وإن كنت أعصيك..."

إذًا، كلنا نخطئ.

لكن لا تجعلوا من خطأ الداعية حُكمًا على دعوته، ولا من زلة العالم حُكمًا على علمه.

فلو كان لا يدعو إلى الله إلا من لا يذنب، لانتهت الدعوة بموت رسول الله ﷺ.

🔸 الدعاة ليسوا ملائكة، هم بشر يجتهدون، ويسقطون، ثم ينهضون ويواصلون الطريق.

فالاستغفار الحقيقي يبدأ من معرفة الله والرجاء لا يُغلق بوجه أحد، والدعوة لا تقف عند زلة إنسان ، والقلوب لا تُطهّر إلا برحمة الغفور الرحيم.

فعلِّق قلبك بالله، وقل كما قالت:

"إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ".

"الدعوة والإصلاح: بين اجتهاد العلماء وتولي المناصب في أنظمة فاسدة"

⬅️ المربي الحق يجب أن يُعلّم أتباعه أهمية الاعتراف بالخطأ والافتقار إلى الله، قائلاً: "أنا شيخ وأخطئ، أدعوا لي أن يثبتني الله، ويُلهمني رشدي." هو يعلم أتباعه أن الاجتهاد في تعليم الحق لا يعني الكمال، وأنهم بشر فيهم زلات، لذلك عليهم ألا يتهموا الدعوة إذا أخطأ من يدعوهم، بل عليهم أن يفرقوا بين من يتبع الحق ومن أخطأ في التنفيذ. "الشيخ أخطأ، لكن الدين لا يخطئ."

🔸 أما بالنسبة للملك في القصة، فقد شعر بالذهول والانبهار عندما سمع من يوسف عليه السلام. وبعد سماعه الكلمات العميقة، أصبح لديه شوق هائل لرؤية يوسف، وعندما التقى به قال: "إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ." الملك لم يكن يراه فقط كحكيم أو بريء، بل أدرك أن يوسف شخص لا يُقدَّر بثمن. فقرر أن يوسف سيكون له منصب عظيم في الدولة، وليس مجرد مكرَّم أو ضيف، بل هو من سيتولى دورًا هامًا في الحكومة.

🔸 لكن يوسف عليه السلام لم يطلب المنصب، بل الملك هو من عرضه عليه، قائلاً له: "اختر أي منصب تريده." هنا تكمن الحكمة؛ يوسف لم يكن يسعى للمكاسب الشخصية، بل كان يرى أنه لا يوجد غيره يستطيع تحمل المسؤولية في ظل الظروف

الصعبة، وهو الذي يمكنه الوقوف أمام الفساد. فعندما عرض عليه منصب "خزائن الأرض" في وقت المجاعة، لم يرفضه، بل طلبه لأن هذا المنصب يتطلب شخصًا موثوقًا به، لأن المال سيكون في يد الفاسدين إن لم يُؤتمن عليه.

يوسف عليه السلام يعلم أن الفساد يعم في المجتمع، لكنه كان يهدف إلى إصلاحه من خلال منصبه، كما أشار إلى نفسه قائلاً: "إني حفيظ عليم." وهي تذكية لنفسه، حيث يرى أنه الشخص الأنسب للمنصب. وقد يتساءل البعض عن كيفية تذكية النفس في هذا السياق، لكن الحقيقة أن يوسف لم يفعل ذلك من باب التفاخر، بل لأنه كان يعتقد أن لا أحد غيره مؤهل لتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، وأن قبوله هذا المنصب سيعود بالنفع على الجميع ويقلل من الشر.

ومما يلفت النظر هنا هو أن يوسف عليه السلام كان يعمل في نظام فاسد، لكنه كان في منصب لا يعين على الظلم، بل كان يسعى لإصلاح هذا الفساد وتقليل الضرر. وقد يُستفاد من هذا النموذج في حال التعيين في مناصب حكومية في دول يسود فيها الظلم، حيث يجوز للمؤمن أن يتولى منصبًا في نظام فاسد بشرط أن يكون دوره فيه إصلاحًا وتقليلًا للشر.

وفي هذا السياق أيضًا، نجد أن المؤمنين الصادقين، مثل مؤمن آل فرعون وسيدنا موسى عليه السلام، قد شاركوا في العمل مع ظالمين لحاجة الناس إليهم، ولقد كان وجودهم في تلك المناصب فرصة لدرء الفساد والمساعدة في نشر الخير.

وبذلك، يظهر المبدأ الأساسي في القصة: النية الطيبة والإصلاح.

🔶 يوسف عليه السلام لم يسع وراء المنصب من أجل الجاه أو السلطة، بل لتحقيق غايات نبيلة وهي الإحسان إلى الناس ومنع الفساد. كذلك، نجد أن العلماء والدعاة إذا كانوا في مواضع يُحسنون فيها العمل ويُصلحون من داخل النظام، فإن قبولهم للمناصب لا يتعارض مع مبادئهم طالما كانت نياتهم في الإصلاح وليس التمكين للفساد.

الإنسان لا ينبغي أن يسعى للمناصب طمعًا في السلطة، بل يجب أن يرى في منصبه فرصة لخدمة الناس وتغيير واقعهم نحو الأفضل.

🔴 "التزكية المطلوبة: التوازن بين الصلاح والخبرة"

المنصب لا ينبغي أن يُمنح فقط بناءً على التقوى والصلاح الديني، بل يتطلب أيضًا خبرة وكفاءة. في قصة يوسف عليه السلام، عندما طلب المنصب في إدارة خزائن الأرض، لم يكن طلبه فقط استنادًا إلى تقواه، بل أكد للملك أنه يمتلك الخبرة اللازمة أيضًا. فقال: "إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ"، مشيرًا إلى معرفته التامة بإدارة الأموال والمخازن. هذا يعلمنا أن المناصب لا ينبغي أن تكون محكومة بالصلاح وحده، بل يجب أن يُراعى أيضًا الخبرة والكفاءة.

🔶 تُظهر القصة أنه ليس من المقبول أن يتولى شخص منصبًا لمجرد تقواه، كما في المثال الذي ذُكر عن تعيين شيخ وزير مالية فقط لأنه شيخ، أو تعيين داعية وزير صناعة وهو لا يفهم في الصناعة. من الضروري الجمع بين الصلاح الديني والخبرة العملية، فالأمين يجب أن يكون قويًا في مجاله.

🔁 لكن في بعض الحالات، مثل حالة يوسف عليه السلام، قد تكون التزكية لنفس الشخص ضرورية إذا كانت هناك مصلحة عامة في ذلك. فكما لا بأس بأن يُزكي شخص نفسه حين يكون هناك حاجة ملحة أو مصلحة راجحة، كذلك لا يجوز التفاخر أو المباهاة بالتزكية لمجرد الفخر الشخصي.

🔶 يُعتبر تزكية النفس في سياقات معينة، مثل تقديم سيرة ذاتية للمشاركة في منصب أو مهمة، أمرًا مشروعًا بشرط أن يكون الهدف هو خدمة المصلحة العامة وليس الفخر أو التباهي. في نفس السياق، إذا كانت هناك حاجة حقيقية لاختيار شخص معين بسبب خبرته أو كفاءته، يجوز له أن يتقدم لتولي المسؤولية، كما في حالات الإمامة أو الفتوى.

🔴 وفي النهاية، يجب على الإنسان أن يوازن بين تزكية نفسه عندما يكون لا بديل له، وبين الاعتراف بوجود من هو أفضل في المناصب أو المهام التي لا يحتاج فيها إلى التدخل.

"رحمة الله وسبل التمكين: دروس من قصة يوسف عليه السلام"

🔁 تتجلى فائدة عظيمة في قصة يوسف عليه السلام، حيث تؤكد أن وجود المستشارين الأتقياء الخبراء حول الحكام هو مفتاح نجاح البلاد وبناء الدولة. فالملك

أُعجب بيوسف ليس فقط لصلاحه، بل أيضًا لخبرته، وهو ما يوضح الفرق بين السماع عن الشخص والسماع منه مباشرة. كما في قول يوسف "خزائن الأرض"، نجد أن مصر كانت مليئة بالخيرات، لكنها كانت بحاجة إلى من يدير هذه الخيرات بحكمة، وهذا ما أشار إليه يوسف عليه السلام.

ومن الفوائد البارزة هنا، تبرز الاختلاف بين ردود فعل النساء والرجال تجاه يوسف. فالنسوة تأثرن بجماله الظاهر، كما جاء في قوله تعالى: "فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ" (يوسف: ٣١). بينما الملك، الذي تأثر بكلام يوسف وحكمته، أُعجب بعقله وإخلاصه أكثر من مظهره، كما ورد في قوله: "فَلَمَّا كَلَّمَهُ" (يوسف: ٥٤). هذا يوضح الفروق النفسية بين الرجل والمرأة، حيث قد تغري المظاهر النساء في بعض الأحيان، بينما الرجال ينشغلون بالحقيقة والفكر.

ثم جاء العوض العظيم ليوسف، بعدما مكّن الله له في الأرض، فصار يتبوأ منها حيث يشاء. كما أن هذه "الرحمة" التي نزلت عليه كانت نتيجة لإحسانه وإيمانه بالله، فتعكس كيف أن رحمة الله لا يمكن لأحد أن يمنعها، مهما كانت الظروف. وتثبت هذه القصة قاعدة عظيمة: عندما يريد الله برحمة لعبده، لا أحد يمكنه أن يوقفها.

في النهاية، يتضح لنا أن الإحسان في علاقتنا مع الله ومع الناس هو السبيل لنزول الرحمة، وأنه إذا كان الله قد قدر لك رحمة، فكل الجهود لن تمنعها عنك.

⬅️ الآيات الكريمة من سورة الرعد والآية المتعلقة بالعوض في الآخرة تحمل دروسًا عظيمة في الصبر والإحسان. تتضح الفائدة الكبرى من قوله تعالى: "وَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"، حيث توضح أن العمل الصالح والنفع للناس هو الذي يدوم ويبقى، بينما كل ما هو غير نافع يذهب ويزول. بناءً على ذلك، لتحقيق الرحمات والاستمرارية في التأثير الإيجابي، يجب أن يكون الإنسان نافعًا ومخلصًا، دون الالتفات للآراء السلبية أو المعارك الجانبية.

🔶 وفي حال مواجهة ظلم أو عدم تحقيق العوض في الدنيا، تأتي إجابة الله في الآية: "وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ"، حيث يؤكد أن العدل الكامل هو مجموع ما يحدث في الدنيا والآخرة. حتى لو لم يحصل الفرد على حقه في الدنيا، فإن العوض في الآخرة يكون أعظم وأفضل له. بل ربما يتمنى من حصل على حقوقه في الدنيا أن يكون مكان من ابتُلوا، لكي ينالوا الأجر العظيم في الآخرة.

أى أن العدل الإلهي شامل ويعطي كل إنسان حقه الكامل، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

القاعدة الجليلة هي أن "العدل لن يتم في الدنيا" بشكل كامل. قد يحصل بعض الناس على حقوقهم جزئيًا، ولكن ليس من الممكن أن يأخذ الجميع حقوقهم بالكامل في الدنيا. فحتى في الحديث الشريف: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء"، يؤكد أن العدل الكامل سيُحَقَّق في الآخرة. كذلك، الآية الكريمة "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ" تشير إلى أن الأجر الحقيقي سيُعطى يوم القيامة.

لهذا، يجب أن يعلق قلب الإنسان بالله، فلا يبالِ بما يفقده في الدنيا، بل يطمئن لرحمة الله في الآخرة. إذا لم يحصل الشخص على كامل حقه في الدنيا، فليعلم أن الآخرة هي المكان الذي سيعوضه الله فيه عن كل شيء. لذا، يوجه القرآن المؤمنين إلى التعلق بالآخرة، التي هي المضمونة.

🔴 ويُسَلط الضوء على أهمية الإيمان والتقوى، حيث يروي القرآن عن رجل مظلوم في العهد القديم، الذي قال لملك ظلمه: "ما مرَّ من بؤسي يوم، إلا مرَّ من نعيمك يوم، حتى يجمعنا الله في يوم"، ليؤكد أن العوض في الآخرة خير من كل شيء.

أخيرًا، يُذكَر أنه لا يوجد دليل على زواج يوسف من امرأة العزيز في القرآن، وبالتالي يجب ألا نُشغل بتفاصيل غير مهمة، بل نركز على القيم الأساسية مثل الإيمان، الإحسان، والتعلق بالآخرة.

🔶 العدل الكامل سيُحقق في الآخرة، والإنسان يجب أن يعلق قلبه بما هو أكيد، لا بما هو محتمل في الدنيا.

****

المحاضرة التاسعة
أصعب لِقاء

المقدمة

🔸 خرج يوسف عليه السلام من السجن بريئًا عزيزًا مُمكَّنًا في الأرض، بعد سنين من البلاء والصبر والثبات، ليحقق الله وعده: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]. اختاره الملك ليكون على خزائن مصر، لما لمس فيه من حكمة وتدبير وأمانة، فقال يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فأسندت إليه مهمة عظيمة ↩ في ظرف عصيب: أن يُدير شؤون البلاد في سنوات الرخاء، استعدادًا لسنوات المجاعة القادمة.

أبدع يوسف عليه السلام في إدارة اقتصاد مصر، فخزن الحبوب في سنابلها لتبقى صالحة لسنوات طوال، وأشرف على التخزين والتوزيع بحكمة واقتدار. لم يكن مجرد مسؤول مالي، بل كان قدوة في الزهد والتواضع، يعيش كأحد الناس رغم سلطته، كما فعل نبينا محمد ﷺ من بعده، إذ قالت عائشة رضي الله عنها: "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض" [رواه مسلم].

↩ ثم جاء زمن القحط، واشتدت المجاعة حتى وصلت الشام، فجاء إخوة يوسف من غير أن يعرفوه، يلتمسون القمح من مصر، فوقف أمامهم يوسف عليه السلام بعد سنين من الفراق، وهم لا يدرون أن الذي يملأ عيونهم مهابة هو أخوهم الذي ظلموه. طلب منهم أن يأتوا بأخيهم من أبيهم – بنيامين – ليكتمل اللقاء، متمسكًا بخطة ربانية لا يقودها الانتقام، بل لمّ الشمل.

🔸 ورغم الحزن الذي يعصر قلب يعقوب عليه السلام، وافق على مضض أن يرسل بنيامين، بعد أن أخذ عليهم موثقًا غليظًا، خوفًا من أن يُفقد كما فقد يوسف من قبل. ﴿فَلَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦].

🔁 وفي هذه المرحلة، لم تكن مصر مجرد دولة تبحث عن نجاتها، بل أصبحت قِبلة جائعة العالم، وقيادة يوسف النبوية مثال يُحتذى به في إدارة الأزمات، وتغليب الصالح العام على الهوى والانتقام.

🔶 قصة يوسف في هذا الجزء تحمل دروسًا خالدة في القيادة بالعدل، والإحسان في المحنة، والتقشف مع القدرة، والتخطيط بعيد النظر، والرحمة حتى مع من أساء. لقد كان يوسف عليه السلام نموذجًا في الجمع بين الإيمان والعقل، وبين الحُكم والخلق، فاستحق أن يكون قائدًا وزاهدًا ونبيًا في آن.

🔴 "ثبات يوسف عليه السلام وعفوه في مشهد اللقاء مع إخوته: تجليات الصبر والنبل النبوي"

🔶 في مشهد عظيم، تجلّت فيه المعاني السامية للنبل والصبر والثبات الانفعالي، يقف يوسف عليه السلام في ملكه، محاطًا بالخدم والرعية، منشغلًا بشؤون الحكم، حين دخل عليه إخوته الذين كانوا يومًا السبب في غربته ومحنته. لقد عرفهم فورًا، رغم أنهم لم يعرفوه، فقد تركوه وهو صغير السن، أما هم فكانوا كبارًا حين افترقوا، ولم تتغير ملامحهم كثيرًا.

🔁 وهنا يُمتحن يوسف عليه السلام في موقف يكاد يعجز عنه كثير من البشر. تخيل أن من حاولوا قتلك، والذين فرقوك عن أبيك، وباعوك عبدًا، وألقوك في غيابات السجن، قد صاروا الآن تحت سلطانك. تستطيع بكلمة أن تنتقم، أن تعاقب، أن تذلّهم. لكن يوسف لم يفعل شيئًا من ذلك، بل أظهر أعظم صور التحكم في النفس، وضبط الانفعال، والحلم، والعفو. لقد تلخصت دورات الثبات الانفعالي كلها في تصرفه هذا.

ما أروعه من موقف! لم يظهر على وجهه انفعال، ولم تتغير نبرة صوته، بل قابلهم بهدوء واتزان. تعامل معهم برقي، بل وأحسن إليهم. هكذا يعلو الإيمان بصاحبه، وهكذا تتسامى الروح، حتى ترى مظالم البشر صغيرة لا تستحق الرد. لقد ارتقى يوسف عليه السلام، وتطهر قلبه بالإيمان، فزالت منه الضغائن، وسكنه الصفح.

🔶 وكان حريًّا بنا أن نتعلم من هذا الموقف أن العفو لا يزيد صاحبه إلا عزًّا، وأن التواضع سبيل للرفعة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وما ازداد عبد بعفو إلا عزًّا". وحين أمر الله بدفع السيئة بالحسنة، ختم الآية بقوله: { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (فصلت: ٣٥) } ، وكأنما ينبهنا أن هذه المرتبة ليست لأي أحد، بل لمن امتلك صبرًا وخلقًا عظيمًا.

🔁 ومن الفوائد الجليلة أن المظلوم لا ينسى من ظلمه أبدًا، قد ينسى الظالم ظلمه، لكنه يظل محفورًا في قلب من ظُلِم، إما أن يعفو، وإما أن يأخذ حقه يوم القيامة. ولذا فليحذر الإنسان أن يظلم، وليعلم أن الله لا ينسى.

🔶 وفي المقابل، ترسل القصة رسالة محبة، أن الأخ يظل أخًا مهما فعل، وأن الشيطان هو العدو الحقيقي. فها هم إخوة يوسف يعودون إليه، ويتصالحون بعد طول فُرقة. وقد كان يعقوب عليه السلام يعلّم أبناءه هذه الحقيقة، أن الشيطان هو سبب التفرقة.

ومن الإشارات الدقيقة في الآية: "فدخلوا عليه"، جاء حرف الفاء ليشير إلى سرعة دخولهم على يوسف، رغم أنهم أجانب، ما يدل على عدله وسهولة الوصول إليه، فلم تكن بينه وبين الناس حواجز. وهكذا ينبغي لأهل الولايات أن يكونوا في خدمة الناس، قريبين منهم.

🔁 وفي حواره مع إخوته، كشف يوسف عليه السلام عن دهاء في استدراجهم بالمحادثة ليعرف حال أبيه وأخيه بنيامين دون أن يشكوا فيه. فسألهم عن سبب قدومهم، ومن أي أرض، فاعترفوا أنهم من كنعان، وأن أباهم يعقوب لا يزال حيًّا، وأن لهم أخًا أصغر هلك في البرية – في إشارة لكذبتهم القديمة – وأن أخاه الآخر بقي مع الأب.

وحين أراد يوسف أن يرى أخاه بنيامين، قال لهم: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ووصف نفسه بالإحسان في الكيل وحسن الضيافة، ثم توعّدهم بحرمانهم من الكيل إن لم يأتوا به. وهنا تعهدوا بمحاولة إقناع والدهم.

وقد أشار يوسف لأخيه بأنه "من أبيكم"، لأن بنيامين كان أخًا شقيقًا له، بخلاف باقي الإخوة من أمٍّ أخرى، في تلميح أن التعدد في الأزمنة السابقة كان مشروعًا، بل من سنن الأنبياء، كما في حال يعقوب وداود وسليمان عليهم السلام.

واستطرادًا، فإن التعدد مشروع في الإسلام، بشروط العدل في القسم والمبيت، وليس في الميل القلبي الذي لا يملكه الإنسان، ومن لم يستطع العدل فعليه بواحدة، كما أمر الله.

🔶 إنها قصة عظيمة، ومشهد بديع يُجسِّد العفو عند المقدرة، والحلم في موطن الغضب، والتواضع في لحظة العزة، والرحمة في موقف كان يُظن فيه الانتقام. فلنتأمل ونتأسّى، فبهُدى هؤلاء اهتدِ.

فقه التعدد وحنكة يوسف عليه السلام: دروس شرعية واقتصادية من القرآن الكريم

هناك تأملات إيمانية وتربوية في قضيتين مهمتين مستوحيتين من القرآن الكريم، وهما: حكمة تشريع التعدد في الإسلام، والبعد الاقتصادي في تصرفات يوسف عليه السلام، مبرزًا الفهم الوسطي والمقاصدي في الأحكام، ومستلهمًا دروسًا عملية من سلوك الأنبياء عليهم السلام في إدارة شؤون الحياة.

فقه التعدد بين الكراهة الجِبِلِّيَة والرضا الشرعي

قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ وهو تشريع إلهي يراعي المصلحة الغالبة في المجتمع، رغم ما قد يترتب عليه من ضرر نفسي أو عاطفي لدى المرأة، إذ لا تنكر الغيرة الطبيعية التي تكتوي بها قلوب النساء عند ذكر الزواج بثانية، فـ"لا توجد امرأة ترضى بأن تشاركها أخرى في زوجها"، كما ورد في الحديث التلقائي في نفوس النساء.

لكن ينبغي التمييز بين الكراهة الجبلية التي لا يؤاخذ بها الإنسان، والكراهة الشرعية التي إن وُجدت تفضي إلى رفض ما أنزله الله، وهذا مما ذمه القرآن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فالمؤمنة ينبغي أن تحب ما شرعه الله، وإن كرهته جبلتها، تمامًا كما في القتال الذي كتب علينا وهو "كرهٌ لكم"، لكننا نحبه لأن الله أمر به.

إذًا فرفض التعدد شرعًا لا يجوز، أما الكراهة الفطرية الطبيعية فهي معفو عنها، والموقف الصحيح هو التوازن بين

🔶 الأمرين: محبة التعدد لكونه من شرع الله، مع التسليم لما يطرأ من مشاعر إنسانية مؤلمة للمرأة

الحكمة الاقتصادية ليوسف عليه السلام في إدارة الأزمة

في قصة يوسف عليه السلام، نقرأ قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، وهو يشير إلى الوفاء والكرم في المعاملة، فيُعطي الكيل كاملًا، بل ويزيد كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "زن وأرجح". هذه أخلاق الأنبياء التي تُحبب الناس إليهم، فالإحسان البسيط في المعاملات، كزيادة يسيرة في الكيل، تكسب القلوب.

ثم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وهذا مزج بين اللين والحزم، وبين الترغيب والترهيب، وهو أسلوب تربوي فعال.

لكن اللافت هو استخدام يوسف عليه السلام لقوته الاقتصادية في التأثير على قرارات الآخرين. فقد استطاع أن يفرض على إخوته الالتزام بشروطه لأنه يملك "قوتهم"، ومن يملك القوت يملك القرار. وهذا درس سياسي واقتصادي بالغ الأهمية، حيث إن الاستقلال الاقتصادي يحقق الاستقلال في القرار السياسي، والعكس صحيح، فالحاجة إلى العدو تُمكنه من فرض إرادته. لذا يجب على الدول الإسلامية السعي للاستغناء الاقتصادي لتستقل في قرارها.

كذلك فإن المقاطعة الاقتصادية تعد وسيلة مشروعة للضغط، وقد أثبتت فاعليتها في مواقف سابقة مثل الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث كانت وسيلة فعالة للضغط وإعادة النظر في بعض السياسات الغربية.

لماذا رد يوسف عليه السلام ثمن البضاعة لإخوته؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد ذكر المفسرون ثلاثة احتمالات لهذا التصرف الكريم:

١- الاحتمال الأرجح: أنه خشي ألا يجدوا ثمنًا يعودون به في العام القادم، فرد إليهم البضاعة ليضمن عودتهم، وهذا أرجح الأقوال.
٢- الاحتمال الثاني: أنه استنكف أن يأخذ مالًا من أبيه وأهله، ووجد في نفسه حرجًا من ذلك، فرد المال كرمًا وحياءً.
٣- الاحتمال الثالث: أنه أراد أن يستشعروا الحرج والتورع، ويضطروا للرجوع إليه ثانية، مما يشكل ضغطًا معنويًا على يعقوب عليه السلام لإرسال بنيامين معهم.

🔸 جميع هذه الاحتمالات واردة، وأقواها أن يوسف عليه السلام تصرف ببصيرة اقتصادية لضمان عودتهم، واستثمر ماله في تحقيق مقصده النبيل.

فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين – تأملات إيمانية في مشهد من قصة يوسف عليه السلام

في هذا المشهد المؤثر من سورة يوسف، نرى كيف أن إخوة يوسف يعودون إلى أبيهم يعقوب عليه السلام بعد رحلتهم، ولكنهم كما هي عادتهم، يبدؤون بالكلام السيئ قبل أن يُسعدوا أباهم بأي خبر طيب. فيقولون مباشرة: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ دون تمهيد، دون تقديم الخير الذي جاءوا به، مما يكشف عن خلل في أسلوبهم وسوء تقدير لمشاعر والدهم. كان يمكنهم أن يذكروا الخير أولًا ثم يُلحقوه بالحاجة، لكنهم اختاروا الطريقة القاسية، وكأنهم اعتادوا أن يلقوا على أبيهم ما يكره سماعه.

أسلوبهم الجارح وتكرار الألم

لم يقف الأمر عند سوء تقديم الكلام، بل زادوا الأمر إيلامًا عندما قالوا ليعقوب: يوسف

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

. هذه الجملة بعينها كانت سبب جرح سابق لا يُنسى، وهي ذات العبارة التي استخدموها من قبل عند طلبهم يوسف، والتي تبعها ضياعه. وكأنهم بذلك أعادوا فتح الجرح القديم في قلب أبيهم، وأثاروا ذكريات يوسف وألمه الذي لم يبرأ منه قط. عندها قال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾، دلالة على أن القلب ما زال يئن من ألم الفقد، وأن ثقة يعقوب في أبنائه لم تعد كما كانت.

خديعة الشيطان وسوء عاقبة المعصية

لقد كانت نية الإخوة من التخلص من يوسف أن يخلو لهم وجه أبيهم، ولكن النتيجة كانت عكس ما تمنوا. فقد زاد تعلق يعقوب بيوسف، ثم ببنيامين، وبقيت محبتهم هم بعيدة عن قلب الأب، لأنهم سلكوا طريق المعصية وظنوا أنها وسيلة لتحقيق غاياتهم. وهذه سنة إلهية: أن من طلب المصلحة من طريق المعصية، فإن الله يحرمه إياها ويبتليه بنقيض قصده. وهذا يصدق على كل من يُقدم على المعصية لأجل منفعة

دنيوية، سواء في المال أو العلاقات أو الطمأنينة، فلا بركة في الحرام، ولا راحة في طريق الشيطان.

🔸 التوكل الحق وفوائده العظيمة

أمام هذا المشهد المليء بالحزن والخذلان، هدّأ يعقوب عليه السلام نفسه بكلمات عظيمة، فقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

🔁 .هنا يظهر الإيمان الراسخ في قلب نبي الله، حيث لجأ إلى أسماء الله الحسنى لتهدئة حزنه وتسكين ألمه. فمعرفة العبد بأسماء ربه هي مفتاح الطمأنينة وقت الضيق، وسر سكينة القلب عند الابتلاء، كما جاء في دعاء النبي ﷺ: "أسألك بكل اسم هو لك... أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي".

فكما أن اسم "الغفور" يريح التائب، و"العزيز" يطمئن الضعيف، فإن "الرحيم" و"الحافظ" يبعثان الأمل في قلب المهموم على أحبّته، ويدعوانه للتسليم والرضا بحكمة الله. وقد ظهرت ثمرة هذا التوكل في حفظ الله ليوسف، بل إن رعاية الله له كانت أعظم من رعاية يعقوب نفسه، لأن الله هيأ له بيئة تربى فيها على العز والطهر، بعيدًا عن الحسد والمؤامرات، ونجّاه من الفتنة، ورفعه إلى مقامات العز في قصر الملك.

🔸 الفرق بين من يتوكل على الله ومن يتوكل على نفسه

حين قال يعقوب: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾، حفظ الله يوسف. وحين قال الإخوة: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ضاع منهم يوسف وبنيامين. الفرق واضح بين من يفوّض أمره لله، ومن يتكئ على حوله وقوته. فالتوكل ليس فقط في الرزق، بل هو في التربية، في حفظ الأبناء، في استقامتهم، في صلاح الزوجة، وفي الثبات على الدين. فكل من قال بصدق: "اللهم إني استودعتك أبنائي"، فإن الله يحفظهم، كما جاء في الحديث: "إن الله إذا استودع شيئًا حفظه".

🔴 رسالة إلى أهل البلاء

وإذا كان يوسف عليه السلام رمزًا للمظلومين الذين اشتد عليهم البلاء، فغزة اليوم، واليمن، والسودان، وكل بقاع المسلمين المتألمين، هم يوسف هذا العصر. الألم عظيم، لكن الأمل أكبر. من يتوكل على الله، ويفعل ما بوسعه، فإن الله يجعل في البلاء

رحمة، وفي المحنة منحة، ويكشف من الغيب ما لا يعلمه العبد، ويقول لنا كما قال يعقوب يومًا: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

🔁 ليست مجرد عبارة، بل هي عقيدة حياة. بها يحيا القلب في عز البلاء، ويثبت حين تتزلزل النفوس، ويطمئن المؤمن حين يُفجع. ففوّض أمرك لله، واستودع أولادك عنده، واذكره بأسمائه الحسنى، فإنه لا يضيع من لجأ إليه.

🔶 المصلحة واستخدام الألفاظ

في سياق قصة يوسف عليه السلام، نلاحظ أن إخوة يوسف عندما كانوا يرغبون في أخذ بنيامين معهم، استخدموا عبارة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ لإظهار الرغبة في مصلحة مشتركة. لكن عندما وقعوا في أزمة واتهم بنيامين بالسرقة، تغيرت الألفاظ بشكل مفاجئ ليقولوا "ابنك سرق". هذه النقلة تظهر كيف أن البعض قد يتلاعب بالألفاظ من أجل تحقيق مصلحتهم الشخصية. فالحين عندما يكون الأمر لصالحهم، يتم استخدام تعبير "أخانا"، بينما في حالة الاتهام يتغير الأمر إلى "ابنك"، وكأنهم يتبرؤون من المسؤولية.

هذه الظاهرة ليست مقتصرة 🔶 على القصص القديمة فقط، بل نراها أيضًا في الحياة اليومية. فالكثير منا، عندما يتحدث عن نجاحات أولاده، يتفاخر ويقول "ابني". ولكن عندما يكون هناك شيء خاطئ أو مشكلة، قد يتبرأ قائلاً "ابنك". وهذا يبرز نوعًا من النفاق الأخلاقي، حيث يحاول البعض نسب الفضل لأنفسهم عندما يسير كل شيء بشكل جيد، ولكنهم يبتعدون عن المسؤولية عند حدوث أي خطأ.

تأثير الإحسان في التأثير على الآخرين

🔁 عندما اكتشف إخوة يوسف أن بضاعتهم قد رُدت إليهم، بدأوا في محاولة إقناع والدهم بإرسال بنيامين معهم. قالوا له: ﴿هذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ وهو تعبير يظهر كيف أن إحسان يوسف عليهم قد أثر في قرارهم. لكن الأكثر تأثيرًا كان حديثهم عن ضرورة إطعام العائلة. وأصبح الوضع أكثر إلحاحًا عندما أشاروا إلى أنهم لن يحصلوا على الطعام في المستقبل إلا إذا عادوا إلى يوسف ومعهم بنيامين.

إن الإحسان له قوة عظيمة في التأثير على الآخرين. ففي حالة يعقوب عليه السلام، رغم الشكوك والمخاوف التي كانت تدور في ذهنه، إلا أن الإحسان الذي لمسوه من يوسف عليه السلام ساعد في تغيير موقفه. كانت الرحمة والتعامل الطيب جزءًا أساسيًا من إقناع يعقوب بإرسال ابنه، وهو درس مهم في كيفية التأثير على الآخرين من خلال الإحسان.

الحلف والوفاء بالعهد

🔶 عندما طلب يعقوب عليه السلام من أبنائه أن يحلفوا له على أنهم سيرجعون ببنيامين، كان يعلم جيدًا أن هذه اليمين ستزيد من مسؤوليتهم تجاه العهد. كان يعقوب عليه السلام يعلم أن الحلف بالله يعزز من صدق التزامهم. على الرغم من أن أبناءه لم يكونوا في أفضل حالاتهم الأخلاقية، إلا أنهم قدروا الحلف وعظموا القسم، مما جعلهم أكثر حرصًا على الوفاء بوعدهم.

من خلال هذه الحادثة، نلاحظ أهمية تعليم الأطفال احترام القسم وتعظيمه. يجب على الآباء أن يكونوا قدوة في هذا المجال، ويعلموا أولادهم كيف يقدسون اليمين ويقفون عنده. كما يجب أن يدرك الأطفال أن الحلف بالله ليس مجرد قول بل هو التزام يجب الوفاء به.

التوكل على الله مع أخذ الأسباب

يعقوب عليه السلام أعطى أبناءه نصيحة هامة قبل أن يرسلهم إلى مصر، وهي أن يدخلوا من أبواب متعددة. كانت هذه النصيحة تدل على أنه يجب أخذ الأسباب، ولكن في نفس الوقت لا بد من التوكل على الله سبحانه وتعالى. وعندما قال "وما أغني عنكم من الله من شيء"، أكد يعقوب عليه السلام على أن جميع الأمور في النهاية بيد الله، وأنه مهما فعلوا من أسباب، فإن الله هو الذي يحدد النتيجة.

🔁 هذا الموقف يوضح مفهوم التوكل السليم. التوكل على الله لا يعني أن نترك الأمور دون أخذ الأسباب، بل يجب أن نعمل جاهدين مع إيماننا الكامل بأن الله هو الموفق. إن التوكل على الله يتطلب منا أخذ الأسباب المادية مع الالتزام بالتوكل القلبي والاعتماد الكامل على الله في النتائج.

🔴 العبرة من رقة قلب يعقوب عليه السلام

رغم كل ما عاناه يعقوب عليه السلام من أبنائه، ورغم الأزمات التي مر بها، إلا أنه كان دائمًا يراعي مصلحة أولاده. عند نقطة معينة في القصة، بدأ يعقوب يشعر بتغيير في سلوك أبنائه، وأصبح يرق لهم ويقول لهم "يا بني"، وهي كلمة مليئة بالمحبة والرحمة. هذا التغيير في اللهجة يعكس التحول في قلب يعقوب عليه السلام تجاه أبنائه بعد أن شعر أنهم بدأوا يتحسنون.

هذه الحادثة تعلمنا أن الحب الأبوي لا يتأثر بالمشاكل والأزمات التي قد تحدث بين الأب وأبنائه. مهما حدث من أخطاء، يبقى القلب الأبوي دائمًا مليئًا بالحب والرحمة. وهذه الرحمة تظل سائدة، حتى في أشد الأوقات الصعبة.

دروس تربوية من القصة

١- تعليم الأولاد احترام الألفاظ: يجب أن نعلم أطفالنا أن الكلمات لها وزن وتأثير، وأننا نستخدم الألفاظ المناسبة في كل سياق.

٢- الإحسان يفتح القلوب: التعامل الحسن والإحسان يؤثر بشكل إيجابي على الآخرين، حتى وإن كانوا في البداية في حالة من الشك أو التردد.

٣- تعظيم القسم والوفاء بالعهد: يجب على الآباء أن يربوا أولادهم على احترام القسم والوفاء بالعهود، وهذا يتطلب أن يكونوا هم أنفسهم قدوة في هذا المجال.

٤- التوكل على الله مع أخذ الأسباب: إن التوكل على الله لا يعني التواكل، بل يعني أن نأخذ بالأسباب بينما نثق بأن الله هو الميسر والموجه.

٥- الرحمة والتغيير الإيجابي: رغم التحديات، يجب على الأب أن يظهر الرحمة والمودة تجاه أبنائه، وأن يتجاوب مع التغيير الإيجابي في سلوكهم.

التوكل على الله وأثر القدر: درس من قصة يوسف عليه السلام

إن التوكل على الله سبحانه وتعالى مع أخذ الأسباب هو أحد المبادئ المهمة التي تعكسها قصة يوسف عليه السلام. وفي هذه القصة، نجد أن هناك توازناً بين التوكل على الله، أخذ الأسباب، وفهم أن كل شيء في النهاية هو من قدر الله الذي لا يُرد. في

هذا المقال، سنتناول عدة نقاط تتعلق بالقدر، الأسباب، والدروس التربوية المستفادة من هذه القصة العظيمة.

🔁 التأكيد على قدر الله وإرادته

عندما كان يعقوب عليه السلام يُوصي أبناءه بدخول مصر من أبواب متعددة، كان يقصد بذلك أن يحفظهم من العين والضرر، ولم يكن يقصد أن هذه الأبواب ستغير شيئًا في قدر الله. فقد أشار يعقوب عليه السلام إلى أن لا أحد يمكنه أن يمنع قدر الله إذا أراد شيئًا. وهكذا نجد أن اتخاذ الأسباب ليس بديلاً عن التوكل على الله، بل هو جزء من العمل الذي يجب أن نؤديه. في النهاية، إذا أراد الله شيئًا فسيحدثه، مهما أخذنا بالأسباب.

🔶 عندما ذهب أبناء يعقوب إلى مصر، كانت النية هي تحقيق مصلحة مادية، ولكن في نفس الوقت كان هناك إيمان بأن هذا كله في يد الله. وفعلاً، لم تُصاب عيونهم بالعين كما كان يعقوب يعتقد. إذاً، ما كان يخاف منه تحقق أن الله قد حفظهم من العين، وهذا مثال آخر على أنه لا شيء يحدث إلا بإرادة الله، وأن الأسباب لا تمنع القدر.

نتيجة دخول الأبناء من عدة أبواب

🔁 حين دخل أبناء يعقوب مصر من أبواب متعددة، كان ذلك جزءًا من التدبير الإلهي. فرغم أنهم كانوا يتبعون نصيحة والدهم، إلا أن هذا الفعل أدى إلى أن يلتقي يوسف عليه السلام بأخوته من بعض الأبواب، كما كان قد قدر الله تعالى. هذا يعني أن تدبير الله قد تحقق من خلال أخذ الأسباب.

وبالفعل، كما ذكر الله في القرآن الكريم، فإن قدر الله نافذ مهما كانت الأسباب. فكما ذهبوا عشرة، عادوا تسعة، وهو ما كان يعقوب عليه السلام يتوقع حدوثه، إذ أصابهم الضرر بسبب خيانتهم لأخيهم يوسف، وبسبب أعمالهم السيئة. وهكذا نرى أن الضرر الذي وقع على إخوة يوسف لم يكن بسبب عدم الأخذ بالأسباب، بل بسبب خطاياهم في الماضي.

🔴 هل أصابهم ضرر؟

🔁 الإجابة هي نعم. لقد أصيب إخوة يوسف بالهم والغم بسبب أعمالهم السابقة من كذب وخيانة ليوسف. لكن في نفس الوقت، تحقق ما كان يخشى عليه يعقوب عليه السلام وهو عدم إصابة أبناءه بالعين. فالمصير الذي وقع عليهم كان نتيجة لذنوبهم، حيث كانت عاقبة الكذب والخيانة مريرة لهم، مما تسبب في تدمير راحتهم النفسية.

لكن مع ذلك، ما كان يعقوب عليه السلام يخشى منه قد تحقق بأن الله تعالى قد حفظهم من العين، وأنه قضى في أمره. لذا كان ما أراده يعقوب قد تحقق بنهاية الأمر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

الفائدة من العمل بالعلم

🔁 ذكر الله تعالى في الآية الكريمة أن يعقوب عليه السلام كان "لذو علم لما علمناه". هذا يعني أن علمه لم يكن مجرد معرفة نظرية بل كان يعمل بما يعلمه من الله سبحانه وتعالى. يعقوب عليه السلام لم يكتفِ بالعلم فحسب، بل طبقه في حياته وفي تربيتهم.

🔶 من هنا نستلهم درسًا مهمًا وهو أن العلم لا قيمة له إذا لم يعمل الإنسان به. "من لا يعمل بالعلم لا يصح أن يسمى عالماً"، فالعلم يجب أن يُترجم إلى أفعال. وهذا هو سر الحكمة في تصرفات الأنبياء والمرسلين، الذين كانوا دومًا عاملين بما علمهم الله سبحانه وتعالى.

أهم الدروس التربوية:

١- الحذر لا يمنع القدر: حتى مع اتخاذ الحذر والأسباب، تظل الأمور بيد الله وحده. وهذا يشير إلى أنه يجب علينا أن نتوكل على الله بعد أن نأخذ بالأسباب.

٢- بر الوالدين حتى دون فهم الأسباب: يعقوب عليه السلام كان يُوصي أبناءه بأشياء قد لا يفهمون سببها بشكل كامل، لكنهم أطاعوه في النهاية. من هنا نجد أهمية طاعة الوالدين وتقدير أوامرهم، حتى وإن لم نفهم دائمًا الحكمة وراءها.

٣- الاعتماد على الله في كل شيء: مهما كانت خططنا محكمة، ومهما أخذنا بالأسباب، يجب علينا أن نعلم أن الأمور في النهاية بيد الله. التوكل على الله يعني أن نؤمن بأن الله سيحقق لنا الأفضل حتى وإن كانت خططنا غير كافية لتحقيق ما نريد.

٤- عواقب الذنب مريرة: من خلال ما أصاب إخوة يوسف من الهم والغم بسبب ما ارتكبوه من أخطاء، نُدرك أن الذنب له عواقب، سواء كانت نفسية أو مادية. يجب أن نتجنب الأعمال السيئة لأنها ستؤدي في النهاية إلى الألم.

٥- التعامل مع قدر الله برضا: على الرغم من أن يعقوب عليه السلام فقد ابنه يوسف وواجه العديد من التحديات، إلا أنه كان دائمًا راضٍ بقضاء الله وقدره. هذه هي قمة الإيمان، أن نرضى بما قضاه الله حتى وإن كان فيه ألم.

****

المحاضرة العاشرة
إني أنا أخوك | الخطة اليوسفية

المقدمة

في هذه الحلقة المباركة من سلسلة التأملات في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، نقف على مشهد تتجلى فيه أسمى معاني الأخوّة، وأرقّ مشاعر اللقاء بعد فُرقة طالت واشتدّ لهيبها. إنه مشهد لقائه بأخيه الشقيق بنيامين، ذلك اللقاء الذي جمع بين شوق سنين، ودموع الفقد، ودفء الحنين.

حين دخل الإخوة على يوسف عليه السلام، وكانوا قد اصطحبوا بنيامين معهم كما اشترط عليهم، دارت الأحداث بخطة حكيمة أراد بها يوسف أن يختلي بأخيه بعيدًا عن أعين بقية إخوته. لم تكن الغاية مجرد البوح بالحقيقة، بل كانت الحاجة ماسة إلى لحظة إنسانية صادقة، يعيد فيها يوسف لأخيه الشعور بالأمان الذي افتقده طويلًا.

ففي الغرفة التي اجتمع فيها الأخوان، ووسط سكونٍ يعانق القلوب، قال يوسف لأخيه بهدوء يملأه الحب: " إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ". لم تكن تلك الجملة مجرد كشف عن الهوية، بل كانت بلسمًا لجراح القلب، وعناقًا بالكلمات قبل الأذرع، وصدى نداءٍ ظلّ ينتظر الإجابة لسنين.

تلك اللحظة لا تُقاس بطولها الزمني، بل بعمق أثرها الروحي، فقد طوت سنين الغياب في لحظة، وجعلت الحزن يتلاشى أمام دفء اللقاء. شعر بنيامين لأول مرة منذ رحيل يوسف أن له سندًا، وأمانًا، وبيتًا يعود إليه. لقد عاد إليه يوسف، لا فقط كشقيق غائب، بل كأملٍ كان يظنه قد اندثر.

🔶 ويبرز في هذا المشهد تجلٍّ قرآني عميق لمعنى الأخوّة، تلك التي تُغذّيها الرحمة، وتُشعلها المحبة، وتُثبّتها المواقف. أخوّة لا يعرفها إلا من عاش مرارة الغياب، ولا يقدّرها إلا من ذاق ألم الوحدة. وهذا المعنى يعيده لنا القرآن الكريم مرارًا، في قصص الأنبياء، كما في أخت موسى التي رافقته في غربته، وهارون الذي كان دعامة لموسى في دعوته.

🔁 هذا اللقاء لا يُعلّمنا فقط عن الحيلة الذكية أو الرحمة النبوية، بل يوقظ فينا قيمة الكلمة التي تُقال من القلب لتصل إلى القلب. " إِنِّي أَنَا أَخُوكَ" كانت مفتاحًا للطمأنينة، ورسالة صادقة بأن الأواصر إذا غابت عن العين، فإنها لا تغيب عن القلب.

إنه درس عميق في احتواء من نحب، في قول ما نحتاج قوله قبل أن يسرقنا الغياب، وفي أن نكون لأحبابنا كما كان يوسف لأخيه: مأوى وأمانًا وسندًا. فما أجمل أن نُعيد لهذه الكلمة معناها، وأن نُحيي بها مشاعر نقيّة توارت خلف صخب الحياة.

حين تتحوّل البيوت إلى ساحات جفاء بدلًا من حضن إخوة... رسالة إلى من نسي دفء الأخوّة

🔶 في زحمة الحياة وانشغالاتها، بدأت الروابط الأسرية تفقد وهجها، وانطفأت مشاعر كانت يومًا من أنقى ما في الوجود. لم تعد بيوتنا كما عهدناها، صوت الضحك تراجع، وملامح الحنان بهتت، حتى الإخوة الذين كنا نرى فيهم سندًا باتوا أحيانًا أول مصدر للخذلان.

المؤلم أن العلاقات التي يُفترض أن تكون الأمتن والأقرب باتت مشوبة بالغيرة والأنانية والخصام على أتفه الأسباب: شاحن هاتف، قطعة ملابس، نظرة عابرة، أو حتى كلمة قيلت بلا قصد. يمر يوم كامل دون كلمة طيبة أو حضن دافئ، وتُغلق الأبواب بين الأخوة وكأنهم غرباء تحت سقف واحد.

ما أثقل شعور الإنسان حين يحتاج حضن أخيه، فلا يجده. حين يمتلئ قلبه بما لا يُقال، ويبحث عمّن يشاركه حزنه فلا يرى إلا جدران الصمت واللامبالاة. رغم أن الأخ –

في حقيقته – ليس فقط من يشاركنا الجينات واللقب، بل من يمسح دمعنا إذا بكينا، ويضحك من قلوبنا حين ننسى معنى الفرح، ويقول لنا في لحظة انكسار: "أنا معك، لا تبتئس".

حين قال نبي الله يوسف لأخيه: ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ كانت تلك الجملة بمثابة حياة جديدة تُسكب في قلب منهك، فقد كل شيء، حتى الأمان. ليست المسألة في مجرد كلمات، بل في حضور، واحتواء، وطمأنينة لا تُشترى.

أحيانًا، يكون أغلى ما يفعله الأخ أو الأخت هو أن يشعر بك، أن يقرأ حزنك دون أن تنطق، أن يجلس بجوارك دون سبب، أن يربّت على كتفك في صمت، فيكون حضوره أبلغ من ألف حوار. ولكن أين كل ذلك اليوم؟ كم من إخوة يتعاملون بعداوة مقنّعة، أو ببرود قاتل، أو بغياب لا تبرّره المسافات؟

كم من شخص بات يرى في أصدقائه غرباء أقرب إلى قلبه من إخوة أنجبهم ذات الرحم؟ وكم من بيت غاب عنه دفء الأخوة، فبات أشبه بمكان إقامة لا بملاذ حب؟

🔶 هناك من عاش طوال حياته محرومًا من أخ يحتضنه، يثق به، يحميه حين ينهار، ويشاركه همّه دون أن يُحاسبه. وهناك من وجد في صديقٍ ما لم يجده في أخيه، فصار يقول: "هذا هو أخي الحقيقي... لا ذاك الذي يحمل اسمي فقط".

ووسط كل هذا الجفاء، تظل هناك أرواح نقيّة، قلوب دافئة، إخوة حقيقيون لا تلهيهم الحياة عن السؤال، لا يخجلون من التعبير عن حبهم، لا يبخلون بكلمة "أنا هنا"، ويمدّون أذرعهم حين تضيق بك الأرض، فيحتضنونك بقلب لا ينتظر شيئًا منك سوى أن تكون بخير.

الأخوّة الحقيقية نعمة لا تُقاس بالسنوات ولا تُقاس بالقرابة، بل بالمواقف والمشاعر. هي حضن حين ترتجف، ويد حين تسقط، وكلمة حين تصمت، ودمعة حين تختنق. هي أمان يرمّمك، وإن لم يكن في جيبه مال، يكفيه قلبه.

ليتنا ندرك أن لحظة صدق بين الإخوة أغلى من سنوات من الصمت، وأن ضمة صادقة قد تنقذ روحًا على حافة الانهيار، وأن كلمة "لَا تَبْتَئِسْ" من فم أخ، قد تكون أغلى من كل العالم.

العنوان: الأخوّة الصادقة.. قلبٌ ينبض بحب الله

ما أعظم أن تُحب في الله، وتزور من تحب لا لشيء إلا لله، كما فعل ذاك الذي خرج يزور أخًا له في الله، فسأله ملك أرسله الله: ألك عليه من نعمة تربّها؟ فقال: لا، إنما أحببته في الله. فقال له الملك: فإني رسول الله إليك، يخبرك أنه يحبك كما أحببته فيه. يا سلام! أيّ منزلة وأيّ شرف هذا الحب في الله!

الصدق في الأخوة أن تفرح لفرح أخيك، ولو كنت تفتقد ما رُزق هو به، أن تُبارك لأختك إن رزقت بولد وأنت محرومة، أو تفرح لصاحبك إن ترقّى وأنت مكانك، تبارك وتفرح وتدعو له، بنَفْسٍ راضية نقية من الحسد والغل. هذا هو الإيمان الحقيقي، أن تُحب الخير لغيرك كما تحبه لنفسك.

🔁 ومن أقوى صور الأخوّة أن تحزن لحزن أخيك، فالمشاركة في الفرح سهلة، لكن الوقوف في الشدة والحزن لا يقدر عليه إلا الصادقون. مثل تلك المرأة من الأنصار، التي ضربت أروع المواقف في المواساة والإيثار، حين آثرت غيرها على نفسها.

فالإيثار علامة عظيمة من علامات الإيمان، أن تترك خيرًا لك من أجل أخيك، كما فعل حكيم بن حزام حين سدد نصف دَين الزبير بن العوام وهو واقف، دون تردد. مشهد من مشاهد الأخوّة التي تُخلّد في كتب الأخلاق قبل الفقه.

وانظر إلى ذاك الذي حج مع النبي ﷺ، لكنه يقول "لبيك عن شبرمة"، فسأله النبي: "أحججت عن نفسك؟"، قال: لا، فقال له: "حجّ عن نفسك ثم عن شبرمة". أي حب هذا؟! أي إيثار؟! حج مع النبي ويهديه لأخيه في الله! يا بخت شبرمة، ويا بخت من له صاحب بهذا الصدق!

ومن صفات الأخوة الصادقة ستر العيوب، لا أن تُفضح أخاك عند الناس، أو تمسك عليه زلة تُهدده بها، بل تحفظ سره وتُؤتمن على عيبه. وكذلك التسامح مع الزلات، ألا تقف على كل كلمة، وتتعامل بقسوة مع من هو أقرب الناس إليك، بينما تتجاوز الغرباء في الشارع والعمل بابتسامة ورضا.

🔶 الأخ في الله لا يُفرّط فيه، بل يقدّره ولو كان على عيب، لأنه أعزّ من غيره، وأقرب إلى القلب. إذا أخطأ، تعذر له، وإذا نسي، تغفر له، لأن رصيد الحسنات والمواقف بينكما لا يُمحى بموقف واحد.

وإذا حدث خلاف ـ ولا بد أن يحدث ـ فالهجر لا يزيد عن ثلاث ليالٍ، لا تُطيل الخصام، بل بادِر بالصلح، وقل: "أنا آسف، سامحني"، ولو من طرف واحد. فإن الأخوة الإيمانية لا تحتمل القطيعة ولا الجفاء، ومن يطيل الخصام خالف السنة.

حين غضب أبو بكر على بلال وصهيب دون قصد، وسارع يبحث عنهما ليطلب الصفح، لأنه علم من النبي ﷺ أن من أغضبهم فقد أغضب الله، فكان ردّهما الكريم: "غفر الله لك"، وتساهلا معه لأنهما عرفا صدق نيته. هكذا تُبنى الأخوة الصادقة، بالتجاوز والعفو والتماس الأعذار.

لا تبحثوا عن أخ بلا عيب، فكلنا ذوو خطأ، لكن ابحثوا عن قلب يُحبكم رغم العيوب، عن نفس تصفو لكم، وتُعينكم على الطاعة. لن تجدوا مثل الأخ في الله، رفيق الطريق إلى الله، الذي يُعينك على الطاعة، ويذكّرك إن نسيت، ويأخذ بيدك إن ضعفت.

اللهم ارزقنا أخوّة صادقة فيك، قلوبًا نقية، ونفوسًا مُطمئنة، تُحب وتغفر، وتستر وتُعين، وتكون لنا زادًا إلى الجنّة.

علامات الأخوة الصادقة... حين يحزن قلبك لحزني

في زمن كثر فيه التظاهر بالمحبة، باتت الأخوّة الصادقة عملة نادرة. الصديق الصادق لا تميّزه في لحظات الفرح، بل تعرفه حين يحزن لحزنك، حين تتألم فيشعر بك، وكأن ألمه من ألمك. ففي وقت الفرح، تكثر الوجوه، لكن وقت الضيق... تختفي معظمها، إلا وجه الأخ الذي يحملك في قلبه.

🔶 من أجمل صور هذه الأخوّة، ما روي عن الصحابي الجليل حكيم بن حزام، حين رأى عبد الله بن الزبير مهمومًا بدَين تركه والده الزبير بعد وفاته، فقال له كم الدين؟ فأجابه: ألفا ألف، أي اثنان مليون، فما كان من حكيم إلا أن قال: "عليّ بألف ألف". سداد دين عن أخ في الله، دون تردد، مشهد من أنبل ما يكون في الإيثار.

ومن صور الإيثار المؤثرة أيضًا، موقف الرجل الذي أحرم في الحج عن صديقه شُبرمة، قبل أن يؤدي الحج عن نفسه، فلما سأله النبي ﷺ: "أحججت عن نفسك؟"، قال: لا، قال: "حج عن نفسك ثم عن شبرمة". رغم خطأ الترتيب، يبقى المشهد مؤثرًا، فقد آثر صاحبه بأداء عبادة عظيمة، وفي صحبة رسول الله ﷺ. أي حب هذا؟!

لكن الأخوة لا تكتمل إلا بستر العيوب والتغافل عن الزلات. كم من أناس يدّعون المحبة، فإذا عرفوا عنك عيبًا أذاعوه، أو استخدموه ضدك! والأخ الصادق هو من يستر، من يطمئنك أن سرك في أمان، وأن زلّتك في بحر التسامح.

بل المصيبة أن بعضنا يعامل الناس خارج محيط الإيمان بصدرٍ رحبٍ، صبرٌ على الأذى، وتحمّلٌ في المواقف، لكنه يقسو على أخيه في الله. يزعل منه، يخاصمه، وربما يهجره لأيام وشهور، في حين أن النبي ﷺ نهى عن الهجر فوق ثلاث. وكان الصحابة يتسابقون في تجاوز الزلات، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، حين غضب صهيب وبلال، فسارع إليهما يطلب الصفح مخافة أن يكون أغضب ربه بغضبهم.

حتى الشعراء عبّروا عن هذه المعاني العظيمة، كما في قصة الأخ الذي كتب لأخيه:

"أخي إن لي عندك مظلمة، فاستفتِ فيها ابن أبي خيثمة،

فإنه يروي لنا عن جده، ما قد روى الضحاك عن عكرمة...

عن ابن عباس عن المصطفى، نبينا المبعوث بالمرحمة:

أن صدود الألف عن ألفه، فوق ثلاث ربنا قد حرّمه"

هذه الأخوة الصادقة، التي ترى في أخيك نفسك، حتى إذا طرق الباب قلت "أنا"، فرد عليك: "أحسنت تعريف الهوى، فادخل يا أنا".

إنها الأخوة التي نسأل الله أن يرزقنا صدقها، ويجمعنا بها على سرر متقابلين. فهي ليست فقط مشاعر، بل عمل، ستر، إيثار، تجاوز، وصبر. إنها نعمة عظيمة من نعم الله على عباده المتحابين فيه، أولئك الذين قال عنهم: "وجبت محبتي للمتحابين فيّ".

🔶 التدبير الإلهي في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته: روائع الحكمة ولطائف الشريعة

في هذا السرد البديع لأحداث قصة يوسف عليه السلام، نلمس عمق الحكمة الإلهية، ولطافة التدبير الرباني الذي نسج خيوط الحدث بدقة وعناية، دون أن يتورط يوسف عليه السلام في الكذب أو الظلم، بل جاءت كل كلمة وكل تصرف في سياق من الإلهام الرباني.

يتضح في المشهد أن يوسف عليه السلام لم يكن يقصد إيذاء أبيه يعقوب عليه السلام حين أبقى بنيامين عنده، بل كان ذلك بأمر من الله تعالى، الذي أراد أن يرفع يعقوب عليه السلام درجات بالصبر على البلاء، وهو من سنن الله في الأنبياء والصالحين، حيث قال النبي ﷺ: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل".

حين جهز يوسف عليه السلام إخوته بجهازهم، وضع "السقاية" في رحل أخيه بنيامين، والسقاية كانت وعاءً صغيرًا غالبًا من فضة أو ذهب، يُستخدم للكيل أو للشرب، ويُعتقد أنه كان مخصصًا للكيل في ذلك الوقت، ما يدل على الدقة في توزيع الحبوب. وقد يجوز في شريعة يوسف استخدام آنية الذهب والفضة، لكن في شريعتنا الإسلامية نُهينا عن ذلك.

خطط يوسف عليه السلام لأخذ بنيامين وفقًا لشريعة إبراهيم عليه السلام، التي كان يتبعها هو وإخوته، والتي تنص على أن عقوبة السارق هي أن يُصبح ملكًا لمن سُرق منه. ولأن هذه الشريعة تختلف عن شريعة أهل مصر، فقد كان من الضروري أن تُطبق العقوبة على أساس شريعتهم هم، أي شريعة بني إسرائيل.

ويُلاحظ إعجازًا لغويًا بديعًا في الحوار الذي دار بين يوسف وإخوته ومن حوله، حيث لم تُذكر كلمة "سرق" أو "سارق" صراحة، بل جاءت الكلمات محكمة لا تُوقع يوسف في الكذب. فقيل: "أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ"، وهي كلمة عامة قد تشير إلى سرقتهم ليوسف عليه السلام في الماضي. ثم سُئلوا: " مَاذَا تَفْقِدُونَ؟" بدلًا من "ماذا سُرق؟"، فأجابوا: " قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ "، ولم يقولوا "سُرق الصواع"، لأنهم لم يعرفوا بعد من أخذه.

ثم عُرضت مكافأة لمن يعثر على الصواع، وهي " حِمْلُ بَعِيرٍ "، وقال المعلن: " وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ". وهنا "زعيم" تعني "ضامن"، أي يضمن الجائزة لمن يجده، وهذا يؤسس لمفهوم "الجعالة" في الفقه الإسلامي، أي الوعد بمكافأة على عمل مجهول النتيجة.

ردَّ الإخوة بقَسمهم "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ". وهنا مرة أخرى لم يقولوا "لم نسرق الصواع"، بل اكتفوا بالنفي العام. فلما سُئلوا عن الجزاء، قالوا: " قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ". ولم يقولوا "من سرق"، ما أبقى يوسف عليه السلام في منأى عن الاتهام بالكذب.

هذا التدبير الإلهي العجيب و"الكيد الرباني" ليوسف عليه السلام – كما جاء في قوله تعالى: "كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ" – مكّن النبي الكريم من الوصول إلى مقصده من غير أن يخالف شرعًا أو ينطق بكذب، بل كانت كل الألفاظ والتصرفات وفق شريعة إبراهيم التي اتبعها يوسف وأخوته، بينما لم تُخالف شريعة المصريين في ظاهر الأمر، ما يُبرز حكمة الله في إنفاذ أمره بلطف بالغ.

🔶 تظهر في القصة روعة التوازن بين التدبير البشري والإلهام الرباني، بين الذكاء الإنساني والإرادة الإلهية، في موقف بالغ التعقيد، تم تدبيره بلغة صادقة وشرع محفوظ، دون أن يُمسّ أي مبدأ من مبادئ النبوة أو يُهدر خلق من أخلاق الرسالة.

"دروس الإيمان والتوحيد في قصة يوسف عليه السلام: عبر ودروس في التعامل مع الحسد والقدر"

🔁 في قصة يوسف عليه السلام، نرى مشهدًا يعكس عمق المعاني والدروس الإيمانية المتعلقة بالتوحيد والتسليم لله تعالى. بدأت القصة حينما كان يوسف عليه السلام في مصر، حيث كان في مكانة مرموقة بسبب ما أنعم الله عليه من علم ونعمة. يوسف كان قد أصبح خزان الأرض في تلك الفترة، مما منحه سلطة هائلة على الموارد والمقدرات في مصر.

ورغم المكانة التي وصل إليها، فإن يوسف كان يظل مرتبطًا بجذوره الإيمانية ورسالته التي جاء بها، وهي الدعوة إلى التوحيد. ورغم أن أهل مصر كانوا يلتزمون بشريعة مختلفة، إلا أن يوسف كان يطبق الشريعة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، التي كانت تلزم بني إسرائيل. لكنه لم يكن في موقف ليجبر أهل مصر على اتباع شريعته، بل كان هدفه الأول هو التأكيد على التوحيد، لأن عقيدة الأنبياء واحدة لا تتغير، رغم اختلاف الشرائع.

🔶 أثناء تعامل يوسف مع أخوته من بني إسرائيل، كان الموقف يتطلب منه أن يحكم بناءً على شريعة إبراهيم عليه السلام، حيث كانت الأمور تتطلب اتخاذ قرارات تتوافق مع هذه الشريعة، خاصة في مسألة السرقة التي كانت قد حدثت من أحدهم. عندما اشتبكوا مع يوسف بشأن السرقة، قالوا "قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ"، إشارة إلى ما كان قد فعله يوسف عليه السلام عندما كان صغيرًا في بيت أبيه.

ورغم مرور الزمن، لا تزال قلوبهم مليئة بالحقد تجاهه، حيث أن نار الحسد لم تنطفئ، بل ظلوا يشعرون بالكراهية تجاهه.

🔁 هذا يعكس حقيقة أن الحسد لا يمكن أن يُطفأ إلا عندما يعترف الشخص بأن الله هو الذي يقسم الأرزاق ويصطفي من يشاء. كانت اللحظة التي أخبروا فيها يوسف قائلا "تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" هي اللحظة التي اعترفوا فيها بخطأهم وأن الله هو الذي قدّر كل شيء. لكن ذلك لم يكن كافيًا لتبرد نار الحسد في قلوبهم، مما يدل على أن الحقد يظل مخفيًا مهما حاول الإنسان كتمانه.

🔶 أما بالنسبة للملك في مصر، فقد كان يعتبر يوسف في مكانة عليا، ورفع الله شأنه ودرجته كما يرفع الله المؤمنين والعلماء من خلقه، حيث قال تعالى: "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ" وهذا يعكس أن رفعة يوسف كانت بمشيئة الله وحده، ولا يمكن لأي شخص أن يعلى شأنه إلا بتوفيق الله ورعايته. في الوقت نفسه، كان يوسف يتحلى بالتواضع رغم المكانة العالية التي بلغها، مؤمنًا بأن العلم والمعرفة أمران لا حدود لهما، وأنه مهما بلغ الإنسان من علم، فإنه سيظل هناك من هو أعلم منه، وأن علم الله هو الأسمى والأعظم.

🔁 وهكذا تبرز القصة في أبعادها العميقة التي تتجاوز الحكاية التاريخية لتتناول قيم التوحيد، والتسليم للقدر الإلهي، والتعامل مع الحسد والنفاق، وكيف أن الله تعالى هو الذي يرفع ويخفض من يشاء في الدنيا.

🔴 تبرز هذه القصة درسًا عظيمًا في أنه لا يوجد رفعة حقيقية إلا برضا الله، وأن السعي وراء الحسد والمكر لن يحقق أي منفعة دائمة، وأن التوبة والاعتراف بالخطأ هو الطريق الوحيد للشفاء الداخلي والصفاء النفسي.

🔶 الدرس من صبر يوسف عليه السلام وضبط النفس في مواجهة الظلم والتعامل مع التهم الباطلة"

تم الحديث عن عدة جوانب من حياة النبي يوسف عليه السلام كما وردت في كتب التفاسير، وخاصة في تفسير ابن كثير، والذي يسلط الضوء على موقفه من الظلم والاتهام بالسرقة. يُحكى أن يوسف عليه السلام تعرض للاتهام بالسرقة في أكثر من مناسبة، وقد وردت في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي نقلها ابن كثير. أول هذه القصص تتعلق بهجوم بعض أفراد العائلة على يوسف عليه السلام، حيث ذكر أن

أحدهم اتهمه زورًا بسرقة صنم كان قد حصل عليه من جهة أمه. وهو ما أدى إلى وقوعه في فخ الاتهام، لكنه لم يستجب لتلك التهم.

🔁 إحدى الروايات الأخرى تتعلق بعمته التي كانت تحب يوسف عليه السلام وتريد إبقاءه معها. وقد أوردت الرواية أن عمته كانت قد تآمرت ضده بعد أن تهمته بسرقة حزام كان قد ورثه عن إسحاق عليه السلام، مما جعل يوسف يبقى معها حتى وفاتها. بالرغم من أن هذه القصة وردت في التفاسير، إلا أنها تثير تساؤلات حول صحة بعض التفاصيل المرتبطة بها. كيف يعقل أن يقوم أحد أفراد عائلة النبي يوسف عليه السلام بمثل هذا التصرف الظالم ضده؟ وكيف يمكن لزوجة أحد الأنبياء أن تشارك في عبادة الأصنام وتتهم يوسف زورًا؟

🔶 في هذه الروايات، نجد أن بعض التفاصيل تتسم بالغموض وتثير تساؤلات حول الحقيقة والنية في سرد بعض الأحداث. ومع ذلك، يبقى درسا مهما يتمثل في التعامل مع المواقف الصعبة بروح من الصبر، وخاصة في المواقف التي يتعرض فيها الإنسان للظلم.

🔁 الدرس الرئيس الذي يمكن استخلاصه من هذه القصص هو الصبر والهدوء في مواجهة الاتهامات الباطلة. يوسف عليه السلام لم يتسرع في الرد أو الانتقام حينما تعرض لاتهاماته من أخوته، بل اتبع نهج الصبر وضبط النفس. كان يرد عليهم بعبارات مليئة بالسلام الداخلي والثقة في الله، مثل قوله :"قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ"

🔁 مما يعكس موقفًا قويًا مليئًا بالتفاؤل والإيمان، وعدم الاستجابة للاستفزازات.

تعتبر هذه القصة نموذجًا رائعًا للتعامل مع الظلم والتهم الزائفة، حيث يدعو يوسف عليه السلام إلى تفويض الأمر لله والابتعاد عن الاستجابة العاطفية السريعة. كما يبيّن أن من يتحلى بالصبر ويضع ثقته في الله ينجح في تجاوز الأزمات. فإن الانفعال والانتقام لا يؤديان إلا إلى مزيد من العواقب السلبية، بينما التفويض لله وعدم الرد على السلوكيات السيئة يؤدي إلى التهدئة والراحة النفسية.

من أهم النقاط التي نراها في حياة يوسف عليه السلام هي كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على هدفه في الحياة رغم الصعاب، وذلك عبر الإيمان بالله والتفكير العقلاني في مواقفه. القصة تبيّن أن تصرفات الإنسان يجب أن تكون مدروسة وهادئة، خاصة في الأوقات التي يمر فيها الشخص بمواقف صعبة أو عند تعرضه للظلم. فالتسرع في الردود على المواقف الصعبة قد يعقد الأمور أكثر من أن يحلها.

وفي سياق آخر، تسلط القصة الضوء على أهمية تحمّل المسؤولية في المواقف الصعبة وعدم الانحراف عن الطريق الصحيح، حيث نجد أن يوسف عليه السلام قد أثبت قوة الشخصية والتحكم في مشاعره، مما أتاح له أن يمر بتجارب الحياة المختلفة بنجاح. فالصبر على الظلم يعزز مكانة الإنسان في المجتمع، بل ويقوي شخصيته ويزيد من احترام الناس له.

🔴 كما يُستفاد من القصة أن المظلوم الذي يثق بالله ويعتمد عليه في الأوقات الصعبة سيكون في النهاية هو المنتصر، بينما من يسعى للانتقام أو التلاعب بالآخرين سيخسر مكانته ويقل احترامه. هذه الحقائق تمثل دليلًا مهمًا على أن الأمور يجب أن تترك لله لتولي تدبيرها، فالله خير الحاكمين.

الدرس الأخير الذي يمكن تعلمه هو أن الصبر على الظلم، وضبط النفس في وجه الاستفزازات، والإيمان العميق بأن الله سيحقق العدالة، هي الوسائل التي ينبغي على الإنسان اتباعها للنجاح في الحياة. تظل قصة يوسف عليه السلام من أهم الأمثلة التي تعلّمنا كيف نتعامل مع الظلم ونصبر على الأذى من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

"فوضت أمري إلى الله، والله أعلم بما تصفون."

****

المحاضرة الحادية عشر
بطولة يعقوب وشكوى عاجلة

المقدمة

"الملتزم الحقيقي.. دروس من يوسف عليه السلام في الثبات والعزة"

في قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾

نتوقف عند عدة تأملات عظيمة تحمل معاني تربوية وعقائدية راقية.

-أولًا: "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ"

تأمل هذا النداء! كيف أن الله عز وجل أعز يوسف عليه السلام، وجعله موضع احترام ورفعة، بعد أن أراد له إخوته الذل والمهانة. سبحان الله! الآن هم بأنفسهم يخاطبونه بلقب "الْعَزِيزُ".

ومن اللافت أن منصب يوسف في مصر لم يُعرف بلقب "الوزير" أو "القائد"، بل كان "العزيز" – لقبًا اختصه الله به، وكأنها رسالة خفية: الله هو الذي يهب العزة لمن يشاء، ولو اجتمع الخلق لإذلاله.

ها هم الآن يقفون أمام يوسف عليه السلام، في ذلٍّ ومسكنة، يخاطبونه بما لم يكونوا يتمنون له، ولكن إرادة الله نافذة، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وهكذا نُدرك أن العزة في طاعة الله وحده، كما قال سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾،

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقال النبي ﷺ: "وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري"،

فإن الذل في المعصية، ولو في الظاهر حرية وسعة، والعزة بالطاعة، ولو في ضيق وسجن. فقد كان يوسف عزيزًا حتى في السجن.

-ثانيًا: "إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا"

هنا نراهم يتوسلون، يتكلمون بعاطفة ورحمة تجاه أبيهم، ويتوسلون بضعف الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام. ولكن السؤال:

أين كانت هذه الرحمة؟ أين كانت هذه الشفقة، حين ألقوا يوسف في البئر؟

أين كان قلبهم من قبل، حين فرقوا بين الأب وفلذة كبده دون رحمة؟

سبحان الله! تناقض عجيب، يتذكرون الشيخ الكبير اليوم، ويستعطفون به، بعدما لم يعبؤوا ببكائه ولا بحزنه من قبل.

هم لا يحبون بنيامين، لكنهم يخشون كسر أبيهم وخيانة الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم. فهم يحاولون النجاة، لا حبًا في أخيهم، بل حرصًا على صورتهم أمام أبيهم، ورغبة في أن لا يُفتضح أمرهم أكثر.

-ثالثًا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ما أعجب هذا التعبير!

قالوها وهم لا يعرفون أنه يوسف، وقالها قبله السجناء حين رأوه في محبسه.

وفي كل أحواله، سواء في بيت امرأة العزيز، في السجن، أو وهو عزيز مصر، تكررت الشهادة: "مِنَ الْمُحْسِنِينَ".

النسوة قلن عنه: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ثبات على الطاعة، ثبات على الخلق، ثبات على الإحسان، مهما تغيّر المكان والزمان والحال.

يوسف هو هو، في المحنة والمنحة، في القاع وفي القمة، في البئر وفي القصر، في السجن وفي الملك.

🔶 وهذا هو التعريف الحقيقي للـ"الملتزم"

الملتزم الحقيقي هو الذي لا يتلون، لا يتبدل، لا يتغير حسب الظروف أو الأمكنة أو الناس.

هو هو، في المسجد، في البيت، في الجامعة، في السوق، في الفرح، في الغضب، في السر، في العلن.

الملتزم ليس من له وجه أمام الناس، وآخر في بيته، تراه لطيفًا في المسجد، وأمه تقول: "هو في البيت لا يصلي، عصبي، لا أخلاق له".

ولا هي التي يقال عنها: "أخت فاضلة"، بينما زوجها وأولادها لا يرون منها شيئًا من هذه الفضل.

الملتزم الحقيقي هو الذي يُعامل الله، لا يُمثل أمام الناس، ولا يرتدي قناعًا في المناسبات.

يوسف عليه السلام يُعلمنا أن الاستقامة ليست موقفًا عابرًا، بل هي حالة دائمة، ثابتة، لا تتغير.

الإحسان لا يُبنى على الظروف، بل ينبع من القلب المتصل بالله.

"من محنة يوسف إلى دروس في الإحسان والرحمة والعدل"

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تتجلّى شهادة عظيمة في حق يوسف عليه السلام، صادرة هذه المرة من إخوته الذين ما عرفوه بعد. العجيب أن يوسف كان محسنًا حتى وهم يعرفونه، لكنه لم يُرَ كمحسن في أعينهم يومًا، لأن عين الحقد والحسد لا ترى المحاسن، بل تبحث عن العيوب ولو لم تكن موجودة. تلك هي طبيعة البغضاء، تُعمي البصيرة وتشوه الصورة، فلا يُبصر المحسنون إلا في غياب الحسد.

ومن الفوائد في قولهم: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أنهم استعطفوا يوسف بذكر حال أبيهم، يعقوب عليه السلام، وما يتحمله من ألم الفقد، غير أنهم تناسوا أنهم هم أنفسهم مَن مزق قلب هذا الأب، حين ألقوا بابنه في غياهب الجب دون رحمة. فيا للعجب من قلوب أقسى من الحجر، ثم تتظاهر الآن بالرحمة، وهي من قبل لم تُبدِ أدنى شفقة على نفس الشيخ الكبير.

وهنا دعوة للتأمل: من كان له أب شيخ كبير، فليتأدب معه، وليتحمله، حتى وإن كبر وصار سريع الغضب، ضيق الخُلق. فإن بلغ الكِبَر، وجبت عليك الرحمة أكثر من أي وقت مضى، قال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ...﴾

🔁 ومن الدروس العميقة كذلك: حين أُخذ بنيامين، لم يكن هو المتألم فقط، بل الأب المسكين كان الأشد ألمًا. وهذا يفتح أعيننا على حقيقة أن السجن لا يوجع المسجون وحده، بل يُمزق قلوب من يحبونه. لذا، فليتقِ كل صاحب سلطة في قراراته، فإن ظلم شخصًا واحدًا، فقد ظلم أسرًا من حوله. وقد يُفقد والد بصره من شدة الحزن، أو تمرض أمٌ من وجع الفقد.

🔶 وهذه رسالة أيضًا للشباب: لا تُعرض نفسك للسجن بتهور أو ذنب. سرقة، مخدرات، سلوك شائن... كلها طرق تُؤذي بها نفسك، وتكسر بها قلوب أهلك. فإنك حين تُسجن، لست وحدك من يتألم، بل والديك، إخوتك، أسرتك بأكملها. فرجاءً، فكّر ألف مرة، فالخطأ لا يدمرك وحدك.

وأخيرًا، وقفة مع قول يوسف عليه السلام:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾

كلمات من نور، تفيض عدلًا وإنصافًا. لم يقل "من سرق"، بل قال "مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا"، إشارة دقيقة إلى براءته من التهمة، مع الحفاظ على صدق القول. ثم يُقرر قاعدة عظيمة: لا يجوز أخذ أحد بجريرة غيره، فهذا هو عين الظلم. رسالة واضحة لرفض ثقافة الثأر الظالم، حين يُقتل البريء بدل الجاني، فهذا جُرم لا يُرضي الله، بل هو ظلم فوق ظلم.

🔁 هكذا يُعلّمنا يوسف عليه السلام دروسًا خالدة: في الإحسان رغم الجفاء، والرحمة رغم القسوة، والعدل رغم القوة.

"معاذ الله: حين يكون اللجوء إلى الله هو الحصن من فتنة المُلك وظلم القرار"

في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ تتجلى ملامح شخصية يوسف عليه السلام في أبهى صورها: الإيمان، والعدل، واللجوء الصادق إلى الله. فما إن اشتدت عليه الفتنة، واشتعلت داخله الصراعات،

وبرزت أمامه سطوة السلطة، حتى لجأ إلى الحصن الآمن، إلى الله سبحانه وتعالى، بكلمة تهتز لها القلوب: "مَعَاذَ اللَّهِ"

فالسلطة قد تفتن الإنسان كما فتنت امرأة العزيز، تغريه كما قالت: "هيت لك"، وتُشعره أن بكلمة واحدة منه يمكنه أن يُسجن أو يُهين أو يُنهي حياة إنسان. يوسف، على الرغم من امتلاكه السلطان، أبى أن يُستدرج إلى هاوية الظلم، واستعصم بالله من أن تزل قدمه تحت إغراء المُلك. "مَعَاذَ اللَّهِ" ليست مجرد عبارة، بل درع إيماني يصد عن القلب غوائل الشهوة والانتقام.

🔁 هذه الكلمة رسالة لكل من يملك أمر الناس: حاكمًا، قاضيًا، مديرًا، أو مسؤولًا. احذر من فتن الكلمة. فإن قرارًا واحدًا قد يُشعل حربًا، وقد يسجن إنسانًا ظلمًا، وقد يُحطّم أسرًا بأكملها. فلتكن الكلمة موزونة بعدل وهدى، مستحضِرًا عظمة الله الذي لا يرضى بالظلم. واحذر من الكلمة التي تُلقى بلا مبالاة، فتكون سببًا في دمار الآخرين.

ثم ينتقل بنا المشهد إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾

هنا وصف دقيق للحظة الانكسار. "اسْتَيْأَسُوا" لا تعني مجرد "يأسوا"، بل توحي بأنهم بذلوا جهدًا هائلًا، استنفدوا فيه كل وسائل التأثير، وكل الحيل الممكنة. جربوا كل شيء، وقالوا كل ما يمكن أن يُقال، حتى بلغوا أقصى درجات اليأس، عندها "خَلَصُوا نَجِيًّا"، أي انفردوا عن الناس ليعقدوا مجلسًا سريًا يناقشون فيه المصيبة الكبرى التي حلّت بهم: كيف يعودون إلى أبيهم دون أخيهم؟

🔶 تلك اللحظة كانت فاصلة، كشفت عن ندمهم الحقيقي، وحرصهم على الوفاء بالميثاق الذي قطعوه لأبيهم. لم يكن الأمر هيّنًا، بل كان الميثاق ثقيلاً على كواهلهم، يذكّرهم بما فرّطوا فيه من قبل حين أضاعوا يوسف.

ويظهر في هذا المشهد "يوسف (٨٠) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا"

قَالَ كَبِيرُهُمْ، الذي اختلفت الروايات في اسمه، فقيل رويل، وقيل يهوذا، وقيل إنه الأفضل حالًا بينهم، وهو نفسه من قال قديمًا: "لا تقتلوا يوسف"، واقترح إلقاءه في الجُب. هو صوت الضمير بينهم، يعود ليذكّرهم مجددًا بعهودهم:

"أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّـهِ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِي يُوسُفَ"

هكذا ينبض النص بالندم، والحسرة، والعودة إلى ضمير حيّ لم يمت رغم الذنوب، في محاولة لتدارك خطأ الماضي، وتحمّل تبعات الحاضر.

كل مشهد في هذه القصة درس بليغ، من يوسف الذي استعصم بالله وهو في ذروة السلطة، إلى إخوةٍ تعلّموا كيف يكون الوفاء بعد التفريط. فسبحان من جعل القرآن نورًا وشفاء، وهدايةً لمن أراد أن يعتبر.

"بداية النور بعد طول الظلمة: حين توقظ المصائب القلوب"

🔶 يا سلام! هنا بدأت بوادر الخير تلوح في الأفق، لحظة فارقة في القصة، لحظة إيقاظ من الغفلة! ويعود بنا المشهد إلى حقيقة جليلة: أن الله يقدّر المصائب للناس لعلهم يرجعون. فمصيبة بنيامين جاءت فجأة، مع ثِقل الميثاق الذي قطعوه لأبيهم، لتوقظ فيهم إحساسًا طال خفوته، وتجبرهم على مواجهة أنفسهم.

لكن التوبة لم تأتِ دفعة واحدة، بل جاءت مرحلية، متدرجة، كما هو حال كثير من البشر. إخوة يوسف تعرضوا لعدة صدمات: اختفاء بنيامين، حزن أبيهم الشديد حتى ابيضّت عيناه، ثم لقاؤهم بيوسف لاحقًا، وعفوه عنهم، كلها أحداث راكمت أثرها في قلوبهم، حتى بدأت تظهر أولى علامات الخير.

لأول مرة يظهر الاعتراف الحقيقي: "ما فَرَّطتُّمْ في يوسف"! هذا اعتراف نابع من عمق الندم، وتجلٍ لمحاسبة النفس، وشعور بمراقبة الله عز وجل. وذِكرهم "مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ" يؤكد أنهم بدأوا يدركون أن الله حاضر في حياتهم، يراقب، ويحاسب، ويعلم. وهذا الاعتراف هو أولى خطوات التوبة، والندم هو بداية الطريق إلى الصلاح.

ولأول مرة كذلك، لا نجد منهم إنكارًا أو جدالًا، بل صمتًا مُقرًا، وسكوتًا يتحدث بصدق التوبة، حين قال كبيرهم:

"ﷺفَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِيﷺوَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"

تأمل هذا التطور العميق في القلوب! بدأوا يستشعرون أسماء الله وصفاته، وبدأت قلوبهم تتعلّق بالله، بصفاته العظيمة: الحكم، الرحمة، العدل، اللطف. لأول مرة منذ بداية القصة، يتحدثون عن الله بلسان الخضوع: "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"! وكأن النور بدأ يتسلل إلى أعماقهم.

فهنا تظهر الخطوة الأولى لأي عبد صادق في توبته: مراقبة الله، محاسبة النفس، والارتباط العميق بأسماء الله وصفاته.

من عرف الله حق المعرفة، لم يعصه. من شهد أن الله الرقيب، استحيا أن يخالفه، ومن عرفه بـ الغفور الرحيم، سارع إليه تائبًا، ومن عرفه بـ العزيز المنتقم، خافه، ومن عرفه بـ الودود الجميل، أحبّه.

🔶 كل أحوال العبد، من صلاح أو ضياع، مرتبطة بعلاقته بالله، وبقدر قربه من أسماء الله وصفاته. فهذه هي جنة الدنيا التي تحدّث عنها السلف، جنة القرب من الله، والعيش في ظلال رحمته وصفاته، فهي الراحة في الشدة، والنور في الظلمة، والسكينة وقت الفوضى.

ويا للعجب! هذا الخير الذي بدأ يظهر لم يكن ليأتي لولا أشد لحظات الألم والابتلاء.

فلما ابتلوا في بنيامين، وزاد الخوف بعدم رجوع أخيهم الكبير، كان ذلك أشد المواقف عليهم، لكنه في الوقت ذاته، كان مفتاحًا للفرج.

🔁 وهكذا دائمًا، مع العسر يُسرًا، ومع الكرب فرجًا، ومع كل ألمٍ حكمةٌ من الله لمن فهم الرسالة.

تأمل حال الأنبياء:

لوط عليه السلام، جاءه الفرج في أحلك يوم، حين قال: "هذا يومٌ عصيب".

إبراهيم عليه السلام، أُنقذ من النار في لحظة الإلقاء.

موسى عليه السلام، انفتح له البحر عندما حُصر بينه وبين جند فرعون.

كلما اشتد الكرب، اقترب الفرج. لكن لمن؟ لمن فهم الغاية من الابتلاء، لمن تاب، وأصلح، وندم، واستشعر عظمة الله، وتعلّق به تعلق المحب المستغيث، الراجع الآمل.

🔶 فإن اجتمع الكرب مع صدق التوبة، واستيقاظ القلب، ويقظة الروح، واستحضار صفات الله، فابشر! لقد آن أوان الفرج، تمامًا كما حدث ليعقوب عليه السلام حيث قال "ﷺعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"

سبحان الله! هذا هو الحال.. وهذا هو الطريق.

بوادر التوبة وبدايات الفرج في رحلة إخوة يوسف

بدأت ملامح التوبة الصادقة تظهر في قلب الأخ الأكبر، حين قال: فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. تلك الكلمات ليست مجرد موقف عابر، بل تعبير عن ندم عميق، وتحوّل جوهري في داخله؛ إذ لم يعد يقوى على مواجهة وجه أبيه، ولم يعد يرجو إلا عفو والده أو قضاء الله العادل. ففي قوله "يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ"، تجلٍ لمعاني التوكل، وبدء التعلّق بحكم الله وعدله، بل وبأسمائه الحسنى، "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ".

🔶 هذا الموقف كان بمثابة البذرة الأولى لتوبة حقيقية بدأت تنبت في قلوب إخوة يوسف، ستكتمل لاحقًا بلقاء يوسف عليه السلام. بدأت القلوب تفيق من غفلتها، وظهر بوضوح أن من أراد رضا والديه فعل المستحيل في سبيل ذلك، وهذا ما أظهره الأخ الأكبر برفضه العودة دون إذن والده.

ثم تأتي كلماتهم لأبيهم:

" فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ"

وهنا تكمن عدة دلالات:

١- قسوة الألفاظ: حين كانت مصلحتهم مع بنيامين، قالوا: "أرسل معنا أخانا"، أما الآن، بعدما وُضع في موضع الاتهام، صار "ابْنَكَ سَرَقَ"، وكأنهم يلقون باللوم ضمنيًا على يعقوب، وعلى تربيته. وهذا يُذَكِّرنا بسلوك شائع في حياتنا اليومية، حينما يُخطئ الطفل، يُقال: "ابنك عمل كذا"، وحين يُحسن: "شفت ابني؟!". سلوك فيه جفاء، ينبغي تجنّبه.

٢- الاعتراف بالحدود: قولهم "وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا"، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ" يدل على أنهم بدأوا يستشعرون خطورة الشهادة على ما لا يعلمون. هم الذين أقروا أن من يُتَّهَم بالسرقة يؤخذ عبدًا، وهم الذين ظنوا يقينًا أن بنيامين بريء، فاستندوا إلى ما علموه، لا إلى غيبٍ لا يدركونه. لكنهم شعروا بالندم على استعجال الحكم، وقالوا ما قالوا بشعور بالذنب.

وهنا تبرز قاعدتان مهمتان في حياة الإنسان:

▫ألّا يشهد إلا بما يعلم: لا تتسرع في تزكية أحد أو الشهادة له أو عليه، ما لم تكن على علم حقيقي ودقيق. سواء في تزكية عريس، أو شريك تجاري، أو حتى في حديث عابر. قل الحق الذي تعلمه فقط، واصمت عما تجهله.

▫ الحذر من المجاملة في التزكية: كثيرًا ما تُغلب العاطفة على الموضوعية، خاصة في تزكية الفتيات لبعضهن، فيُمدح أحدهم مدحًا مفرطًا لا يستند إلى واقع. وهذا نوع من الخيانة في النصيحة.

🔴 وأخيرًا، نستشعر أن التوبة الصادقة لا تكون دفعة واحدة، بل تأتي تدريجًا، كما حدث مع إخوة يوسف. تبدأ بندم، ثم وعي، ثم اعتراف، ثم توكّل، ثم تجرّد من المكابرة، ثم سعي لإصلاح العلاقة مع الله ومع الخَلق. وما إن تجتمع هذه المعاني، حتى يبدأ الفرج في التجلّي، تمامًا كما قال تعالى:

{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

الصدق، وشؤم الكذب، وصبر يعقوب الجميل

🔶 يُكمل إخوة يوسف محاولاتهم لإقناع أبيهم يعقوب عليه السلام، قائلين: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}. أي اسأل أهل مصر، واسأل القافلة التي رافقناها، لتتيقن أننا لم نكذب. لكن يعقوب عليه السلام يعلم أن الكاذب إذا عُرف بالكذب لا يُصدق، ولو كان صادقًا في مرة من المرات، وهذه من شؤم الكذب، أن صاحبه يُجرد من الثقة حتى في مواضع صدقه.

ويعلم يعقوب عليه السلام أن هذا الموقف شديد الشبه بما حدث من قبل مع يوسف، ويسترجع وعودهم التي لم يوفوا بها: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، ثم يكررونها هنا: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}. فما الجديد؟! الموقف نفسه والكلمات نفسها، فلا لوم عليه إن لم يصدقهم، وهذا ما جعلهم يُحيلونه إلى وسيلة غير عملية، إذ كيف له أن يسافر إلى مصر ويسأل أهلها أو يلحق بالقافلة وقد انطلقت؟!

وهنا تظهر قاعدة مهمة: "ما يُغني التأكيد عن من جُرِّب عليه الكذب"، فمن فقد مصداقيته، لا تنفعه كثرة التأكيدات. ولهذا، يُضرب المثال من علم الحديث، حيث من كذب مرة على النبي ﷺ، يُرفض حديثه تمامًا، ولو قال الصدق بعد ذلك، لأن العدالة قد سقطت، والكذب لا يغتفر.

ويُظهر يعقوب عليه السلام حُسن الظن بالله رغم كل المحن، فيقول: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}. لقد فقد ثلاثة من أبنائه، وليس واحدًا فقط: يوسف، وبنيامين، والأخ الكبير الذي قرر ألا يعود إلا بإذن أبيه. ومع ذلك لا يتذمر، ولا يشكو إلى أحد، بل يُجسد أعظم صور الصبر الجميل؛ صبر بلا شكوى، ولا اعتراض، ولا جزع، بل صبر مُطعّم بالرضا والتسليم لله.

ورغم مرارة الألم، إلا أن الله يُنزل على قلب عبده المؤمن برد السكينة، وحلاوة الإيمان التي تُغلب مرارة الصبر، فيشعر بلذة الإيمان، وطمأنينة لا توصف. وهذا حال من صبر لله، ورضي بقضائه، فالسكينة منحة إلهية لا تُرى، لكنها تُذاق، و"من ذاق عرف، ومن عرف لا اغترف".

هذا هو مقام يعقوب عليه السلام، صابرًا محتسبًا، رغم تراكم الأحزان، صابرًا صبرًا جميلًا، ومتيقنًا من أن الله لا يُضيع أجر المحسنين.

🔶 أدب الصبر وفهم حكمة الابتلاء في قصة يعقوب عليه السلام

قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}. سبحان الله! صبر يعقوب ليس صبرًا عاديًا، بل هو صبرٌ جميل؛ صبرٌ بلا شكوى، صبرٌ يعبّر عن حسن ظنٍ بالله، وثقة في حكمته، وتوكل عليه رغم انعدام الأسباب. فحين يعظم البلاء، تكون الفرصة سانحة ليرى الله من عبده تضرعًا، وليرى منه صدق التوكل في قلب المحنة. الله لا يبتلي عبده إلا ليسمع منه، ليرى منه ما يحب: من خضوع، ورجاء، ويقين.

الله أرحم بالعبد من أمه، فكيف يُسيء العبد الظن بمن هو أرحم به من قلب أمه؟! كل ألم يحمله بين طياته أمل، وكل ابتلاء خلفه جبر. يُبتليك الله ليطهّرك، ليعافيك، ليعطيك. وقد يُحرَم العبد من محبوب، ليُرزق بأفضل منه من حيث لا يشعر، جزاء لصبره ورضاه. فإن الله لطيف، لا يُجري أمرًا إلا لحكمة، ولا يختار لعبده إلا الخير، وإن جهل العبد ذلك في حينه.

🔶 يعقوب عليه السلام فهم هذا كله. فهم حكمة الله: {إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فهم لغة التعامل مع الله، فاستقبل البلاء بالصبر، ولم يُخاصم القدر، بل تعامل معه بما يرضي الله. هذه هي مدرسة الأنبياء؛ تعليم الناس كيف يفهمون رسائل الابتلاء، ويتعاملون معها، فينجحون في امتحانات الله.

كل ابتلاء له غاية، ومتى تحقق المراد، رُفع البلاء فورًا. تمامًا كما فهم إسماعيل رؤية أبيه، فأذعن: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}، فتحققت الطاعة، فجاء الفرج: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}. كذلك في قصة أصحاب الجنة حين تابوا، فأمَّلوا في التعويض: {عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا}. فهم الرسالة شرط، وتنفيذ المطلوب طريق الفرج.

يعقوب عليه السلام فهم المطلوب منه: صبر جميل، فانتقل بعده إلى الرجاء، لأنه فعل ما عليه، وبكل يقين قال: {عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} لقد أحسن الظن في أرحم الراحمين، وتعلّق بأسمائه وصفاته: العليم، الذي لا يبتلي إلا بعلم، والحكيم، الذي يضع كل شيء في موضعه.

🔶 ألمُ يعقوب كان شديدًا، لكن ما ترتّب عليه من رفعة، وصبر، وتعليمٍ للبشرية، أعظم بكثير من تلك اللحظة القاسية. كل ألم صبر عليه يعقوب، صار بعده درسًا لنا، ومصدرًا للأمل. في كل بلاء، الله يسمع دعاءك، ويريد أن يراك في حالٍ يرضيه. إن فهمتَ حكمة الابتلاء، واستقبلتَه بالأدب، والرضا، والصبر، استحقيت الفرج.

🔁 شاهد عظمة أدب يعقوب! في أشد لحظات المصيبة، يقول عن الله: {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}. لا جزع، لا لوم، لا "لماذا يا رب؟"، بل ثناء على الله، ورضا به، وإيمان بحكمته. هذا هو أدب البلاء، أدب التعامل مع الله حين تشتد المصيبة. فهل نتعلّم هذا الأدب العظيم؟

"يا أسفَى على يوسف: دروسٌ في الرجاء، والألم، والقدوة"

حين قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، تسكب الآية مشهدًا من أعمق مشاهد الألم الإنساني، والأدب مع الله، والرحمة الأبوية.

🔴 في هذه اللحظة، يعقوب عليه السلام كان لا يزال يحمل حسن الظن بالله رغم عِظم المصائب، وحين تحقق ما تمناه من عودة أبنائه، أكرمه الله بأكثر مما كان يتخيل: رجعوا تائبين، ورُدّ له بصره، وعاش في عزّ وملك.

🔶 فوائد من حسن الظن بالله:

▫ يعطيك الله فوق ما تريد إذا أحسنت الظن به.

▫ادفع ما عليك، ثم قُل كما قال يعقوب: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾.

▫ كمال العبودية أن يكون لديك يقين في الفرج حتى مع توالي الشدائد وانعدام الأسباب.

▫ لم يتحطم يعقوب، بل ازداد يقينًا بقرب الفرج، لأن عاقبة الصبر جبر.

🔶 أبوة يعقوب

يعقوب عليه السلام لم يشتم أبناءه، ولم يدعُ عليهم رغم جُرمهم، بل كان رحيمًا يرجو توبتهم. هذه هي الأبوة الرحيمة التي تصبر وتؤمن بالعودة حتى بعد أربعين سنة من الغياب. في حين أننا نرى اليوم آباءً وأمهاتٍ لا يصبرون لحظة، يعاقبون أبناءهم بأقسى الألفاظ وربما بالدعاء عليهم، ولا يعلمون أن الأمل لا يُقطع.

وتولى عنهم...

يعقوب لم يُرِد أن يرى أحدٌ دموعه، فالرجل لا يحب أن يُظهر ضعفه، كما أن الكسرة لا تُظهَر إلا لله. كم نحن بحاجة إلى "خلوة حزن" بيننا وبين الله، نشتكي إليه، ونبكي بين يديه، ونعود بأرواح لملمتها رحمته.

"يا أسفَى على يوسف"... لماذا يوسف؟

المفترض أن يقول "يا أسفى على بنيامين"؛ لأنه هو الذي فقده للتو. لكنه قال "يوسف"، لأن المصيبة الأصلية لم تندمل أبدًا. يوسف لم يكن فقط ابنه، بل مشروع أمة، أمل دعوي، حلم رسالي. كان يرى فيه من يحمل همّ الرسالة، وأبناءه العشرة لم يسدّوا هذا الفراغ.

الأسف على القدوات...

🔁 يعقوب يتأسف على ضياع رجل كان يمكن أن يكون قائدًا. وهذا هو الحزن الذي لا يفهمه إلا أصحاب الهمم العالية: الأسف على فقد العلماء، على تغييب المصلحين، على غياب الرجالات الذين يُعوَّل عليهم.

🔴 وهكذا كان عمر بن الخطاب يبكي عند سماع هذه الآية في صلاة الفجر، يبكي بحرقة؛ لأنه كان يستشعر حجم الخسارة عندما يُفقد القائد الصالح، حين يُغيَّب

الصادقون، ويُفتَقَد أصحاب الرسالة. وكان عمر يتمنى أن يمتلئ بيت المسلمين برجال أمثال أبي عبيدة، وسالم، وحذيفة... لا لأجل الدنيا، بل لأنهم يحملون همَّ الأمة.

يا أسفاه على يوسف...

🔶 هي صرخة كل مؤمن يفتقد المصلحين، ويتألم لغياب من يحملون أمانة الدين. هي دعوة لنا أن نكون من هذا "الواحد من الألف" الذين يُرجى على أيديهم صلاح الأمة.

كن أنت هذا الرقم.

كن من الذين تتأسف الأمة على غيابهم، وتستبشر بحضورهم، ويكتب الله بهم التغيير.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾...

"يا أسفاه على يوسف: حزن الأنبياء، ورجاء المؤمنين"

"يا أسفاه على يوسف"...

تفيض هذه الكلمة بأوجاع يعقوب عليه السلام، لكنها ليست فقط نداء حزن، بل رسالة تسلية لكل مهموم، أن الأنبياء بشرٌ مثلنا، يعرفون الألم، ويبكون، ويتأسفون، ويشتد بهم الوجع، لكنهم يُحسنون التوجّه إلى الله.

فهذا يعقوب: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾

وهذه مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾

وهذا لوط: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَيَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

هم بشر لهم مشاعر، لكنهم ما عرفوا إلا باب الله في شكواهم، فكانت شكواهم إليه، لا منه.

"يا أسفاه على يوسف" ليست تذمُّرًا، بل دعاء؛ نداءً رقيقًا لله أن يرحم ألمه، أن يُطفئ نار الشوق، أن يُعيد الابن الغائب.

ومَن ذا الذي يحزن إلا مَن يعرف قدر المفقود؟

أما من لا يعرف قدر يوسف، فسيقول: لماذا كل هذا الحزن؟

لكن يعقوب عليه السلام لم يفقد فقط ابنًا، بل فقد أملاً، مشروع نبي، حاملًا للرسالة، فكان حزنًا على قدر الهمّ الذي يحمله.

وما بالكم بمن فقد أولاده وهو متيقّن أنهم لن يعودوا؟

ما بالكم بقلوب أمهات غزة، وآباءها؟

أولادهم يُسحَقون تحت القصف، تحت الركام، أمام أعينهم، بلا حيلة، ولا رجعة.

اللهم فرّج عنهم، وعن كل من فُجع بحبيب أو ولد، وردّ كيد الظالمين في نحورهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

🔶 ما أشد هذا الوصف!

أن يبكي حتى يفقد بصره...

أيُّ بكاءٍ هذا؟!

أيُّ ألمٍ تحمّله الجسد؟

أيُّ وجعٍ هذا الذي أصاب قلب يعقوب؟!

"فهو كظيم"...

يعني يكتم حزنه، لا يشكو، لا يصرخ، لا يئنّ... فقط دموعه تنطق بما لا يستطيع لسانه أن يعبّر عنه.

يكتم الألم حتى لا يراه أحد، حتى لا يضعف أمام البشر، ولكن عينه كانت مرآة ألمه، حتى ابيضّت من كثرة البكاء.

قالوا: "كظم لسانه، فتكلمت عيناه"،

وهذا أشق ما يكون: حين تُمنع الكلمات، وتتكلم العيون وحدها.

تسكن الكلمات، لكن الدمع يبوح، والصدر يضيق، والنفس تختنق، والشكوى لا تكون إلا لله.

ورغم كل هذا الألم، ما نطق يعقوب عليه السلام بسخط أو اعتراض.

ما قال: لماذا يا رب؟

بل زاد رجاؤه، وازداد يقينه بفرج الله، ولم يتزحزح أمله.

هذا هو الحزن النبيل، وهذا هو الصبر العظيم، وتلك هي الثقة الكاملة بالله.

عبادة الشكوى إلى الله ودموع الأنبياء

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

في هذه الآية دلالة عظيمة على أن الحزن لا يتعارض مع الرضا بقضاء الله، ولا البكاء ينافي الصبر الجميل.

فبعض الناس إذا رأوا حزينًا على فَقْدِ حبيب، أنكَروا عليه البكاء، وقالوا له: لا تبكِ! احمد الله!

وكأن البكاء مخالفة للرضا، وهذا غير صحيح.

الرسول ﷺ نفسه بكى لموت ابنه إبراهيم بكاءً شديدًا، فلما تعجّب الصحابة قال:

"هذه رحمة، يجعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، إنما يرحم الله من عباده الرحماء."

وقال:

"إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا."

فالبكاء رحمة، والحزن طبيعة بشرية، لكنه لا يناقض الرضا بالله، ما دام القلب ساكنًا ومطمئنًا بقضاء الله، شاكرًا في أعماقه، مستسلمًا لحكم ربه.

في الآية أيضًا، ألم شديد يعصف بيعقوب عليه السلام حتى أفقده بصره، ومع ذلك، بقي صابرًا، محتسبًا، راضيًا بالله، ومكظومًا لا يشكو إلا إليه.

🔶 ويُقال إن من أشدّ المشاهد حزنًا، أن يعقوب عليه السلام فقد عينه التي كان يرجو بها رؤية يوسف، لكن رحمة الله وسعت ظنّه، فعاد إليه يوسف، وعاد إليه البصر.

"كظيم"...

ساكت، كئيب، محزون.

وقد قيل: "ابيضّت عينا يعقوب من الحزن على يوسف، ولم تبيضّ عينا يوسف من الحزن على يعقوب"، والسبب؟

لأن حزن الوالد على ولده أشدّ بكثير من حزن الابن على أبيه.

فلْيُدرك الأبناء قدر آبائهم وأمهاتهم.

فقد الوالد لابنه نار لا تُطفأ، ووجع لا يندمل.

في قلب كل أب وأم حبّ ورحمة وتعلّق لا يُدركهما الأبناء مهما بلغ حبهم.

﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ﴾

عجبًا لهم!

هم سبب الحزن، ثم يلومونه عليه!

"آذَوه، ثم لاموه لما تألّم!"

كمن يضربك، ثم يلومك إن صرخت!

فحتى حزنه استكثروا عليه! حتى بعد ذهاب بصره، لم يرحموه، ولم يخفّفوا عنه، بل زادوا ألمه بعتابهم القاسي!

وهكذا الحسد، يعمي القلوب عن كل رحمة.

وتأتي من هذه الآية لفتة مؤثرة:

هناك أشخاص لا يمكن نسيانهم، ولا يمكن أن يسكن مكانهم أحد.

فإذا رحلوا، ظلّت قلوبنا شاغرة، وذكراهم لا تفارق الوجدان.

فكان رد يعقوب عليهم جليلًا، عظيمًا، حاسمًا:

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

كأنما يقول:

أنا لم أشتكِ إليكم، ولم ألجأ إلى أحد سواه.

أنا أشكو إلى الله وحده، أعبّر له عن ألمي، ولا أطلب منكم شيئًا.

وهذا تمام التوكل، وكمال التسليم.

فعبادة الشكوى إلى الله من أجلّ العبادات، ومن أوسع أبواب القرب منه.

قد يبتليك الله ليأخذك بهذا الباب إليه، فيراك ترفع يديك في ظلمة الليل وتقول: "يا رب، لا أشتكي لأحد سواك."

وإذا صدقت هذه الشكوى، جاء الفرج من حيث لا تدري.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

🔁 وما أعظم الطمأنينة التي تملأ قلب العبد حين يشكو بثّه وحزنه إلى الله وحده.

الشكوى إلى الله مقام عظيم من مقامات العبودية، لا يُدرِك قدره إلا من تذوّقه بصدق، ولامس برد الطمأنينة بعده. حين يضيق صدرك، وتغلق أبواب الناس، تذكر أن السماء لا تغلق أبوابها أبدًا. الله يحب أن يسمع شكواك، يحب أن تبكي بين يديه، أن تُفرغ ما في قلبك له وحده، لا لأحدٍ من خلقه.

🔁 هكذا كان حال يعقوب عليه السلام، لما اشتد حزنه على يوسف حتى ابيضّت عيناه، ورغم ذلك، ظل كظيمًا، كاتمًا لحزنه، لا يشتكي إلا لله، لا يعاتب أحدًا، بل قال:

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾

وكرر بثقة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

🔴 هذا الموقف يعلّمنا أن البكاء لا ينافي الرضا، وأن الحزن لا يناقض الإيمان، بل هو من طبيعة البشر، حتى الأنبياء. فالنبي ﷺ بكى عند وفاة ابنه إبراهيم، وقال:

"إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا."

فلا تنهَ أحدًا عن البكاء، لا تحرمه من هذه الرحمة التي جعلها الله في قلبه.

حين يعاتبك الناس على حزنك، فإنهم يجهلون حجم ألمك. هم أحيانًا أنفسهم من صنعوا الجرح، ثم يلومونك على دمائك. "آلموه ثم لاموه لما تألّم!"، كما حدث مع يعقوب عليه السلام، لم يرحموا دمعه، ولم يواسوه في فقد بصره، بل قالوا له:

﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

لكن يعقوب لم يعبأ بهم، بل لجأ إلى من لا يُخيّب من رجاه، إلى الله سبحانه.

🔁 وهكذا فعلت السيدة عائشة رضي الله عنها في محنتها، لما يئست من الناس، رفعت نظرها إلى السماء وقالت:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾

فجاء الفرج من السماء بآيات تتلى.

وكذا خولة بنت ثعلبة، لما اشتكت أمرها لله، قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾

فنزل الحل، وتبدل الحال.

والنبي ﷺ نفسه، لما اشتد عليه الأذى في الطائف، لم يجد ملجأ إلا إلى الله، فقال:

"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..."

فجاءت بعدها رحلة الإسراء والمعراج، ثم الهجرة، وبدأ الفرج يتتابع.

الشكوى الصادقة إلى الله هي مفتاح الفرج، هي العبادة الخفية التي يحبها الله، وهي التي من أجلها يُقدِّر الابتلاء على عباده. الشكوى لغيره مذلّة، ولكن الشكوى له قوة وكرامة.

وإذا رأيت قلبك رق، ودمعك نزل، وجوارحك خشعت، فاعلم أن الله قد سمع شكواك. فالطمأنينة التي تنزل بعدها ليست من الأرض، بل من عند الله.

فاجعل ضعفك بين يدي الله، تجد منه قوة تُدهشك. كلما عرفت ربك، عرفت أن لا أحد يستحق أن تشتكي له سواه.

فهو الذي قال:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

🔶 واعلم أن من أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزلها بغيره لم تُقضَ.

وها هو يعقوب عليه السلام يقول أخيرًا:

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

ليُثبت لهم أن التوكل على الله، والشكوى إليه، والصبر عليه، ليست ضعفًا، بل قمة القوة، وهي بداية الطريق إلى الفرج.

فاللهم إنّا نشتكي إليك، ونفوض أمرنا إليك، فارزقنا صدق التوكل، ولذة المناجاة، وسرّ الطمأنينة، واجعلنا ممن إذا اشتكى، اشتكى إليك، وإذا دعا، دعاك، وإذا بكى، بكى بين يديك.

آمين يا رب العالمين.

****

المحاضرة الثانية عشر

لا تثريب عليكم اليوم

المقدمة

تأملات في سورة يوسف عليه السلام: من الشكوى إلى الرجاء

في مشهد مؤثر من سورة يوسف عليه السلام، ننتقل من لحظة الشكوى التي رفعها يعقوب عليه السلام إلى الله، إلى مشاهد الرجاء والتفاؤل. وكأن الشكوى إلى الله بددت ظلمات اليأس، وفتحت أبواب الأمل. إن من ذاق لذة الشكوى الصادقة إلى الله وحده، هو فقط من يدرك هذا المعنى العميق، حيث ينكشف له سر من أسرار العبودية.

حين يشتد الألم وتبلغ الشدة ذروتها، ويبدأ الإنسان في فهم رسالة الله من الابتلاء، ويستجيب كما يحب الله، يظهر منه الخير، فيرفع يديه ضارعًا باكيًا، متضرعًا شاكيًا، محققًا مراد الله من البلاء، فينجح في الاختبار، ويبدأ الفرج.

وهذا ما حدث مع إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل؛ حين بلغا قمة التسليم، فبمجرد أن "فَلَمّا أَسلَما وَتَلَّهُ لِلجَبينِ"، نزل الفرج: "قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.. "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ". كانت تلك لحظة الانفراج والفتح.

العبد إذا ألهمه الله حسن الشكوى، فذلك من علامات قرب الفرج، لأن من وفقه للضراعة لن يحرمه الاستجابة. وهذا ما جعل يعقوب عليه السلام بعد شكواه الصادقة، يقول لبنيه: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ "، بعد سنوات من الصمت لم يقلها، ولكنه الآن استشعر الفرج، فبدأ يبث الأمل في أولاده.

ويُلحظ تغيّر نبرة يعقوب عليه السلام، إذ خاطبهم بكلمة "يَا بَنِيَّ"، وهي كلمة رقيقة تنم عن محبة ورحمة، وكأن المحن التي مروا بها رققت قلوبهم، فأصبح أسلوب الأب معهم أكثر لطفًا بعد أن لمس تغيرًا في سلوكهم.

ثم جاءت وصيته العظيمة " وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۖ". أي لا تيأسوا من رحمته وفرجه، فالأمل في الله عبادة قلبية لا يُمكن أن تُفقد، بل هي ركن من أركان الإيمان. ومن انعدم رجاؤه بالله تمامًا، فقد خرج من دائرة الإيمان، كما لا يُتصور أن يكون مؤمنًا من لا يحب الله إطلاقًا.

قال النبي ﷺ:

🔶 "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله."

فالرجاء في الله واجب، واليأس من رحمته علامة الكفر والجهل بالله.

ومن العجيب أن يعقوب، الذي فقد بصره، هو من يُعلّم المبصرين الرجاء! فالقلوب هي المعيار، لا الأحوال. فكم من مبتلى أكثر يقينًا، وكم من معافى قلبه غافل. فالشأن شأن قلوب لا أبدان.

🔁 وهكذا، تظل قصة يوسف عليه السلام سلوى كل محزون، وعزاء كل مهموم. من تأملها واستبصر معانيها، علم أن الرجاء لا يموت، وأن الله لا يُضيع من لجأ إليه، لكن بشرط أن يكون العبد صادقًا في دعائه، آخذًا بالأسباب، مجتهدًا في العمل، متقيًا لله.

فالرجاء لا ينفع دون عمل، ولا يستقيم أن يرجو المرء ولدًا وهو لم يتزوج، أو يرجو النجاح دون أن يذاكر، أو يرجو الفرج دون أن يتقرب إلى الله. فحينما نرجو الله في نصرٍ أو فرجٍ أو عافية، وجب أن نُقابل ذلك بالنية والعمل، والتقوى والطاعة، وإلا كنا نلوم أنفسنا لا نلوم ربنا.

🔴 وخاتمة المشهد، في رقة يعقوب عليه السلام بأبنائه رغم كل ما فعلوه، لم يتخلّ عنهم، بل قال لهم: "يا بني" بكل حنان ورحمة. فإذا كانت هذه رحمة الأب، فكيف برحمة الرب سبحانه وتعالى؟!

إنها دعوة للتفكر، وبث للأمل، ورسالة عظيمة بأن القرآن لا يكتفي بسرد القصص، بل يزرع في القلوب حياة.

🔶 القرآن الكريم، في آياته المباركة، يفيض بالأمل، ويطرد اليأس من القلوب، كما يظهر ذلك في قوله تعالى: (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ)، (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)، (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

🔁 وهذه الآيات، حينما يتأملها المؤمن بصدق، ويعيش مع معانيها ويعمل بها، تمسح عن قلبه الحزن والضيق، وتزرع فيه رجاءً ويقينًا، فيدرك أن القرآن كتاب أمل، وأن العيش معه هو شفاء لكل همّ، وعلاج لكل كرب.

وفي قصة يوسف عليه السلام، يتجلّى هذا الأمل حين دخل إخوة يوسف عليه وهم في قمة الذل والانكسار، قائلين: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

لقد جاءوا هذه المرة وقد اجتمع عليهم الذل من كل جانب:

- ذل بسبب حال أبيهم يعقوب عليه السلام.
- ذل نتيجة تفريطهم وتقصيرهم.
- ذل لفقدان أخيهم الأصغر وعدم عودة أخيهم الأكبر.
- ذل المجاعة الشديدة التي أرهقتهم.
- ذل فقرهم وضيق ذات اليد حتى أنهم لا يملكون ما يشترون به الطعام.
- ذل فقد بصر أبيهم الحبيب بسبب أحزانهم المتراكمة.

🔁 وهكذا اجتمعت عليهم المصائب وتخلى عنهم الشيطان، فلم يكسبوا حب أبيهم، ولم تتبدل أحوالهم، بل زادت تعاستهم، وكل ذلك نتيجة المعصية، فكما تقول الحكمة المستخلصة: "من تأمّل ذلّ إخوة يوسف، تيقن من شؤم المعصية."

تأمل قولهم: "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ"، لقد أعز الله يوسف عليه السلام، وأذلهم أمامه، بعدما خططوا لإذلاله.

فهو الآن العزيز في ملكه، وهم الضعفاء بين يديه.

وهم الآن يستجدونه قائلين:

"مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ": اشتدت علينا الحاجة، والتعب، والجوع، والحزن، وفقدان الأحبة.

"وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ": لا نملك مالًا ذا قيمة، وإنما أشياء رديئة لا تُقوَّم، كانت أقرب لما يسمى "روبابيكيا" بلغة الناس اليوم.

"فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ": أعطنا بكرمك لا بمقدار ما معنا من بضاعة، فليس ما معنا بثمن يكفي.

"وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا": تكرّم علينا برد أخينا، بنيامين، رحمةً بأبينا الذي أصابه البلاء.

"إن الله يجزي المتصدقين": وهنا نلمح بوادر التوبة، فقد بدأت ألسنتهم تذكر الله.

وفي هذا المشهد، نجد أن الأيدي التي ألقت يوسف عليه السلام في الجب، هي نفسها التي تمتد إليه اليوم، بذلٍ وخضوع، تطلب منه الصدقة!

وهذه عبرة عظيمة: فلا تحزن أيها المظلوم، فإن لك ربًا لا يضيع الحقوق.

الجزاء من جنس العمل، والعدل الإلهي لا يغفل ولا ينام.

نعم، إنها قصة الرجاء، والعاقبة الحسنة للمحسنين، والذل الذي يعقب المعصية.

وفي هذا المشهد تتجلى الرحمة، ويتجلى عدل الله، ويتجلى القرآن كرسالة حياة وأمل لا تموت.

تأملات إيمانية في مشهد عظيم من قصة يوسف عليه السلام

الفائدة العظيمة الثانية التي نتأملها من هذا المشهد النبوي: إذا كان هذا حال مخلوق مع مخلوق، فكيف بحال الخالق مع عبده؟

رأينا كيف رقَّ قلب يوسف عليه السلام لإخوته، وتأثر بكلماتهم حين قالوا له: "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ..."، هذه الكلمات أبكته وأثرت فيه حتى أنه قال بعدها

مباشرة: "أنا يوسف"، وبذلك انقضت الأزمة، وسادت الرحمة، وسامحهم وعفا عنهم وأكرمهم.

فإذا كان يوسف – وهو بشر – قد تأثر وَلان قلبه لرؤية الذل في أعين إخوته، فكيف برب العالمين إن وقف عبده بين يديه متضرعًا، خاشعًا، مُظهرًا فقره، معترفًا بعجزه وضعفه؟

ارفع يديك إلى العزيز، وقلها كما قال إخوة يوسف: "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ..."، ولكن قلها هذه المرة لله، بقلب منكسر، وبضعف ظاهر، وبنية خالصة.

اشكُ لله فاقتك، قلة حيلتك، ضعف طاعتك، محاولاتك الصادقة التي لم تكتمل، قُل له: "وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ"، بطاعة ضعيفة لا تُقبل لولا كرمك، فـ أوفِ لنا الكيل، وأكرمنا لا بما نستحق، بل بما أنت أهل له.

وقل كما قال الصحابة للنبي ﷺ عن قصر الصلاة، فقال لهم: "تلك صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته"، فادعُ: "يا رب، تصدق علينا، وأكرمنا، وامنن علينا بجودك لا بعدلك".

إذا كان يوسف قد غلبه الحنان على إخوته، فالله أرحم الراحمين.

أكرم يوسف من خانوه، وسامح من آذوه، وعلّمنا أن الخير لا يُفقد، وأن الصادقين يُجازون، ولو بعد حين.

🔶 تأمل مشهد اللقاء: يوسف يقول لإخوته بعد سنوات طويلة: "هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟"

ما أرقى هذا العتاب! لا لوم ولا توبيخ، بل تلميح لطيف، فيه إشارة إلى جهلهم بقدر الله وبقدر أنفسهم، وهذا هو الجهل الحقيقي في كل معصية.

يوسف عليه السلام آثر التوبة لإخوته على الانتقام لنفسه، وساعدهم على العودة إلى الله، لأن الكريم لا يُكثر العتاب، ويكفيه الاعتذار، ولا يرهق الناس بذلهم، بل يعافيهم منه.

ثم تحقق وعد الله الذي أوحاه إلى يوسف وهو في الجُب: "لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

🔁 وها هو بعد سنوات يُتمّ الله وعده، ويجعلهم أمامه لا يشعرون من هو حتى يُعلنها: " أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ...".

يا لها من لحظة! إخوته في ذهول، يوسف الذي ألقوه في الجب ها هو اليوم في أعلى مقام، لم يتكبر، لم يطلب ألقابًا، لم يشترط مخاطبته بـ "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ"، بل قال بتواضع نادر: "أَنَا يُوسُفُ".

لم ينسب الفضل إلى نفسه، بل قال: "قد منّ الله علينا"، ما أعظمه من خلق!

لم يتفاخر بصبره، بل نسب كل الفضل إلى الله، ونسي الإساءة، وتجاوز عن الذنب، ورفع شأن من أساء إليه.

🔶 هكذا يكون من استغنى بالله، هانت عليه الدنيا، وسهل عليه العفو، لأنه يعلم أن العفو لذة، يطهر القلب من الغل، ويعلو بصاحبه في درجات الإيمان.

فإذا أردت الانتقام، فانتقم لحق الله لا لنفسك، وإذا أردت العفو، فاعفُ ابتغاء وجه الله، فالعفو يرفعك، ويشرح صدرك، ويزيدك عزًا.

ختامًا، ثق في وعد الله، وإن تأخر، فهو آتٍ لا محالة، وما قصة يوسف عليه السلام إلا سلوى لكل مبتلى، وبُشرى لكل منتظر، ودرسٌ في أن العفو، والكرم، والتواضع، صفات الأنبياء، وعباد الرحمن.

في قول يوسف عليه السلام: "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا"، يظهر تواضعه وإشارته إلى أن كل ما وصل إليه من فضل كان منة إلهية، لا اجتهادًا شخصيًا بحتًا ولا تميزًا نسبًا أو اسمًا. هذه العبارة جاءت بمثابة الدواء الشافي لحسد إخوته؛ إذ وجّههم إلى أن ما حصل عليه من خير، إنما هو فضل من الله، لا مجال للحسد فيه. فإن أردتم الفضل، فاطلبوه من الله، واسلكوا السبيل الذي سلكه يوسف، تقوى وصبر.

يوسف عليه السلام في هذا الموقف كان يربيهم، ويعظهم، ويهديهم، ويعالج مشاعرهم، دون أن يجرحهم، بل بلطف ورقي، قال: "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا" ليقول لهم: افهموا، اتركوا الحسد، فالفضل من الله. ثم وضع بين أيديهم قاعدة عامة:

"إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"

يوسف لم ينسب الفضل لنفسه، بل قدمه في صورة قاعدة ربانية شاملة، تصلح لكل من يعمل بها. لم يقل: "لأني صبرت واتقيت"، بل قال: "مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ"، أي أن كل من يسلك هذا الطريق، فله الأجر.

والتقوى والصبر هما جناحا النجاة، فالتقوى في الرخاء، والصبر عند الشدائد، لأن الناس في هذا قسمان:

١- من يتقي في الرخاء لكنه لا يصبر في البلاء.

٢- من يصبر في البلاء لكنه يطغى في الرخاء.

٣- من لا يتقي ولا يصبر.

٤- والكامل من يتقي الله في الرخاء، ويصبر في البلاء، ويحسن في الحالين.

وهذا النوع هو الذي لا يضيع الله أجره، لأنه محسن في كل حالاته، والإحسان يتضمن تمام التقوى وكمال الصبر.

ومن الفوائد العظيمة: أن الصلاح المؤقت لا يكفي، بل لا بد من الصبر على الطاعة والاستمرار فيها، قال تعالى:

" وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"

"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا "

"وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ"

فليس المطلوب أن تكون صالحًا في رمضان فقط، أو في أوقات معينة، بل أن تبقى على طريق الله إلى أن تلقاه.

هذه هي خلاصة سورة يوسف، وهنا يظهر تفوق القصص القرآني، الذي لا يكتفي بالحكاية، بل يرسخ في النفس السنن الربانية والقواعد الإيمانية، ويربط القلب بالله وصفاته وأسمائه.

ثم نعود إلى وقفة مؤثرة في قول يوسف: "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا". لم يذكر أيًا من الابتلاءات التي مر بها، مع أنها كثيرة ومؤلمة، بل ركّز على المنن. لماذا؟

أدبًا مع الله. لأن حتى الابتلاء كان في حقيقته وسيلة للمنح والخير، والله لا يخلق شرًا محضًا، بل في كل شر وجه من وجوه الخير. ولذلك قال:

"ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ"

وهذا أدب عظيم، عكس حال الكنود، الذي لا يذكر إلا البلاء وينسى النعم. والكنود هو من يشكو ربه للناس، وينسى ما أنعم الله عليه به.

أما يوسف، فقد رأى في كل ما مرّ به من ابتلاءات، لطفًا خفيًا أدى إلى ما هو عليه من فضل.

القاعدة الكبرى التي ختم بها يوسف هذا الموقف التربوي المؤثر:

"إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين"

اجعل هذه القاعدة منهج حياة، فبها تُدرّ الخيرات وتُدفع الشرور، وهي طريقك إلى حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين

أخيرًا اعترف إخوة يوسف عليه السلام بالحقيقة: لقد فضّله الله عليهم، واعترفوا بخطئهم بعد سنوات من الكِبْر والحسد والعداوة. كانت هذه الشهادة منهم إعلانًا صريحًا بأن ما ناله يوسف لم يكن من كسبه فقط، بل من فضل الله واختياره. أدركوا أن طريق الحسد كان مسدودًا، وأنه كان الأولى بهم أن يسألوا الله من فضله، بدلًا من الحسد والغل، مستحضرين قول الله تعالى:

"وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"

لقد بيّن يوسف عليه السلام من قبل أن ما ناله من فضل، لم يكن لكونه ابن يعقوب أو لحسبه، بل لأنه اتقى وصبر، وقال:

"إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ."

فأرسى بذلك قاعدة عظيمة: أن الفضل من الله، وأنه يناله كل من اتقى وصبر، دون تمييز بالنسب أو المنصب.

كان يوسف عليه السلام حكيمًا في خطابه، رفيقًا في وعظه، ففتح لإخوته باب التوبة، ولم يغلقه عليهم رغم كل ما فعلوه. بل هيّأهم للاعتراف، وساعدهم على المصارحة، وأشعرهم بأنه سيقبل منهم الاعتذار، دون تأنيب ولا توبيخ.

وبالفعل، جاءت كلماته مؤثرة، فقالوا: "وإن كنا لخاطئين". فكان هذا أول اعتراف صريح منهم بالخطأ. وفي المقابل، أبدى يوسف عظمة نفسه، وسعة صدره، وقلبه الكبير، فبادر بقوله:

" لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"

فلم يعاتب، ولم يعير، ولم يذكّرهم بالماضي، بل أعلن الصفح الكامل، لا تثريب ولا عتاب، ولا حتى ذكر للذنب مرة أخرى.

وهنا درس عظيم:

🔶 أن الاعتراف بالخطأ، وإن جاء متأخرًا، خير من أن يفوتك الاعتراف أصلًا.

وأن من أراد أن يعين غيره على الاعتذار، فليكن لَيِّنًا، مهيئًا لقبوله، لا مغلقًا للأبواب، ولا متربصًا بكرامة المعتذر.

فالاعتذار لا يُنتزع بالإذلال، ولا يُشجع بالتوبيخ، بل بالرّحمة.

فكثير من الناس يترددون في الاعتذار، لا لأنهم لا يشعرون بالذنب، ولكن لأنهم يخشون أن يُهانوا أو يُحرجوا أو يُذلوا.

🔴 ومن أدب الاعتذار:

أن تُقرّ بالخطأ ببساطة، دون تبرير مبالغ.

وأن تعرف أن الاعتراف لا ينقص من قدرك، بل يرفعك، وهو أول باب التوبة.

🔴 ومن أدب العفو:

ألا تذكّر من سامحته بذنبه بعد حين، ولا تفتح سجلات الماضي إذا وقع في خطأ جديد.

↩️ فالمسامحة الحقيقية تعني المسح، لا التأجيل.

وقد ضرب يوسف عليه السلام مثلًا نادرًا في المروءة:

حين قال لاحقًا: " وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ."

فلم يقل: "من بعد ما فعل إخوتي بي"، بل نسب الفعل للشيطان، وفاءً بوعده ألا يذكّرهم بما فعلوا.

هذا هو الصفح الجميل، وتلك هي القلوب الكبيرة التي لا تفتح سجلات الماضي، بل تمحوها بحق.

🔁 ومن دروسه العظيمة:

أن من أتانا معتذرًا لا نكثر عليه اللوم، فندمه يكفي.

وأن من أراد أن يسامحه الله، فليتعلم أن يسامح الناس كما يحب أن يُعامل.

🔁 فكما تُحب أن يغفر الله لك بلا تذكير ولا إذلال، اغفر للناس بذات النقاء.

القلوب النقية لا تفتح سجلات الماضي.

🔴 من دروس سورة يوسف: عفو الكبار ومروءة العظماء

من الفوائد العظيمة التي نستنبطها من قصة يوسف عليه السلام، أن العظماء إذا تمكنوا عفوا. فما أروع موقفه حين قال لإخوته بعد سنين طويلة من الألم: "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ"! قالها بعد أربعين سنة من المعاناة، فلماذا نعجز نحن عن قولها لمن أخطأوا في حقنا بكلمة عابرة أو موقف دنيوي بسيط؟

قولوا "لَا تَثْرِيبَ " لعل الله يقولها لنا يوم القيامة: "لا عتاب، لا حساب، لا عقاب، ادخل الجنة بلا حساب". اصفحوا، سامحوا، لعل الله يصفح عنكم، "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

كان هذا الموقف مؤثرًا جدًا حتى إن الصحابة تأثروا به، وظهر أثره جليًا في قصة أبو سفيان بن الحارث – ابن عم النبي ﷺ، الذي أساء له لعشرين عامًا، هجى النبي بشعره، وحاربه، حتى أن النبي ﷺ كان يكرهه كراهية شديدة.

🔶 لكن لما تاب وجاء ليعلن إسلامه وقت فتح مكة، أعرض عنه النبي ﷺ. فاستشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له:

"قل له كما قال إخوة يوسف: "تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ".

ففعل، فما إن سمعها النبي ﷺ حتى قال: "لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ". فكان هذا الموقف سبب محبة النبي له بعد ذلك، وقال عنه: "أرجو أن تكون خلفًا لحمزة".

سيدنا علي قال: "لأني أعلم أن النبي لا يحب أن يسبقه أحد إلى خلق عظيم". هذا هو العمل بالقرآن.

القميص.. من رمز الحزن إلى رمز الفرح

قال يوسف: "اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ".

كان أول قميص غارقًا في الدم والألم والفقد، فجعل الثاني يحمل العطر والفرج والشفاء. أراد يوسف أن يمحو القميص الأول بقميص آخر، وأن يكون القميص ذاته وسيلة لشفاء قلب يعقوب عليه السلام.

والعجيب أن يوسف عليه السلام قال: "يَأْتِ بَصِيرًا" بثقة ويقين، وكأنه وحي من الله، لتطييب قلب يعقوب وإسراعه بالبشرى، وكأن الأثر وحده من يوسف يكفي ليجدد الأمل ويشفي الحزن.

🔴 من الفوائد العظيمة:

ما أحزنك يومًا، قد يكون هو ما يفرحك غدًا!

كما كان قميص يوسف سببًا في حزن يعقوب، صار سببًا لفرحه.

ابنك المتعب اليوم، قد يكون سبب فخرك غدًا.

كليتك الصعبة، مشكلاتك الحالية.. قد تكون باب الخير لاحقًا.

فقط أحسن الظن بالله وقل: لعلها بداية لفرج كبير.

كما قال يوسف: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ".

النعيم لا يكتمل إلا بأهلنا

قال يوسف: "وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ"، لم يقل: والديّ وإخوتي فقط، بل جميع العائلة. بالزوجات، الأبناء، الكبار والصغار. كأنه يقول: النعيم يكتمل بحضور من نحب، فلا سعادة بدون مشاركة الأهل.

وهكذا وصف الله أهل الجنة: "وينقلب إلى أهله مسرورًا".

فلنجعل من أهلنا سببًا للفرح لا للشقاق، ولنتجاوز عن بعضنا، فإن من لم يكن له خير في أهله فلا خير له في أحد.

◆ هذه وقفات تربوية عظيمة من قصة يوسف عليه السلام، نعيش بها معاني العفو، والأمل، وحسن الظن بالله، وتقدير الأهل.

نستكمل المشهد في اللقاء القادم، حين تصل القافلة بقميص يوسف، فماذا سيحدث ليعقوب؟ وكيف سيكون لقاؤه بابنه؟ لنتدبر ونعيش مع القرآن.

****

المحاضرة الثالثة عشر
وتحقق الحلم | أمنية يوسف

○ المقدمة ○

◆ في مشهد مهيب ومؤثر من سورة يوسف، يقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، وهو مشهد يعجز العقل عن تخيله، إذ يجد يعقوب ريح يوسف رغم بُعد المسافة – قيل إنها ثلاثة أيام – فور مغادرة القافلة أرض مصر. هذا الإحساس ليس حسيًا فقط، بل هو إحساس روحاني، وفراسة قلبٍ صادق امتلأ شوقًا ويقينًا.

كلمة " لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ" تُظهر تردده في الإفصاح عن إحساسه خشية اتهامهم له بالوهم والضعف العقلي نتيجة كِبَر السن، وهو ما حدث بالفعل، إذ ردّوا عليه بقسوة: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، في إشارة إلى ظنهم أنه ما زال يعيش في أوهامه.

لكن يعقوب عليه السلام لم يرد، بل صبر حتى على جفاء أولاده، منتظرًا الفرج من الله. وهذا من رحمة الله بعبده المؤمن، إذ يرسل له نسائم الفرج قبل تمامه، تباشير تسري عنه وتسكن قلبه، مكافأةً على صبره وثباته في المحنة، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

هذا المشهد يكشف عن علاقة الأرواح بين الأحبة، التي تتجاوز المسافات. فالأرواح تتلاقى وتتحسس القرب حتى لو لم تلتقِ الأبدان. ولذا فإن يعقوب وجد ريح يوسف، بينما إخوته لم يشعروا بها رغم وقوفهم أمامه.

كلمة "لَأَجِدُ" بدلًا من "لأشم" تعكس الشوق والحنين، وكأن ما وُجد شيء عزيز طال انتظاره. وكما يُقال: للأمل رائحة، وللفرج عبير، لا يشمه إلا من كان واثقًا بالله، حسن الظن به.

`ومن الدروس`:

إن نسائم الفرج تسبق تمامه، وهي تَسرّ القلوب المتعبة.

كلما زاد إحسان الظن بالله، زادته البشريات.

الأبوان يحسان بأبنائهما حتى من بعد، في مشاهد نعيشها جميعًا؛ أم تستيقظ من نومها فتنقذ صغيرها، أو تتصل بابنها لشعور غامض فتجده في كرب.

والفارق بين الإخوة والوالدين جليّ: إخوته لم يشعروا بريحه رغم قربهم، ويعقوب وجده من مسافة بعيدة. لهذا، يُوصى الأبناء ألا يبتعدوا عن آبائهم، وأن يزوروا والديهم ولو ليتنسّموا "ريحهم"، تلك الريح التي تؤنس القلب وتنعش الذاكرة.

بل إن الأم قد تشم حفيدها فتقول: "ريحته زي ريحتك وإنت صغير"، وتحفظ تلك الرائحة في قلبها سنوات طويلة.

رفقًا بقلوب الوالدين، فهما لا ينسَيان أولادهما أبدًا، ولو بعد حين.

`ومن تأملات المشهد أيضًا`:

أن أقسى ما يمر به الوالد أن يُسفّه شعوره أو يُتّهم بالهذيان.

أن يعقوب صبر ولم يرد على هذا الجفاء، بل ظل يحفظ العلاقة ويصبر، حتى عادوا نادمين: ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾

🔴 رسالة للآباء: اصبروا على أبنائكم مهما ضلوا، فالأصل الطيب سيعود. المهم أن يجدك ابنك حين يعود.

🔴 ورسالة للأبناء: لا تقلل من والدك في كبره، ولا تُشعره أنه بات لا يفهم. حتى إن احتاج أن تكرر له الكلام، افعل ذلك بلطف. لا تحرمه من احترامه ووقاره. فإن قسوة الكلمة تؤلم الوالدين أكثر مما نتخيل.

🔶 مشهد تأملي للبشارة واللقاء في قصة يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾

يا الله! ما أعظم هذا المشهد! مشهد البشارة والفرج، حين جاء البشير – الذي استعجلوه خصيصًا – يحمل قميص يوسف عليه السلام ليبشر يعقوب بعودة يوسف وبنيامين وسلامة باقي الإخوة. ويقال إن الذي جاء بالقميص هو الأخ الأكبر (روبيل أو يهوذا) الذي جاء أولًا بقميص الكذب، فعاد الآن بقميص الفرج تكفيرًا عن ذنبه، وكأن القدر أراد أن يُتم التوبة بإكمال الطريق حتى آخره.

وبقلب الأب الملهوف، يُلقى القميص على وجه يعقوب فيعود له بصره، وتعود إليه الروح بعد طول الحزن. وهكذا جاء الفرج من كل الجهات: يوسف عزيز مصر، بنيامين معه، والأخ الأكبر عاد، وانتهت المجاعة، واجتمعت الأسرة، وانقلب الحزن فرحًا، والدمع سعادة.

ما أجمل عاقبة الصبر والتقوى!

وما أعذب ثمرة الشكوى لله وحده! إن الذي جاء بقميص الدم هو ذاته الذي جاء بقميص الفرج، فلا تفقد الأمل في أحد، فالأبناء يتغيرون، والبشر يتبدّلون، وقد يكون من آذاك بالأمس سبب فرحك غدًا.

🔴 `ومن أعظم ما نتعلمه من المشهد`:

فضل نقل البشريات؛ فلو لم تكن صاحب الفضل نفسه، فكن ناقلًا له، فما أجمل أن يُفرح الإنسان قلب أخيه بخبر طيب.

في المقابل، كم هو مؤلم أن تنتشر بيننا الأخبار المحبطة ولا نحرص على بثّ الأمل!

ثم حين قال يعقوب لأبنائه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، كان ذلك نابعًا من يقين عظيم بفرج الله، وثقة مطلقة في حكمته ورحمته، وعِلم الأبناء وقتها قدر والدهم، فانكسروا وطلبوا الصفح.

قالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾

فقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

🔴 `وهنا وقفة`:

يعقوب لم يعاتبهم، لم يذلهم، بل استجاب فورًا وكأن تلك اللحظة كان يتمناها منذ سنين. ومع هذا، قال "سوف"، ولم يقل "الآن"، إذ أراد أن يدعو لهم في وقت السحر، وقت المناجاة والسكينة، كما قال المفسرون. وهذا يبرز فضل الاستغفار بالأسحار، وقد أثنى الله على المستغفرين في ذلك الوقت: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

🔁 وفي هذا أيضًا فضل طلب الدعاء والاستغفار من الصالحين، وخصوصًا من الوالدين، فدعاؤهم مستجاب. ومن العجيب أن سيدنا عمر طلب من أويس القرني أن يستغفر له، اقتداءً بما أوصى به النبي ﷺ، حين قال: "إن استطعت أن يستغفر لك فافعل".

ومما يجب التحذير منه أن دعوة الوالد على ولده مستجابة، لذا لا تدعُ على أولادك مهما ضايقوك، بل قل: "اللهم اهده، أصلحه، تب عليه"، فإن الله يُجيب.

🔶 ثم يأتينا المشهد الأعظم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

يا لها من لحظة! لحظة اللقاء والحنين والانتصار والدموع. "آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ" كلمة اختصرت كل العناق، وكل البكاء، وكل الشوق والذكريات. وقد ورد أن الملك نفسه

خرج لاستقبال يعقوب عليه السلام، ومعه رجالات الدولة، في موكب عظيم، يُكرّم فيه نبي الله الذي صبر، وشهد فيه الناس عاقبة التقوى والثبات.

"آوَىٰ" تختصر أحضان السنين، ودموع الغياب، وحنان الأم ووقار الأب. وإن قيل إن الأم قد ماتت، فإن الراجح أن " أَبَوَيْهِ" تشمل والديه معًا، ولا دليل قاطع على خلاف ذلك.

🔶 هذا المشهد هو ذروة القصة، ولحظة تتويج الصابرين، وتمام الفرج بعد طول البلاء. إنه ربيع القلوب لمن تدبر، ودواء للهموم لمن تأمل.

من تدبر هذا المشهد، شعر وكأن الفرج قريب، وأن الصبر لا يضيع، وأن الحزن سيمر. فهذه المشاهد القرآنية ليست مجرد قصة، بل هي شفاء لما في الصدور، ونورٌ وهدى وسلوى لكل مهموم ومحزون.

تأملات في لقاء الكرامة ومشهد العرش والبشارة:

في قوله تعالى: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾،

تتجلى رفعة الأدب النبوي في يوسف عليه السلام؛ فمع كونه عزيز مصر، لم ينسب الأمان إلى سلطته أو مكانته، بل أرجع الأمر كله إلى مشيئة الله، قائلاً: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ". لم يتكبر بقوله: "أنا سأؤمنكم"، بل تواضع لله واستشعر أن الحفظ الحقيقي لا يكون إلا بإرادته، فربما تهيأت كل الأسباب ومع ذلك يقع البلاء، كما حصل ليعقوب حين ضاع يوسف رغم كل حرصه عليه.

↩️ ثم جاءت الآية التالية تكريمًا يفوق الوصف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾

فما أجمله من مشهد! يوسف يرفع والديه على عرش ملكه، في مشهد يجسّد البرّ، والإكرام، والعرفان. وفيه درس عظيم:

إذا زارك والداك، فأظهر اهتمامك بهما، لا تُشغل عنهما بهاتف أو دنيا، بل اجعل اهتمامك بهما واضحًا ومُعلنًا. "رفع أبويه" ليست فقط فعلاً، بل رسالة تقول: اجعل والديك في عرش اهتماماتك، لا تتعالى عليهما مهما علت درجتك.

🔴 وفي المشهد مزيد من التواضع النبوي: يوسف عليه السلام بلغ قمة الملك، ومع ذلك ما زال يخاطب والده بـ "يَا أَبَتِ"، بنفس اللفظ الذي كان يقوله صغيرًا. ما أجمل الثبات على الأدب، والوفاء في الخطاب، مهما ارتفعت المناصب وتغيرت الأحوال.

" وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ ":

وكان السجود آنذاك علامة تكريم وإجلال، لا عبادة، كما سجدت الملائكة لآدم بأمر الله. وكان هذا السجود مشروعًا في الشرائع السابقة، لكنه في الإسلام نُسخ، فلا سجود إلا لله. والنبي ﷺ أشار إلى عظمة حق الزوج على زوجته، ومع ذلك لم يبح السجود له.

وهنا، تتحقق رؤيا يوسف التي رآها في بداية القصة: " يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ"

فقال عند تحققها: " وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ".

🔁 وفي قوله هذا أدب رفيع، حيث نسب تمام الرؤيا لله تعالى، فقال: " قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا"، مشيرًا إلى أن الرؤية لم تكن مجرد حلم بل وعد رباني تحقق بكرم الله.

ومعنى "تأويل" هنا ليس التفسير، بل تحقق الرؤيا في الواقع.

فكلمة التأويل تُستخدم إما بمعنى التفسير، أو بمعنى تحقق الشيء فعليًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي تحقق وعده.

🔶 ثم قال: "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ "

فلاحظ كيف نسب كل الخير لله: "أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ"، ولم يقل "أدخلني" تأدبًا، رغم أن السجن كان مقدمة للتمكين، لكنه عدّه ابتلاء لا يُنسب لله.

وفي " وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ "، إشارة إلى نعمة الاجتماع بعد الفرقة، ونعمة الانتقال من حياة القسوة في البادية إلى سعة العيش في الحضر، حيث الرقة ولين الطباع. فالنبي ﷺ قال: "من سكن البادية جفا".

🔁 وفي ختام المشهد، تتجلى الرابطة الخاصة بين يوسف وربه، حين كرّر كلمة "ربي" في قوله: " قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي...".

تلك العلاقة الروحية العميقة بين يوسف وربه، هي ثمرة تربية يعقوب عليه السلام، الذي كان يربط يوسف بالله منذ صغره، كما قال: " وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...".

🔶 وفي ذلك تعليم لنا أن نربط أبناءنا بالله مباشرة، ونعلّمهم أن كل خير إنما هو من الله، وكل شر من الشيطان.

رسائل تربوية مستفادة من هذا المشهد العظيم:

تأدب مع الله في النسب، فلا تنسب الشر إليه ولو كان فيه خير ظاهر.

لا تُسند الفضل إلى نفسك، بل قل "ربي أحسن بي".

عظّم والديك مهما بلغت من رفعة، واجعل لهما الأولوية دائمًا.

حافظ على الألفاظ الرقيقة مع والديك، وابقَ في عيونهم "الولد المدلل".

اطلب من الصالحين الدعاء، ولا تستكبر عن سؤال الاستغفار، فهو سنة الأنبياء.

🔁 عِش مع القصص القرآني، فإن فيه ربيع القلب ودواء الهم.

تأملات إيمانية في مشهد اللطف والكرامة مع يوسف عليه السلام

حين قال يوسف عليه السلام: ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾،

يتجلى روعة الأدب النبوي في التعامل مع ماضٍ مؤلم دون عتاب أو تجريح.

فمع قدرته على التذكير والإدانة، اختار يوسف أن لا يحرج إخوته، فنسب ما حدث للشيطان، بل بدأ بنفسه في الترتيب "بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي"، ليدفع عنهم الحرج ويعزز رابطة الأخوة التي عفا الزمان عنها.

لقد تعلّم من أبيه يعقوب عليه السلام هذا الخلق، حين قال له: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

🔶 فأدرك أن العدو الحقيقي هو الشيطان، لا الإخوة، إذ يمكن أن يتوبوا، لكن الشيطان لا يتغير.

`الفائدة`: كل من يسعى للتفريق بينك وبين إخوتك هو شيطان، فلا تتبعه.

ثم قال: "ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ"، وهي كلمة تمتلئ بالسكينة، فاللطف هو أن يدبر الله لعبده من الخير ما لا يدركه ولا يشعر به، من خلال طرق قد يكرهها، لكنها تحمل في طياتها أعظم المنافع.

🔴 `وهنا تظهر أعاجيب اللطف الإلهي في قصة يوسف`:

▫ الجبّ الذي أُلقي فيه كان خلاصًا من الحسد.

▫ بيعه رقيقًا فتح له باب التمكين.

▫ السجن كان طريقًا إلى المُلك.

▫ مكر الإخوة صار سببًا لفشلهم وتحقيق رؤياه.

▫ القحط الذي أصاب البلاد صار سببًا في جمع الشمل والرخاء.

فاللطف معناه: إحسان خفي في مواضع لا تُتوقع، والله لطيف بعباده، يرزقهم من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، بل من حيث يظنون أن فيه ضررًا، فإذا به عين النفع والعطاء.

↩️ ثم يُقال لنا:

تأمل حياتك أنت الآن!

ستجد مواقف كنت تظنها شرًّا، فإذا بها كانت سببًا للخير، كم من كلية التحقت بها مجبرًا فكانت خيرًا، أو مرض أصاب أحد أبنائك فكان بداية فرج، أو عمل رفضته ففتح لك بابًا أعظم.

بل كل ما أدركته من اللطف نقطة، وما خفي كان أعظم.

قاعدة جميلة:

"كم ساق اللطيف من خيرات على بساط الابتلاءات"

وكم كانت النهايات المشرقة تُولد من بدايات محرقة.

فلا تيأس من شدة، فإن وراءها لطفًا إلهيًا خفيًا.

ثم قال يوسف: ﴿ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾،

هاتان الصفتان هما ما تعلّمه من يعقوب عليه السلام منذ صغره:

" ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"

🔶 فكان دائمًا يوقن أن وراء كل شيء علمًا لا يُدرَك، وحكمة لا تُخطئ، فالله لا ينسى، ولا يضع شيئًا في غير موضعه.

ثم انفرد يوسف عليه السلام بربه، وبدأ دعاءه الخاشع:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ "

وهنا تظهر قمة التواضع والشكر، فهو يُنسب الفضل كله لله، في مقابل من قال:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

فهذا هو درب الأنبياء، كما قال سليمان: ﴿ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾.

ويُكمل يوسف دعاءه بكلمات تمتلئ بالخشوع والود:

" فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ "

أي: الخالق على غير مثال سابق، صاحب القدرة والحكمة الكاملة.

" أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ"

أي أنت وحدك من يتولى أمري، ويقودني بلطفك، ويؤنس وحدتي، ويجبر كسري، ويحميني في الدنيا ويرزقني حسن الخاتمة.

ثم يختم بدعاء رقيق صادق:

" تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"

كأنه يقول: بعد كل ما مررت به من شدة وفرج، لا أريد إلا أن ألقى الله مسلمًا ثابتًا، في صحبة الصالحين.

🔁 `تجميع لهذه التأملات الإيمانية من قصة يوسف عليه السلام`:

▫ لا تعاتب من أذاك، بل انسِب الفُرقة للشيطان.

▫ أدِّب لسانك كما أدّب يوسف لسانه، حتى في أصعب المواقف.

▫ ثق بلطف الله في كل لحظة، حتى في مواطن الألم.

▫ نسب الفضل كله لله، وقل دائمًا: "ربي هو الذي أحسن إليّ".

▫ استعن بالله على فهم ما لا يُفهم، وارضَ بقوله: "إنه هو العليم الحكيم".

▫ واجعل دعاءك ختامك: "توفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين".

تأملات في ختام قصة يوسف عليه السلام: بين اللطف الإلهي وحسن الختام

🔁 بعد أن اجتمع شمل يوسف بأهله، ارتفعت كلماته إلى الله تعالى في دعاء مؤثر ختم به قصة مليئة بالابتلاء والتمكين، فقال:

﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

▪ أولاً: قلبٌ معلّقٌ بالله في كل حال

يوسف عليه السلام كان دائم التعلّق بربه، يردد "ربي" في كل موضع:

`في السجن`: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾

`في الملك`: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾

`في الدعاء`: ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

🔁 هذا قلب لا يغتر بالنعم، مهما كثرت، ولا يتعلّق إلا بالله، ولو اجتمع حوله الأهل والعزوة، فيعترف أن الله وحده هو الولي والناصر والمدبر، لا الناس.

🔴 فائدة: إذا تكاثرت عليك النعم، فلا تغتر بها، فالزوال ممكن، والثبات لا يكون إلا بالشكر والفقر إلى الله.

▪ ثانيًا: طلب أعظم الأمنيات

في قمة المجد والعافية، سأل يوسف عليه السلام الله أعظم سؤال:

"تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"

هذا الدعاء يكشف قمة التواضع والافتقار، فبعد حياة ملأى بالصبر والنصر، كانت أمنيته فقط أن يثبت على الإسلام حتى الممات، وأن يُلحق بالصالحين، حتى وإن كان آخرهم.

فائدة:

🔶 لا أحد يضمن الخاتمة، ولو طال صلاحه، فالثبات حتى الموت منة من الله.

كان من دعاء النبي ﷺ:

"اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك."

"اللهم يا ولي الإسلام وأهله، مسكني الإسلام حتى ألقاك عليه."

تنبيه: يوسف عليه السلام لم يتمنّ الموت، بل طلب حسن الختام عند حلول الأجل.

أما تمني الموت فمحظور، إلا من خاف الفتنة على دينه، كما في الحديث:

"وإن أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون."

ثالثًا: ثمرة القصة ودليل النبوة

يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

🔁 هذه الآية تكشف أول ثمرة من ثمرات القصة، وهي:

أنها دليل على صدق نبوة النبي محمد ﷺ، إذ أتى بهذه القصة الكاملة بتفاصيلها الدقيقة رغم أنه لم يكن يقرأ أو يكتب، ولم يتلق العلم من أهل الكتاب، ولم ينكر أحد منهم هذه القصة أو اعترض على سردها، بل وافقوها.

وهكذا أيضًا في قصص مريم وموسى وسائر الأنبياء، دلالة قاطعة على أن المصدر الوحيد هو الوحي.

▪ رابعًا: المكر لا ينفع أصحابه

في قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

بيان أن اجتماع أهل الباطل على المكر لا يضر أهل الإيمان، فالله تعالى يبطل كيدهم، ومكرهم لا يصيب إلا أنفسهم.

ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

يوسف عليه السلام خرج منتصرًا من كل مكر، بينما أخوته لم يحققوا شيئًا مما أرادوا.

وكذلك قوله ﷺ:

"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك."

▪ خامسًا: لا تغتر بالكثرة، ولا تزدري القلة

قال تعالى:

﴿ا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت له في مواجهة الصدود، فالهداية بيد الله وحده.

وسنة الله أن القلة هم أهل الحق، والكثرة ليست معيارًا له.

● فائدة:

▫لا تقيس الحق بالكثرة، فما انتشر لا يصير صوابًا إن كان باطلًا.

الحق حق ولو قلّ أهله، والباطل باطل ولو كثر أتباعه.

▫ لا تتوقف عن الدعوة بسبب قلة الاستجابة، فالهداية من الله.

ليس عليك إلا البلاغ والعمل بالأسباب، أما النتائج فعلى الله.

▪ سادسًا: الحرص في الدعوة

في كلمة: "ولو حرصت" إشارة إلى أن الداعية لا يكون ناقلًا فقط، بل مشفقًا محبًا.

حرص النبي ﷺ على هداية قومه كان شديدًا حتى كاد يهلك نفسه، فقال الله له:

" فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا."

فالداعية الحق:

يحرص على الناس لا على النتائج

يبلغ ويجتهد، ويترك الأثر لله

🔴 `قصة يوسف عليه السلام لم تكن مجرد سردٍ لابتلاء وتمكين، بل مدرسة ربانية في`:

▫ أدب الخطاب.

▫التوكل على الله.

▫ الصبر على البلاء.

▫ الشكر عند النعم.

▫الثبات حتى الختام.

🔴 وأعظم الدروس أن أمنية الأنبياء هي الموت على الإسلام، واللحاق بالصالحين، فيا من تُعجب بنفسك، قف قليلًا أمام قول يوسف:

"ﷺتَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"

فهذه هي أعظم الأماني.

****

المحاضرة الرابعة عشر
في قصصهم عبرة

○ المقدمة ○

🔶 في خواتيم سورة يوسف عليه السلام، تتجلّى لنا خلاصة عميقة لمنهج الدعوة إلى الله، حيث نستنبط قواعد راسخة وفوائد جليلة تسير بالدعاة في طريقهم، وتضع أمامهم معالم الهداية والاستقامة.

تبدأ الآيات ببيان حال الناس مع الحق، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، لتؤكد أن طريق الدعوة ليس سهلاً، بل هو محفوف بالمكابدة والعناء، وأن كثرة الإعراض لا ينبغي أن تصيب الداعية باليأس أو الإحباط، فالمعيار ليس في عدد

الأتباع، بل في أداء الأمانة، ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، فالدعاة يعملون لله، لا لأعداد أو تصفيق.

🔁 ثم تأتي القاعدة الثانية: التجرد من طلب الأجر، ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، وهي قاعدة أصيلة في منهج الأنبياء، فالداعية لا ينبغي أن يجعل من الدعوة وسيلة للكسب أو التكسّب، بل يكون نقيًا متجردًا، بعيدًا عن أي ضغط مادي قد يؤثر على صدقه أو استقلاليته. فحين يعلم الناس أن الداعية لا يرجو منهم مالاً، تميل القلوب إليه وتثق بكلامه.

🔶 وقد استدل الأنبياء بهذه القاعدة على صدق دعوتهم، كما قال نوح وهود وصالح وغيرهم من رسل الله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، فيفهم الناس أن ما يحمله الداعية من مشقة وأذى إنما هو بدافع الإخلاص، لا الطمع.

وتظهر هذه الحكمة في قول مؤمن آل يسين: ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فجمع بين شرطين هما معيار المصداقية: عدم طلب الأجر والهداية الصادقة، وبهذا نفهم أن مجرد عدم أخذ المال لا يكفي، فقد يستغله أهل الباطل مثل المنصرين أو السحرة والدجالين ليضلوا الناس، رغم تقديمهم خدمات دون مقابل في الظاهر.

🔁 لذا، ينبغي على أهل الحق أن يلتزموا بهذا التجرد، ما استطاعوا، خاصة وأن دعوتهم مبنية على التوحيد والهداية والصدق، فإذا اجتمع فيها التجرد والمصداقية والقدوة، كان لها الأثر العظيم والانتشار السريع، لأنها توافق الفطرة، وتلامس القلوب.

ومع ذلك، لا يُفهم من هذا تحريم أخذ الأجر في ذاته، فالنبي ﷺ قال: "إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله"، ويجوز أخذ الأجر على تعليم القرآن أو العلوم الشرعية إذا تفرغ الشخص لذلك، ولكن الأفضل للدعاة أن تكون لهم مصادر رزق أخرى خارج مجال الدعوة، ليبقى تأثيرهم أكبر في نفوس الناس.

🔴 ثم تشير الآية إلى بعدٍ أعظم: عالمية الدعوة، { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، فدعوة الإسلام ليست محلية أو إقليمية، بل رسالة ربانية للعالم كله: لأوروبا وآسيا، لأفريقيا وأمريكا، لكل الأعراق واللغات والبلدان. والوعي بهذا الهدف يغيّر حجم الاستعداد

والتخطيط، ويضع على عاتق الدعاة مسؤولية كبرى، تُعدّ لها الخطط والوسائل لتصل الرسالة لكل مكان.

ورغم أن الآية نزلت في مكة، في أشد فترات الضعف والاضطهاد، إلا أنها كانت تؤكد للنبي ﷺ أن دعوته ستبلغ الآفاق، وهذا يرسخ قاعدة إيمانية: حتى في الضعف، تبقى الهمم عالية، والرؤية واضحة، والاستعداد للمستقبل واجب، وإن عجزت اليوم عن التبليغ الكامل، فاحمل النية، وأعدّ نفسك، فـ"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

إنها دعوة مفتوحة لكل داعية أن يتحرك على قدر وسعه، مراعيًا ظروف الزمان والمكان والمصلحة، ولكن في قلبه نية عالمية، وهمٌّ كبير، وخطة تتسع للدنيا كلها.

🔁 وهكذا ترسم لنا خواتيم سورة يوسف منهجًا متكاملاً للدعوة:

صدق وتجرد، تخطيط وعالمية، همة رغم العجز، وأمل رغم القيود، وإخلاص لا تشوبه الماديات.

"بين آيات الكون وتلبيسات الشيطان: دروس في الاستدلال والتوحيد من سورة يوسف"

في سياق الحديث عن الدعوة في خواتيم سورة يوسف، تأتي الآية:

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، لتبيّن عظمة التأييد الرباني للدعاة إلى الله، فالدعوة للتوحيد ليست معزولة عن الواقع، بل الكون كله مؤيِّد لها، داعم لرسالتها.

فالدعاة مدعومون بكل آية في السماوات والأرض، لا بالمعجزات فقط، بل بكل شيء حولهم: الشمس، القمر، الأرض، النبات، والإنسان ذاته. الكون بمنظومته هو دليل حيّ على التوحيد. ومنهج القرآن في الدعوة يؤكد هذا الاستدلال العقلي، كقوله:

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾، و ﴿أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

🔴 فالرسالة واضحة: كل ما في الكون يدل على الله، ولكن الناس تمر على هذه الآيات يوميًا وهي عنها غافلة، لا ترى فيها إلا الاعتياد، لا الإعجاز.

وهنا إشارة عظيمة: أن المعجزات ليست أعجب من آيات الكون؛ فالله سبحانه قال في الكهف:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي أن نومهم ثلاثمئة سنة ليس أعجب من الشمس، والقمر، والخلق البديع من حولنا. لكن المشكلة في البشر أنهم إذا اعتادوا الآيات غفلوا عنها، وبحثوا عن "الجديد" المبهر.

ورغم كثرة هذه الآيات، فالكثير يمر عليها معرضًا، ولهذا كانت رسالة تطمين للدعاة: ليس النقص في الأدلة، بل في بصائر الناس. فلو لم يؤمنوا بالكون كله، فهل تنفع معهم المعجزات الخاصة؟

🔶 وهذا يربط بعبادة عظيمة مهجورة: التفكر في آيات الله، كما جاء:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...﴾.

بل إن الله عز وجل حذّر من حال أولئك الذين رغم الإيمان ببعض حقائق العقيدة، إلا أنهم يقعون في الشرك، فقال:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

وهنا تأتي طريقة إبليس الخبيثة في إفساد دعوة التوحيد: فهو لا يأتي بالباطل صريحًا، بل يخلطه ببعض الحق حتى يُقبَل. فكما أن السم يُوضع في العسل، كذلك الشرك يُزيَّن للناس ببعض معاني التوحيد.

فالشيطان يدفع الناس أولاً للإيمان بالله كخالق ورازق ومحيي، ثم يمرر لهم عبادة غيره "لتقريبهم إلى الله"، كما قالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

↩️ وبذلك يدخلهم في الشرك من باب الوساطة، مستغلاً فطرتهم، ومسمياته الخادعة، كتعظيم الأولياء أو التبرك بالتماثيل أو القبور.

ومن هذا الباب جاء تفسير ابن عباس: كانوا يعترفون أن الله هو الخالق، ولكنهم يعبدون معه غيره، ويظنون أنهم ما زالوا على الإيمان، فيقعوا في الشرك وهم لا يشعرون.

وهذه الخديعة مستمرة حتى يومنا هذا، فكم من شخص بدأ بتعظيم الأولياء ثم انتهى بعبادة القبور؟

وكم من إنسان ظن أن تعليق التمائم والحظاظات والخمسة وخميسة من البركة، وهي شركيات؟

وكم من داعٍ للباطل لبس لبوس "المفكر الإسلامي"، وبدأ بتعظيم القرآن لينكر السنة، أو دعا إلى "تجديد الخطاب الديني" ليهدم أحكام الإسلام الثابتة؟!

إبليس لا يفتح على الناس أبواب الشر دفعة واحدة، بل يغلفها بعسل مزيف من الكلمات البراقة والخطاب المقنع، ليهدم التوحيد في نفوسهم شيئًا فشيئًا.

لذلك لا يكفي الدخول في الإيمان، بل المهم هو المحافظة عليه، والحذر من تلبيس إبليس، سواء بالشرك الأكبر أو الأصغر، كالحلف بغير الله، أو الرياء، أو التعلق بالتمائم.

🔴 وفي الختام، تحذر الآيات من الغفلة عن الله:

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وكأنها توقظ الغافلين: من أين لكم هذا الأمان؟

فالغاشية قد تأتي بأي صورة: زلازل، أعاصير، أمراض، أو حتى قيام الساعة، فكيف يأمن العبد وهو مقيم على معصية، مستغلاً حلم الله عليه؟!

الرسالة ختامية بليغة: استغل وقتك الآن، فربما لا تُمهل، ولا تُنذر. فإن حلم الله عليك يجب أن يزيدك حياءً لا غرورًا، وخشيةً لا أمنًا زائفًا.

بهذا تتكامل الرؤية:

الدعوة مدعومة بآيات الكون، والمخاطر تحيط بها من مكر الشيطان، `والمطلوب من الدعاة ومن كل مؤمن`:

▫تفكر، توحيد، ووعي بمكر الباطل... واستعداد دائم ليوم قد يأتي بغتة.

"أصول الدعوة والبصيرة في زمن الفتن: دروس من سورة يوسف"

▫في خاتمة سورة يوسف، تأتي مجموعة من الآيات التي ترسم لنا طريق الدعوة وتضع أساسًا متينًا لفهم الواقع، وسبيل النجاة، وتحقيق العبودية لله.

▪ أولًا: `التحذير من الأمن من مكر الله`

يقول تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾،

وهذه الآية دعوة ملحة للتوبة والخوف من عاقبة الغفلة، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

🔶 وفي الحديث أن الأمن من مكر الله، والاشراك به، واليأس من رحمته من أكبر الكبائر.

فالخوف من الله أصل في الإيمان، وزواله من القلب يخرج العبد من دائرة الإسلام.

قال تعالى:

﴿ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، مما يدل على أن بقاء الخوف من الله في القلب شرط لاستمرار الإيمان.

▪ ثانيًا: `سبيل الدعوة وبصيرتها`

ثم تأتي الآية العظيمة:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

لتلخص منهج الدعوة:

١ـ وحدة السبيل:

الدعوة إلى الله سبيل واحد لا سُبل متعددة، وهو طريق الأنبياء والرسول ﷺ وأصحابه،

قال تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ﴾.

فالفرقة والبدع نتيجة اتباع غير هذا السبيل، كالخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم.

٢- الموقف من البدع وأهلها:

لا وحدة حقيقية للأمة إلا بالعودة للسنة، ولا يجوز إهمال الخلاف العقدي أو التساهل فيه.

بل يتمسك أهل السنة بالحق، ويدعون أهل البدع إليه، دون قبول مناطق رمادية أو حلول وسط.

قال ﷺ:

"فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور...".

▪ ثالثًا: `ربانية الدعوة`

في قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ربانية الدعوة،

`ولها ثلاثة أبعاد`:

▫ مصدرها: الوحي فقط، لا الفلسفة أو المنامات أو الذوق كما يفعل أهل البدع.

▫ منهجها: منهج الأنبياء، الذي يراعي القدرة والعجز، والمصالح والمفاسد، ولا يسلك وسائل فاسدة لتحقيق غايات شريفة.

▫ غايتها: تحقيق العبودية لله في كل حال، سواء في حال الاستضعاف أو التمكين، فالمسلم يؤدي المتاح من العبودية في زمانه ومكانه، دون تهور أو استخفاف بالممكنات.

فـ التمكين ليس هو الغاية النهائية، بل وسيلة لتحقيق العبودية، والعبد يُحاسب على جهده لا على النتائج.

▪ رابعًا: `البصيرة في الدعوة`

قال تعالى:

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾

`والبصيرة هي نور القلب، وهي كالعين للرأس، تُحصَّل بثلاثة أمور`:

١- العلم الشرعي: وهو نور، لا بد من تعلم الأصول والضوابط الصحيحة.

٢- العمل بالعلم: فمن لم يعمل بما علم، يُنزع منه نور العلم.

٣- العبادات المقوية للقلب: كالصلاة، والصوم، والقرآن، والتقوى.

والبصيرة تُفسد بالذنوب، كالنظر المحرم والفواحش، وتُضيّع نور القلب، فيصير صاحبه في ظلمة، لا يميز بين الحق والباطل، خصوصًا في زمن غلب فيه "الرمادي".

▪ خامسًا: `ميراث الدعوة والتربية على المنهج`

قال:

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾،

أي أن الدعوة لها أتباع، ولا بد من تعليمهم أصول الطريق، وتوريثهم المنهج، ليواصلوا المسيرة بعلم وبصيرة وإخلاص.

دعوة الأنبياء دعوة ربانية واضحة، سبيلها واحد، غايتها عبودية الله، وسلاحها العلم والبصيرة.

ولا بد للداعية من التزود بالخوف من الله، والنية الخالصة، والتعامل مع الواقع بموازين شرعية لا انفعالية.

فمن أراد نصرة الدين فليكن على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، بعقيدة صافية، وعمل صادق، ودعوة على بصيرة.

"الدعوة على منهج النبوة: من التوحيد إلى البصيرة، ومن الخواطر إلى اليقين"

◆ في تتمة الحديث عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، تتجلى معالم عظيمة لطريق الدعوة الراشدة، بدءًا من التوحيد ونبذ الشرك، ومرورًا بصفاء المنهج، وشمولية الدعوة، وانتهاءً بتفسير عميق لمعنى اليأس في حياة الرسل.

▪ أولًا: `الدعوة أساسها التوحيد`

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾: تنزيه لله عن كل نقص، وتأكيد على أن الدعوة لا بد أن تبدأ بتعظيم الله وتوحيده، فهو أصل الأصول.

كثير من الناس موحدون اسمًا، لكنهم بحاجة إلى تعميق العقيدة وتعزيزها في قلوبهم.

النبي ﷺ حين أرسل معاذًا إلى اليمن قال: "فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله"، مما يدل على أن التوحيد أول أبواب الدعوة.

▪ ثانيًا: `تنقية الدعوة من الشركيات والشوائب`

يجب أن تُطهّر الدعوة من الرياء وكل مظاهر الشرك الخفي.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إعلان للبراءة من الباطل وأهله، لا يكفي أن تقول "أنا مسلم"، بل لا بد أن تتبرأ من الكفر وأهله وتعلن الولاء والبراء.

لا يكون المسلم مسلمًا حقيقيًا حتى يعتقد أن الإسلام هو الحق وما سواه باطل، ويرفض الاعتراف بصحة أي دين غيره.

▪ ثالثًا: `شمولية الدعوة وواقعيتها`

الدعوة لا تتجزأ، بل تشمل العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملات.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾.

كما يجب أن تكون واقعية، تراعي القدرات والإمكانات، وتبتعد عن الخيالات المثالية أو الأحلام الوردية.

▪ رابعًا: `الرسل بشر من أهل القرى`

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾.

هذه الآية تناقش مسائل هامة:

الرسل من الرجال فقط، والنبوة للنساء فيها خلاف سائغ، خاصة في شأن مريم عليها السلام.

الرسل من البشر دون الجن، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ، ولم يُبعث فيهم رسول.

كلمة "الْقُرَىٰ" في القرآن تعني المدن الكبرى، كمكة "أم القرى"، لما فيها من قوة التأثير والانتشار، ولأن أهلها أوسع ثقافة وأقدر على تحمل تبعات الرسالة

▪ خامسًا: `العبرة بسير الأقوام السابقة`

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: دعوة للتفكر في مصير المكذبين بالرسل، إذ مَن سار في الأرض ورأى آثار القوم كقوم لوط وثمود سيعتبر.

ويؤكد القرآن على هذا المنهج مرارًا بقوله: ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾.

- سادسًا: `الوعد بالنصر رغم شدة البلاء`

تأتي الآية العظيمة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾، لتكون من أعظم آيات الأمل في لحظة اليأس.

الآية لها قراءتان:

"كُذِبُوا" بالتخفيف: ظنوا أنهم كُذِبوا من أقوامهم.

"كُذِّبوا" بالتشديد: ظن أعداؤهم أنهم كذبة، لكن نصر الله جاءهم.

- سابعًا: `فهم أدق للقراءة الأصعب`: "كُذِبوا" بتخفيف الذال

من أصعب المواضع فهمًا، إذ قد يُفهم أن الرسل شكوا في وعد الله، وهو غير صحيح.

`الاحتمالات لتفسير "ظنوا`":

١- الرسل أنفسهم ظنوا – أي جالت بخواطرهم خواطر بشرية مؤقتة، دفعتها الثقة في الله.

٢- أتباع الرسل ظنوا أن أنبياءهم كُذِبوا.

٣- أعداء الرسل ظنوا أنهم كذبوا.

التفسير الأقرب أن الرسل كادوا أن تساورهم خواطر بشرية بالخذلان، لكنهم ثبتوا، ودفعوا هذه الخواطر باليقين.

كما قال ابن عباس: "لقد كانوا بشرًا"، يعانون المشقة وتأخر النصر، ولكن هذا لم يكن شكًا مستقرًا، بل خواطر مؤقتة مأجورون على مدافعتها.

- ثامنًا: `الرسالة العملية من الآية`

المؤمن قد تمر عليه مثل هذه الخواطر في زمن الفتن وتأخر النصر، والواجب أن يدفعها بالرجوع للوحي والتفكر في القصص.

كما فعل يوسف عليه السلام حين جاءه خاطر الفاحشة، فقال: "مَعَاذَ اللهِ"، فكان مأجورًا على مدافعتها.

إذا اشتد الكرب فليتذكر المؤمن أن الفرج قريب، كما قال تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، فالثبات ثمن النصر، والصبر سبيل الفرج.

الدعوة الحقّة تبدأ بالتوحيد، وتنطلق على بصيرة، وتتجرد من كل شرك ورياء.

لا بد من شمولية في الطرح، وواقعية في الفهم، وثبات في الطريق.

وقد تمر القلوب بخواطر اليأس عند طول الطريق وتأخر النصر، لكن أهل الإيمان يقتدون بالرسل في مدافعة هذه الخواطر باليقين والثقة بالله.

فمن سار على سبيل الأنبياء، وبصيرة القرآن، بلغ النور ولو بعد حين.

"حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ: مراتب الفتنة، وأسرار الثبات، وتجليات النصر في قصة يوسف"

🔴 في ختام سورة يوسف، نصل إلى محطة من أعظم محطات التدبر والإيمان، حيث يقول الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

هذه الآية العظيمة تحمل في طياتها بشارات ومفاتيح للثبات، لكنها من أكثر الآيات التي تحتاج إلى تدبر عميق، لا سيما في تفسير قوله: "وظنوا أنهم قد كُذبوا"، والتي وردت بقراءتين:

بالتخفيف (كُذِبوا): أي ظن أنهم قد كُذِبوا.

بالتشديد (كُذّبوا): أي ظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم.

- أولًا: `تفسير "وظنوا أنهم قد كُذِبوا" (بتخفيف الذال)`
  - الاحتمال الأول: الرسل هم من ظنوا

ظن الرسل أنهم قد كُذِبوا، أي جاءتهم خواطر بشرية عابرة بأن وعد الله بالنصر قد تأخر.

ليس شكًا في وعد الله، بل خواطر إنسانية تزول سريعًا مع الإيمان والثقة بالله.

كما قال ابن عباس: "لقد كانوا بشرًا"، فهذه الخواطر لا تؤاخذ، بل يُؤجر المرء على دفعها، كما فعل يوسف عليه السلام حين استعاذ من الفاحشة.

▫ الاحتمال الثاني: الظن كان من أتباع الرسل

المعنى: أن أتباع الرسل ظنوا أن وعود النصر قد كانت كذبًا.

وينقسم أتباع الرسل إلى نوعين:

١- أقوياء الإيمان:

تأتيهم خواطر الشك وقت الشدة، لكنهم يدفعونها باليقين.

كالصحابة الذين اشتكوا من وساوس الشيطان، فقال لهم النبي ﷺ: "ذلك صريح الإيمان"، لأنهم كرهوها ودفعوها.

٢- ضعفاء الإيمان:

يعبدون الله على حرف، فإذا اشتدت الفتنة، انهاروا وصدقوا الظن الفاسد.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾.

هؤلاء لا يثبتون في لحظات الشدة، فتكون الفتنة وسيلة لتنقية الصف وبناء الجيل القدوة القادر على حمل الدعوة.

وهذا درس للأمة في أوقات الاستضعاف: لابد من تمحيص الصفوف، وعلينا أن نكون من الأقوياء الذين يثبتون على الطريق.

▫ الاحتمال الثالث: الظن من أعداء الرسل

أي أن الكفار ظنوا أن الرسل قد كُذِبوا في وعد النصر.

رأوا تأخر التمكين، فاستيقنوا أن الرسل خُدعوا، كما فعلت أم جميل عندما تأخر الوحي فقالت: "ما أرى شيطانك إلا قد تركك"، فجاء الرد الإلهي: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾.

وهنا تتحول الفتنة إلى اختبار للكافرين: هل يتبعون الحق رغم استضعاف أهله، أم يضلون تبعًا لقوة الباطل؟

- ثانيًا: `تفسير "وظنوا أنهم قد كُذّبوا" (بتشديد الذال)`

المعنى: ظن الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم.

من شدة الابتلاء، خُيِّل إليهم أن الناس بدأت تتخلى عنهم، وأنهم ربما سيمضون وحدهم في الطريق.

وهنا تتجلى روعة الثبات النبوي:

حتى في أشد لحظات الوحدة، كانوا عازمين على الاستمرار في الدعوة، ولو لم يبقَ معهم أحد.

🔶 هذه رسالة لكل داعية ومؤمن:

إذا تخلى الجميع، فلا تتخلَّ، فالله معك.

أنت الجماعة ولو كنت وحدك. ثالثًا: وجاء النصر...

حين يشتد الكرب، وتتظلم الحياة، ويبدو أن لا بصيص أمل:

﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

🔁 هذا وعد رباني: إذا اشتد البلاء، اقترب الفرج، وهو ما تكرر في قصص الأنبياء:

- يوسف: "هذا يوم عصيب"... ثم الفرج بلقائه.
- يعقوب: بعد البكاء والشكوى جاء اللقاء.
- موسى: أمام البحر... ثم الفتح وانفراج البحر.
- نوح: "إني مغلوب فانتصر"... ثم أغرق الله الظالمين.
- النبي ﷺ: في عام الحزن... ثم العقبة والهجرة والتمكين.

🔁 القاعدة: "إن مع العسر يسرا"، لكن لمن؟

"من يتقِ ويصبر"، هو الذي يوقن بوعد الله، ويرى النور في قلب الظلمة.

رابعًا: وختام السورة – العبرة الكبرى

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

"عِبْرَةٌ " تشمل كل ما ورد في السورة من معاني التوحيد، والولاء والبراء، والصبر، والتقوى، وحسن الظن بالله، وسنن الله في النصر والتمحيص.

🔶 هذه السورة ليست "حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ"، بل:

تصديقًا لما بين يديه من كتب الأنبياء.

تفصيلًا لكل شيء من العقائد، والشرائع، والأخلاق.

هدى ورحمة، لكن لمن؟

لقوم يؤمنون.

🔁 سورة يوسف تنقلك من أعماق الألم إلى آفاق الأمل، ومن خواطر الشك إلى صلابة اليقين، ومن المحنة إلى المنحة.

آية " حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ..." تلخص معاناة كل داعية وصبر كل مؤمن، ثم تبشره بأن الفرج قريب لمن أحسن الظن بالله وثبت.

فكن من الذين آمنوا، واتقَ، واصبر... فإن نصر الله آتٍ، ولو بعد حين.

🌸 جزاكم الله خيرا سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك 🌸